حائز جائزة إيمباك دبلن الأدبيّة العالمية (IMPAC)

غيربرند باكر

التوأم



رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

غيربرند باكر

التوأم

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

«The publisher gratefully acknowledges the support of the Dutch Foundation for Literature».

«نشر هذا الكتاب بدعم من المؤسسة الهولندية لدعم الآداب».

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-645-9

Originally published as: **Boven Is Het Stil.**

تدقيق لغوي: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: داني عوّاد

الإخراج الفني: فدوى قطيش

I

١

نقلتُ والدي إلى الطابق العلويّ. واضطررت قبل ذلك إلى إجلاسه على أحد الكراسي لأتمكّن من تفكيك السرير. جلس في مكانه أشبه بعجلٍ رضيعٍ لم تمضِ على ولادته أكثر من دقيقتين، ولم تلعقْه أمّه بعد لتنظّف جسمه، برأسٍ حائرٍ ومتمايلٍ وبعينين تطوفان على غير هدىً. انتزعتُ البياضات والملاءات والشراشف، وأسندت الفراش وألواح السرير إلى الجدار، وفكّكت جوانبه. حاولت ما أمكن أن أتنفّس من فمي. وقد سبق لي أن أخليت الغرفة العلويّة، غرفتي.

سألني: «ماذا أنت فاعل؟»

قلت، «ستنتقل».

«لكنني أريد البقاء هنا».

«لا».

سأدعه يحتفظ بالسرير وقد مرّت على نصفه الآخر عشرة أعوام وأكثر وهو بارد، ولا تزال إحدى الوسادات تتوّج الجزء الذي لم يرقد عليه أحد. أعدت تركيب السرير في مواجهة نافذة الغرفة العلويّة، وكبحت دواليب أرجل السرير، وأعدت فرشه بملاءات نظيفة وبكيسين نظيفين للمخدّتين. وأخذت الوالد بعدها إلى الطابق

العلوي. ثبّتَ، عندما رفعته من الكرسي، عينيه في عينيّ وبقي على هذه الحال إلى أن مدّدته في الفراش ووجهانا يكادان يتلامسان.

عندها فقط قال: «يمكنني السير».

«كلاّ لا تستطيع».

شاهدَ عبر النافذة أشياء لم يتوقّع رؤيتها، وقال: «أنا في مكانٍ مرتفع».

«نعم، وهكذا يمكنك أن تنظر وتشاهد شيئاً آخر غير السماء».

عبقت رائحة العفن، بالرغم من الغرفة الجديدة والملاءات النظيفة وكيسي المخدّتين. فتحتُ إحدى النافذتين وأبقيتها مشقوقةً وقد ثبّتها بالكلاّب. عمّ الهدوء في الخارج، وعبق الهواء ببرودةٍ منعشة، ولم يتبقّ إلا بعض الأوراق المجعّدة على الأغصان العليا من الدردارة الملتوية في الحديقة الأماميّة. شاهدت في البعيد ثلاثة درّاجين ينتقلون بدرّاجاتهم الهوائية على طول السدّ، ولو أنني انتحيت جانباً لأمكنه هو الآخر أيضاً من رؤيتهم. غير أنني بقيت في مكاني.

قال والدي: «جئني بالطبيب».

«كلاّ،» أجبته، واستدرت للخروج من الغرفة.

فصرخ، قبل أن يُغلق الباب تماماً: «جبان!»

يوجد في غرفته السابقة، مستطيل من الغبار على الأرض، أصغر من حجم السرير قليلاً. أفرغتُ الغرفة، ووضعت الكرسيّين وطاولتي السرير ومنضدة زينة أمّي في غرفة الجلوس.ودسست إصبعين من أصابعي تحت السجّادة في إحدى زوايا غرفة النوم. وقد سمعت، منذ دهرٍ مضى، والدتي تقول «لا تلصقها» فيما والدي على وشك الركوع على ركبتيه حاملاً بيسراه إناء الصمغ وبيُمْناه الفرشاة ورؤوسنا تكاد تبدأ بالدوار من الأبخرة اللاذعة. «لا تلصقها، فسأحتاج بعد عشر سنوات من الآن إلى

سجّادات جديدة». تفتّتت البطانة تحت إصبعيّ. لففت السجّادة وحملتها عبر غرفة الحليب إلى وسط الحديقة، وأدركت فجأةً أنني لا أعرف ما سأفعله بها، فتركتها تسقط حيث أقف بالتحديد. ذهلت مجموعة من غربان الزرع للقرقعة المدوية المفاجئة وطارت عن الأشجار المصطفّة في الحديقة.

غطّت ألواح الخشب المضغوط أرضيّة غرفة النوم، وجانبها الخشن إلى الأعلى. نظّفتُ الغرفة سريعاً بالمكنسة الكهربائية، ثم استخدمت فرشاةً عريضةً مسطّحةً لدهن الخشب المضغوط بالأساس الرمادي من دون أن أكلّف نفسي حكّه قبل ذلك بورق الزجاج. ولم ألاحظ الخراف إلا وأنا أعمل على القسم الأخير أمام الباب.

وها أنا الآن في المطبخ أنتظر أن يجفّ الطلاء لأتمكن من إنزال اللوحة القاتمة التي تمثّل قطيعاً من الخراف السوداء عن الجدار.إذا أراد أن ينظر إلى خرافه فسأدقّ مسماراً في الجدار عند جانب من جانبي النافذة وأعلّق له اللوحة. باب المطبخ مفتوح وكذلك باب غرفة النوم. أمكنني من مكان جلوسي النظر، في ما وراء منضدة الزينة وطاولتي السرير، إلى اللوحة على الجدار، وقد بلغت من القتامة والتشويه حدّاً لم يمكنني معه تمييز أي خروف على الإطلاق مهما جهدت في المحاولة.

٣

هطل المطر، وأطاحت الريح القويّة آخر ما تبقّى من الأوراق في الدردارة.غاب الهدوء عن تشرين الثاني/نوفمبر مع البرودة الجديدة في الهواء. وأضحت غرفة نوم والديّ غرفتي الآن. طليتُ جدرانها وسقفها بالأبيض وأضفتُ طبقةً ثانيةً من الأساس إلى الألواح الخشبيّة. نقلت الكرسيّين ومنضدة زينة أمّي وطاولتيْ السرير إلى الطابق

العلوي. وضعتُ إحدى الطاولتين بجانب سرير والدي وخزنتُ ما تبقّى في الغرفة الإضافيّة المجاورة لغرفة نومه، غرفة «هنك».

مضى يومان الآن على البقرات وهي في الداخل، وقد أخذت تضطرب أثناء حلبها.

لو أن الغطاء المستدير في رأس الصهريج كان مفتوحاً هذا الصباح لاندفع منه الحليب كالفوّارة جرّاء قوّة الكبح التي استخدمها السائق لتفادي السجّادة الملفوفة وهي لا تزال مرميّة في الحديقة. وما إن بلغتُ غرفة الحليب حتى أخذ يشتم بصوتٍ خافتٍ بينه وبين نفسه. للصهريج سائقان، وهذا السائق هو الفظّ والأكبر سنّاً بينهما. وهو في مثل سنّي تقريباً، ولم يتبقّ له سوى سنوات قليلة من القيادة ليتمكّن من التقاعد.

خَوَتْ غرفة نومي من كلّ شيء إلا السرير. سأشرع في طلاء المنجور: النوافذ والباب وحواف الجدران. قد أطليها بلون الأرضيّة نفسه، لكنّي غير متأكّد من ذلك بعد. أفكّر باللون الأزرق الرمادي، لون بحيرة «إيسل» في يوم صيفٍ تلوح فيه من بعيدٍ غيوم عاصفة مشؤومة.

مضى شابان في زورقيْ تجذيف في ما بدا أنه أواخر تمّوز/يوليو أو أوائل آب/أغسطس، وهو أمر لا يحصل في الغالب لأن طرق التجذيف لا تمرّ بمزرعتي. وحدهم راكبو قوارب التجذيف الطموحون يبلغون هذا الحدّ. الطقس حار، وقد خلعا قميصيهما، ولمعت عضلات أذرعهما وأكتافهما تحت أشعة الشمس. وقفت، غير مرئي، عند جانب المنزل وراقبتهما يحاولان قطع الطريق أحدهما على الآخر، ومجاذيفهما تلطم زنابق المياه الصفراء. استدار الزورق الأمامي جانباً وعلقت مقدّمته عند ضفّة القناة، فرفع الفتى نظره إلى أعلى، وقال لصديقه ذي الشعر الأحمر، الذي غطّى النمش بشرته ولوّحت الشمس كتفيه: «انظر إلى هذه المزرعة، فهي لا تنتمي

إلى فترةٍ زمنيّةٍ محدّدة. إنها موجودة هنا الآن على هذا الطريق، لكن يمكنها أيضاً أن تعود إلى ١٩٦٧ أو ١٩٣٠».

استعرض صاحب الشعر الأحمر مزرعتي، بأشجارها وحقولها التي يرعى فيها الحماران، وهو يجري تقويمه الدقيق. أرخيت أذنيّ لأسمع. «نعم» قال بعد فترة طويلة، «هذان الحماران هما، بالتأكيد، من الطراز القديم».

أرجع صديقه زورقه بعيداً عن ضفّة القناة، ثم أداره في الاتجاه الصحيح. وردّ بشيء لم استطع التقاطه، إذ شرعت طيطواة[1] في إثارة ضجّة كبيرة. إنها طيطواة متأخّرة: فمعظمها قد هاجر مع نهاية تموز/يوليو. انطلق صاحب الشعر الأحمر وراءه ببطء وهو لا يزال يحدّق إلى حماريّ. علقتُ ولا مكان لي أذهب إليه، خصوصاً وأنه لا يوجد شيء يمكن أن يُشغلني عند هذا الجانب من المنزل. وقفت في مكاني بلا حراك وأنا أحبس أنفاسي.

رآني. واعتقدت أنه سيقول شيئاً للفتى الآخر، إذ فتح فاه وأدار رأسه لكنه لم ينبس بكلمة. تطلّع وتركني وشأني من دون أن يراني صديقه. استدارا بعد ذلك بقليلٍ إلى قناة «أوبروود» وانجرفت زنابق المياه الصفراء للتجمّع معاً من جديد. سلكتُ الطريق لأراهما يجذّفان مبتعدين. انقضت دقائق قليلة ولم يعد في إمكاني سماع صوتيهما. حاولت رؤية مزرعتي عبر أعينهما، وقلت بصوتٍ منخفض، وأنا أهزّ رأسي: «١٩٦٧». لماذا تلك السنة بالتحديد؟ فقد تلفّظ أحد الفتيين بالسنة، والآخر، فتى الشعر الأحمر ذو النمش، شاهد المكان. الحرّ شديد في منتصف بعد ظهر ذلك اليوم، وكاد يحين وقت حلب البقرات. شعرت بثقل غير متوقّع في رجليّ في فترة بعد الظهر الفارغة والكئيبة هذه.

(١) نوع من الطيور.

٣

يُشكّل جرُّ «البندول»[١] صعوداً على الدرج عمليّة جهنّمية. استخدمتُ السجّاد وقطعاً من المطّاط الإسفنجي وألواحاً خشبيةً طويلةً وملساء. أخذ كلّ شيء في داخل إطار الساعة في الفرقعة والجلجلة. دفعت بي دقّات الساعة إلى الجنون، غير أنني لم أشأ إيقافها في كل ليلة. واضطررت، وأنا في منتصف طريق الصعود، إلى التوقّف بضع دقائق للراحة. وهي قد تدفعه أيضاً إلى الجنون، لكنه سيحظى، طبعاً، بخرافه لتعيد الهدوء إليه.

«الساعة؟» سألني عندما بلغت غرفة النوم.

«نعم، الساعة».

وضعتها وراء الباب مباشرة، وجذبت الأثقال إلى أعلى، ودفعت الرقّاص برفق. امتلأت الغرفة على الفور بالوقت الذي أخذ يدقّ وهو يمضي بعيداً. سيتمكّن والدي، كلّما أُغلق الباب، من إحصاء الساعات.

ألقى نظرة خاطفة إلى وجه الساعة وقال بعدها: «أنا جوعان».

أجبت: «وأنا أيضاً أجوع أحياناً». وتابعت الساعة دقّها بهدوء.

أضاف: «الستائر مُسدلة».

توجّهت إلى النافذة وفتحت الستائر. توقّف المطر وهدأت الريح بعض الشيء. ارتفع منسوب المياه في القناة وأخذ يتدفّق على الطريق المعبّدة. وقلت لنفسي وللنافذة: «عليّ تشغيل الطاحونة الهوائيّة». وربّما قلت ذلك لوالدي أيضاً.

«ماذا؟»

---

(١) ساعة دقّاقة كبيرة في إطار خشبي.

«لا شيء». فتحت النافذة جزئيّاً وأنا أفكّر بالبقعة الخالية في غرفة الجلوس.

التهمتُ شطيرةً من الجبنة لففتها في المطبخ، وأنا لا يسعني الانتظار. مضيتُ إلى غرفة الجلوس، والمياه لا تزال تقطر من آلة صنع القهوة. أنا وحدي، ويجب أن أفعل ذلك وحدي. رفعت الأريكة على واحدةٍ من السجّادات التي استخدمتها لنقل الساعة، وجررتها عبر الرواق إلى مُلحق المطبخ. نقلتُ الكرسيّين ذويْ الذراعين من الباب الأمامي ووضعتهما على جانب الطريق، وذهب ما تبقّى إلى ملحق المطبخ مع الأريكة. اضطررت إلى إفراغ الخِوان تماماً قبل أن أتمكّن من زحلقته. وعندها أمكنني أخيراً دسّ أصابعي تحت السجّادة وهي أغلى ثمناً ولا تتفتّت بين يديّ. فكّرت، وأنا ألفّها، في الاحتفاظ بها، أَوَلا يسعني استخدامها في مكانٍ آخر؟ لكن لم يخطر إلى ذهني شيء. السجّادة الملفوفة ثقيلة على الحمل، جررتها عبر ممر الحصى ومن فوق الجسر إلى الطريق. وعند عودتي لاحظت الهاتف في الرواق، فاتصلت بالبلديّة لأبلغهم بأنني تركت بعض النفايات الكبيرة الحجم. أما القهوة فأخذت في التبخّر على لوحة التسخين.

رأيت في عودتي من الطاحونة الهوائيّة أمراً سبق أن شاهدته مرّات عدّة في الأيام القليلة الماضية، وهو أمر مقلق. أسراب من الطيور لا تطير شمالاً أو جنوباً، بل في كل الاتجاهات في وقتٍ واحد، وتجنح باستمرار. وشكّلت أصوات رفرفة الأجنحة الضجّة الوحيدة الصادرة عنها. تتألّف الأسراب من أكلة المحار والغربان والنوارس. والغريب في الأمر أنه لم يسبق أبداً أن شاهدتُ هذه الأنواع الثلاثة تطير معاً. في الأمر نذير شؤم. أم هل سبق لي أن شهدت ذلك من قبل من دون أن يثير فيّ مثل هذا الشعور المزعج؟ وجدت، بعد مزيدٍ من المشاهدة، أنها أربعة أجناس: توجد أيضاً بين نوارس الرنكة الكبيرة نوارس ذات رؤوس سوداء وهي أصغر حجماً بكثير. تنزلق متجاوزةً بعضها بعضاً، وتبدو كأنها مُرتبكة في غياب الوحدات المستقلة.

الطاحونة الهوائيّة معدنيّة صغيرة من طراز «بوسمان». كُتب على أحد جانبي ذيلها الحديدي: «بوسمان بيرشيل»، وعلى الآخر براءة الإنتاج «پات رقم ٤٠٨٣٢».

كنت أعتقد أن «پات» هو اسم الصانع، اختصاراً لپاتريك، لكنّني أعرف الآن أنها تعني براءة الإنتاج. وإذا وُجد الذيل عند زاوية قائمة مع المراوح، تُفتِّش الطاحونة تلقائيّاً عن الهواء وتظلّ تدور وتضخ الماء إلى أن يُثنى الذيل إلى الأمام على طول سكّة التوجيه. لكنني أثنيه الآن إلى الوراء مستخدماً قضيباً معدنيّاً مخصّصاً لتلك الغاية. إنها طاحونة جميلة ممشوقة تمتلك طابعاً أميركيّاً. ولهذا اعتدنا، «هنك» وأنا، في الغالب على المجيء إلى هنا في الصيف لأنها تبدو أجنبيّة، وبسبب القاعدة الاسمنتيّة المبنيّة في القناة، ولأننا أحببنا رائحة الشحم. يأتي في كل سنة رجل من «بوسمان» لمعاينة الطاحونة الهوائيّة، ولا يزال كل ما فيها يعمل حتى الآن بسلاسة حتى بعد مرور سنوات على آخر مجيء لرجل «بوسمان». توقّفتُ لحظةً لأشاهد المياه ترتفع في القناة.

سلكت الطريق الطويل عائداً لأحصي الخراف. أحصيت ثلاثاً وعشرين نعجةً بالإضافة إلى الكبش. أرداف النعاج حمراء وقريباً جدّاً سأعمد إلى فصل الكبش عنها. ابتعدَتْ في البداية، ثم لحقت بي مع اقترابي من الجسر. توقّفتُ عند البوّابة، فتوقفتْ هي الأخرى على بعد عشرة أمتار منّي، وقد اصطفّت وهي تحدّق إليّ عند جانبي الكبش المستقيم الرأس، فأصابني ذلك بالضيق.

رأيت السجّادة التي تشبّعت بماء المطر في الحديقة، فقرّرت أن أنقلها أيضاً إلى الطريق.

سويّت الحصى سريعاً في الحديقة الأمامية قبل أن أبدأ الحلب. أخذ الظلام يخيّم بالفعل، وجلس صبيّا الجيران، «تون» و«رونالد»، تحت السجّادة الغالية الثمن وقد فلشا نصفها وألقياه فوق الكرسيّين. سبق لهما، منذ فترةٍ ليست بالطويلة، أن جاءا، قرابة السابعة مساء، إلى أمام الباب الأمامي حاملين شمندراً سكّرياً أحمر، وقد جوّفاه ليصدرا منه صوتاً.جعل الضوء الخافت المنبعث من داخل الشمندر وجهيهما المتحمّسين يبدوان أكثر احمراراً. كافأتهما بلوحي شوكولا «مارس». وها إن لديهما الآن مشعلين.

«هاي، هلمر!» صاحا عبر الثقب الذي أحدثاه في السجّادة – هل استخدما سكّيناً لذلك؟ ـ «هذا منزلنا!»

«بيت رائع،» أجبتهما صائحاً، وأنا استند إلى الممشطة.

«حتى أننا نمتلك ضوءاً!»

«لاحظت ذلك».

«وهناك فيضان أيضاً!»

طمأنتهما: «المياه آخذة في الانحسار من جديد».

«سننام هنا».

قلت: «لا أعتقد ذلك».

«بل اعتقد ذلك» قال «رونالد» الأصغر سنّاً.

«كلاّ لن تفعلا».

وسمعت «تون» يهمس في أذن شقيقه الصغير «سنعود قريباً إلى المنزل، فلا يوجد لدينا ما نأكله».

رفعت نظري إلى نافذة غرفة نوم والدي، فلاحظت الظلام يخيّم في داخلها.

٤

قال: «أريد الاحتفال بعيد القدّيس نقولا».

«القديس نقولا؟» لم يشهد هذا المنزل أي احتفالات بعيد القدّيس نقولا منذ وفاة والدتي. «ولماذا؟»

«لأنه أمر لطيف».

«وكيف تتخيّل حصوله؟»

«تعرف كالعادة».

«كالعادة؟ عليك، إذا أردت الاحتفال بعيد مار نقولا، أن تبتاع الهدايا».

«نعم».

«نعم؟ وكيف ستبتاع الهدايا؟»

«سيتوجّب عليك شراؤها».

«وهديّتك لي أيضاً؟»

«صح».

«عندها سأعرف ما الذي سأحصل عليه».

لا أريد إجراء محادثاتٍ طويلةٍ كهذه معه. جلّ ما أريده أن ألقي نظرةً خاطفةً ومن ثم المغادرة سريعاً. ملأت دقّات البندول الغرفة. ولمعت كتلة من الضوء أخذت شكل النافذة على زجاج صندوق البندول، وانعكست على لوحة الخراف فصارت أقل كآبة بكثير. يا لها من لوحة غريبة، تبدو أحياناً أشبه بالشتاء، وأحياناً أشبه بالصيف أو بالخريف.

ما إن هممت بإغلاق الباب حتى صاح: «أنا عطشان».

«وأنا أيضاً أشعر بالعطش أحياناً». أحكمتُ إقفال الباب ورائي ونزلت الدرج.

وحدها الأريكة وجدت طريق العودة إلى غرفة الجلوس. عثرتُ في الرفّ السفلي لخزانة البياضات المبنيّة في الجدار على لفّة كبيرة من القماش يُحتمل أن والدتي خطّطت لتخيطها ثوباً بالرغم من أنها تبدو كبيرة بعض الشيء على ذلك. وهي ممتازة لتغطية الأريكة. أصبحت الأرضية بلون الأساس الرمادي، وما إن يُفتح باب غرفة

النوم حتى يتواصل اللون إلى حدود العتبة المطليّة حديثاً. وقد دهنتُ ألواح الحافة وإطارات النوافذ والأبواب بالأساس أيضاً. أما الخِوان ففي مكانٍ آخر ومن فوقه خزانة الكتب المنخفضة. رميتُ كل النباتات المزهرة في كومة القمامة، وهو ما لم يترك لي الكثير. وعليّ، عندما أذهب لأشتري طلاءً جديداً، أن أبحث أيضاً عن ستائر معدنيّة أواسطوانيّة؛ فتلك الخضراء الداكنة الثقيلة تجعلني ألهث لالتقاط أنفاسي، وأشكّ بعض الشيء بأن السبب ليس فقط السنوات التي مرّت على تنظيفها لآخر مرّة. نقلتُ ما تبقّى من محتويات خزانة البياضات إلى الطابق العلوي وأنزلت ثيابي إلى الطابق السفلي.

لدينا قطط في المكان، قطط خجولة تجفل سريعاً. يكون عددها اثنين أو ثلاثة وتصبح بعد أشهرٍ قليلة تسعة أو عشرة. بعضها أعرج أو فقد ذيله، والآخر، معظمها في الواقع، جرِب بشكلٍ لا يُعقل. يستحيل احتسابها: فمن غير المفاجئ أن يبلغ عددها العشرة، كما يمكنه أيضاً أن يكون اثنين. اعتاد والدي حلّ مشكلة الهررة بحشر الجراء في كيسٍ من الخيش، يضيف إليه حجراً، ويرميه في القناة. كما إنه عمد منذ فترة طويلة إلى دسّ خرقةٍ باليةٍ في الكيس بعد تشريبها بسائل من خزانة السموم. لا أعرف ماهية هذا السائل؛ هل هو الكلوروفورم؟ لكن كيف وقعت يداه على زجاجة كلوروفورم؟ هل أمكن منذ ثلاثين عاماً الخروج وابتياع أمور كهذه؟ والخزانة الفضّية ـ الرماديّة التي تحمل على بابها شعار الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين موجودة في الحظيرة ولم تحتوِ منذ فترة طويلة على أي سموم: لقد بطلت موضة السمّ. وأنا احتفظ فيها بالطلاء.

رأيته في الربيع الماضي يجرّ قدميه في أنحاء الحظيرة ويحمل صحوناً من الحليب. لم أقل شيئاً، لكنّني تنهّدت بعمقٍ وقوّةٍ ولا بدّ أنه سمع. وفي غضون بضعة أيّام جعل القطط الصغيرة تشرب في صحن واحد من الحليب، ثم أمسك بها وحشرها في الكيس، وهو ليس من الخيش الذي لم نعد نحصل عليه، بل كيس ورق للعلف.

ربط الكيس إلى واقي الصدمات الخلفي لسيّارة الـ «أوبل كاديت» بحبلٍ طوله حوالى المتر.

سبق أن خضع لاختبار منذ سبعة أعوام عندما احتاجت رخصة قيادته إلى التجديد، إلا أن الكثير من أموره لم يسر على ما يُرام، فرسب. ومن يومها لا يُسمح له بالقيادة. لكنّه صعد مع ذلك إلى السيّارة. وكان هناك سديم ضباب رقيق أخضر على الأشجار التي تحيط بالحديقة، والنرجس يزهر حول الجذوع. وقفتُ عند باب الحظيرة وراقبته يشعل محرّك السيّارة التي انطلقت على الفور وقذفته إلى الوراء على المقعد، ثمّ هزّته بقوّة إلى الأمام فضرب رأسه بالمقود. انطلق بها إلى الوراء من دون أن ينظر من فوق كتفه أو عبر مرآة الرؤية الخلفيّة. واستمرّ لفترة على هذا المنوال: يقود إلى الأمام، ويبدّل إلى الوراء، وعلبة السرعة تصرخ، ثم إلى الأمام وهو يدير المقود بعض الشيء. واستمرّ إلى فوق وإلى تحت، وإلى الأمام وإلى الوراء، إلى أن طافت غيمة من دخان العادم بين الشجر. نزل من السيّارة، وحلّ كيس الورق بهدوء شديد وحاول رميه على كومة القمامة. واضطر إلى التقاط الكيس من جديد لا أقلّ من ثلاث مرّات، لأن ذراعيه لم تعودا تمتلكان ما يكفي من القوّة للقيام برميةٍ قويّة. وقال وهو قادم إلى الحظيرة «حُسْنٌ تخلّص من قمامة سيّئة». مسح جبهته وفرك يديه علامة إنجاز واحدة من المهمّات؛ وأحدث ذلك صوتاً أشبه بالصرير.

استغرقني الأمر بعض الوقت للتحرّك. تمهّلت في السير إلى كومة القمامة. لم يكن الكيس عند رأسها تماماً، بل انزلق نزولاً بعض الشيء، ليس لمجرّد فعل الجاذبيّة، بل كان جزء من ذلك بسبب الحركة في داخله. أمكنني سماع مواء خافت جدّاً وخربشة لا تكاد تُسمع. تسبّب والدي بفوضى الأمور، وفي إمكاني إصلاحها له. لكنّني ملعون لو فعلت. استدرتُ وسرتُ مبتعداً عن كومة القمامة إلى أن صرت خارج مجال السمع، وبقيت في مكاني إلى أن انتفى أي صوت أو أي حركة.

وهو يريد الاحتفال بعيد مار نقولا لأنه «أمر لطيف».

٥

أجهل ما الذي يحصل هنا، لكن غراباً أبقع يحدّق إليّ من أحد الغصون العارية في الدردارة. وهي المرّة الأولى التي أشاهد فيها غراباً أبقع في الجوار. إنه رائع، لكنه يصيبني فعلاً بالتوتّر إلى درجة عدم تمكّني من ابتلاع لقمتي إلاّ بصعوبة. مضيت وجلست في مكان آخر يكشف المنظر من النافذة الجانبيّة. توجد أربعة كراسٍ حول الطاولة، ويمكنني الجلوس حيثما شئت لأن الثلاثة الأخرى خالية.

أجلس دوماً حيث اعتادت والدتي الجلوس، على الكرسي الأقرب إلى الموقد، ووالدي قبالتها وظهره إلى النافذة الأماميّة. ويجلس «هنك» وظهره إلى النافذة الجانبيّة، ويبلغ مجال رؤيته غرفة الجلوس عندما تكون الأبواب مفتوحة. أما أنا فأجلس وظهري إلى باب المطبخ، وغالباً ما أشاهد صورة ظلّية لـ «هنك» بسبب سطوع الضوء عبر النافذة التي خلفه، ولكن ليس للأمر أهمّية لأن من يجلس قبالتي هو صورة طبق الأصل عنّي، وأعرف تمام المعرفة كيف يبدو. وها قد عدتُ الآن إلى موقعي القديم، إلى طاولة المطبخ، وأنا لا أحبّ ذلك. وقفت، ودفعت بصحني عبر الطاولة وجلست في كرسي «هنك». لكنني أصبحت من جديد في مرمى نظر الغراب الأبقع الذي أمال رأسه بعض الشيء ليتمكّن من رؤيتي بشكلٍ أفضل. وذكّرني تعرّضي للمراقبة بالنعاج الأربع وعشرين كلّها التي وقفت هناك قبل أيّام قليلةٍ وهي تحدّق إليّ. تملّكني شعور بأن النعاج متساوية معي وليست مجرّد حيوانات تنظر إليّ. لم يتملّكني أبداً مثل هذا الشعور من قبل، حتى مع حماريّ. وها هنا الآن ذاك الغراب الأبقع الغريب.

أزحتُ الكرسي إلى الوراء، وسرت عبر الرواق إلى الباب الأمامي وخرجت إلى ممرّ الحصى. «كش!» رفع الغراب رأسه وحرّك إحدى قائمتيه، فصرخت به

«اذهب!» وعندها فقط نظرت من حولي بضيق. غريب أن يصرخ مزارع شبه مسنّ من بابه الأمامي المفتوح على شيء غير مرئي.

حدّق الغراب الأبقع بي باستنكاف، فصفقت الباب الأمامي. وبعودة الهدوء إلى الرواق سمعت والدي يقول شيئاً في الأعلى. فتحت الباب المؤدّي إلى الدرج.

صحت: «ما الذي قلته؟»

وقال: «غراب أبقع».

صحت: «وماذا بعد؟»

«لماذا تطرده؟» يبدو، بغض النظر عن الأمور الأخرى المصاب بها، أنه ليس أصمّاً.

أغلقت باب الدرج، وعدت إلى طاولة المطبخ لأجلس في مكان والدي وظهري إلى النافذة الأماميّة. مضغت فطيرتي بحسّ متبلّد باذلاً كل جهدي لتجاهل الوالد الذي استمرّ مع ذلك في الكلام.

كنت، بمرور عشر دقائق، قد جلست على كل واحدٍ من الكراسي. ولو ان أحداً شاهدني لاعتقد أنّني أحاول أن أكون أربعة أشخاص معاً، لأتفادى تناول الطعام وحدي.

شرعتُ في العمل بالخشب بعدما طليت جدران غرفة الجلوس وسقفها بالأبيض. احتجت إلى طبقتين لتغطية المستطيلات الباهتة التي برزت لدى انتزاعي اللوحات والصور والمطرّزات. اشتريت الطلاء وفرشاةً جديدةً من محل الدهان، وزرت بعد ذلك متجر «اخدم نفسك بنفسك» وعثرت على ستائر خشبيّة تتناسب تماماً مع نوافذ غرفتَي النوم والجلوس. يبدو أن المقاييس التي استُخدمت منذ مئة وخمسين عاماً لا تزال شائعةً اليوم. وقبل شروعي في تركيب الستائر، أخذتُ النباتات التي تركتها على حواف النوافذ ورميتها هي الأخرى على كومة القمامة. وها قد أصبح المكان في

الغرفتين فارغاً وباللون الرمادي الأزرق، والضوء يدخل إليهما بخطوط أفقيّة لأنني لم أرفع الستائر في الصباح، بل اكتفيت بإدارة شفراتها الضيّقة.

صعدت إلى الأعلى ومعي صندوقة من المسامير ومطرقة وقفص للبطاطا كبير وثقيل.

سألني الوالد: «ما الذي أنت فاعله؟»

أخذتُ اللوحات والصور والمطرّزات، الواحدة تلو الأخرى، وشرعت في تعليقها. وقلتُ: «تعتقد أن الاحتفال بعيد القدّيس نقولا أمر لطيف، ويمكننا أن نحوّل المكان أيضاً إلى مكانٍ لطيف».

«ما الذي تقوم به في الأسفل؟»

«كل شيء».

علّقتُ الصورة الأولى إلى جانب لوحة الخراف، وانتقلت بعدها سريعاً إلى الجدران الأخرى: صور ضمن إطارات للوالدة و«هنك»، وصور لأبطال مسابقات الحليب المتزيّنين بعقود الورد، لأجدادي ولي، مُطرّزتان صُنعتا لمناسبة ولادتنا، وصورة زفاف أبي وأمّي. وضمّت اللوحات، وهي مجموعة أصليّة، ستّ مائيات لأنواع الفطر.

«ما الفكرة من هذا؟»

«أن يصبح لديك ما تنظر إليه».

ما إن انتهيت من تعليقها كلّها حتى تطلّعت إلى الصور عن كثب. هناك واحدة لأمي على كرسي ذي ذراعين. جلست بوضعية أشبه بسيّدة راقية حقيقيّة، يداها مشبوكتان باحترام على حضنها، وساقاها مضمومتان باحتشام وفي وضع جانبي بعض الشيء، ما اضطرها إلى إدارة جذعها العلوي قليلاً. وهي تنظر إلى المصوّر بطريقةٍ لا تتناسب معها على الإطلاق، وبتعبيرٍ يجمع بين الغطرسة وبعض الإغواء، وهو انطباع

تزيد منه ساقاها المائلتان. أنزلت الصورة عن الجدار ووضعتها في قفص البطاطا الفارغ مع المسامير والمطرقة.

«دعها مكانها» قال والدي.

«كلاّ، سأنزلها معي إلى تحت».

«ألدينا بعض اليوسفي (المندرين)؟»

«أتريد بعضاً من اليوسفي؟»

«نعم».

أطبقت الركيزة خلف إطار اللوحة ووضعت الوالدة على رفّ الموقد. تناولت حبتين من اليوسفي من ملحق المطبخ وأخذتهما إلى الأعلى. وضعتهما على طاولة السرير وسرت إلى النافذة. لا يزال الغراب الأبقع داخل شجرة الدردار، وأنا أنظر إليه مباشرةً من هنا.

سألتُه: «هل ينظر إليك ذلك الغراب الأبقع؟»

«كلاّ، بل ينظر إلى الأسفل».

تذكّرت فجأة ما قد نسيته. نزلت إلى تحت ثم دخلت المطبخ. توجد في الزاوية، بجانب المكتب، بندقيّة الوالد. تناولتها متسائلاً إذا كانت محشوّة، لكنّني لم أتفحّصها. شعرت بالغرابة وأنا أحملها، فلم يُسمح لنا بذلك في الأيام الخوالي، وبعدها لم أعد أريد أن أفعل ذلك. أخذت البندقيّة إلى فوق وأسندتها إلى جانب البندول. غفى والدي وهو مستلقٍ على ظهره ورأسه متدلّ إلى أحد الجوانب، وخيط من اللعاب يسيل على الوسادة.

٦

كانت أمّي امرأة بشعة فوق الحدّ. وقد يعتبر من لا يعرفها، أن الصورة على رفّ الموقد مثيرة للسخرية: زوجة مزارع ضامرة، جاحظة العينين، تسرّح شعرها ثلاث مرّات في السنة وتبذل ما في وسعها لاتخاذ وضعيّة وقورة. وأنا لا أضحك من الصورة، فهي أمّي. لكنني أتساءل أحياناً عن السبب الذي دفع بوالدي – المتمدّد في السرير، صاحياً، محدّقاً بالشخص الوسيم الذي كانه في تلك الصور القديمة – إلى الزواج بها. أو أتساءل بالأحرى، وقد أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أنظر إلى صورتها، وأفكّر في السبب الذي دفعها إلى الزواج بالرجل الموجود فوق.

لم يتبقّ، سواها، الكثير من الأشياء على رفّ الموقد الرخامي الأسود إلا شمعدان برونزي يحمل شمعة بيضاء، وعلبة أقلام قديمة عليها صورة لبقرة سوداء مبقّعة بالأبيض في وسطها. أما الأدوات الأخرى كلّها ففي صندوق في غرفة نوم «هنك»، إلى جانب غيرها من الأشياء الفائضة، بعدما تحوّلت هذه الغرفة إلى مخزن. وبات سريره، الذي لم يستخدمه أي زائر، مطوّقاً بكل الأشياء التي شهدها أيضاً وعرفها. أضحت غرفة نومه مركزاً كبيراً لتجميع الماضي بينما لا يزال المتحف الحيّ يتنفّس في غرفة النوم المجاورة. يتنفّس ويتحدّث. بل إنني، وأنا هنا الآن، استطيع سماعه يتمتم. هل يحادث الغراب الأبقع؟ أم الصور؟ أم نباتات الفطر المائيّة الست؟

وُلدنا، «هنك» وأنا، عام ١٩٤٧؛ وأنا أكبره ببضع دقائق. ظنّوا في البداية أننا لن نعيش لنرى اليوم التالي، ٢٤ أيّار/مايو، لكن الشكّ لم يراود الوالدة في شأننا أبداً. «خُلقت النساء لإنجاب التوائم،» هذا ما يُفترض أنها قالته بعدما أرضعتنا للمرّة الأولى من ثدييها. وأنا لا أصدّق ذلك: أقوال كهذه تنبع دوماً من الأحداث والتعليقات، وهي في النهاية الشيء الوحيد المتبقّي. ومن المؤكّد أنه قيل الكثير من

الأمور الأخرى في حينه، والأرجح أنّ في الأمر تنويعاً لأمر قاله والدي أو الطبيب. وربّما لم تتفوّه أمي بالشيء الكثير.

لدي ذاكرة لا يجب عليّ امتلاكها. أرى وجهها من تحت، فوق انتفاخ لامعٍ ولطيف. أنظر إلى ذقنها، وبالأخص إلى عينيها الجاحظتين بعض الشيء، اللتين لا تتوجّهان إليّ بل إلى نقطة في البعيد، وليس إلى أي مكان بالتحديد: الحقول، أو ربّما السدّ. إنه الصيف، وقدماي تشعران بأقدام أخرى. كانت والدتي امرأة قليلة الكلام لكنها تلاحظ كلّ شيء. وكان والدي كثيرَ الكلام لكنه بالكاد يلاحظ شيئاً. لطالما شقّ طريقه بالصراخ.

نقر أحدهم على النافذة. إنهما «تون» و«رونالد» يقفان في الحديقة الأماميّة يصيحان ويومئان. توجّهت إلى الباب الأمامي.

«هلمر! أفلت الحماران» قالها «رونالد» بنبرة تخبرني أنه يود لو أن الحمارين يفلتان في كل يوم.

«لا يزالان في الحديقة» قال «تون» بنبرةٍ أوحت لي بأنه تناهى إليه أيضاً ما يريده حقّاً شقيقه الصغير.

سبقاني ركضاً حول زاوية المنزل، فصحت بهما أن تمهّلا!

وجدت الحمارين بين الأشجار على بعد نحو خمسة أمتار أمام البوّابة المفتوحة جزئيّاً. تدلّى الحبل الذي يبقي في العادة البوّابة مغلقةً على العمود الإسمنتي. وأدركت ما حصل.

«حسناً، من الأفضل لكما إعادتهما إلى الحقل بجانب الإسطبل».

«مَنْ؟» سأل «رونالد».

«من تظن؟ أنتما الاثنان».

«ولماذا نحن؟»

«هكذا».

أما الآن وقد أفلت الحماران، أخذ الخوف منهما بـ «تون» و«رونالد». الأمر أشبه بالصنابير: تعتقد، وأنت صغير، أنها أشياء عظيمة إلى أن تفتح أحدها من دون أن تمتلك أي فكرة عن كيفيّة إغلاقه من جديد، فتُصاب بالذعر من كل تلك المياه الآخذة في التدفّق.

«هكذا؟» قال «تون». «وماذا يعني ذلك؟»

قلت: «يعني أنني أعرف أنّكما فتحتما البوّابة لأنكما أكسل من أن تتسلقاها، وأن «رونالد» تبعك وفتح البوابة أكثر قليلاً».

«آه، هه». قال «رونالد».

أسكته «تون» بنظرةٍ غاضبة.

«هيّا، ادفعا».

«ندفع؟ البوّابة؟»

«لا ادفعا بالحمارين».

سرت نحو البوّابة، رفعتها ودرت بها إلى أن فتحتها بالكامل.لم يأتِ الصبيّان بحركةٍ ونظرا إليّ غير مصدّقين وخائفين قليلاً.

يقضي الحماران فتراتٍ طويلةً في زريبتهما على مقربةٍ من خمّ الدجاج. فالحمير تكره بشكلٍ مطلق أن تترطّب أقدامها. والمكان جاف في الزريبة وأرضيّتها مفروشة بطبقةٍ من القش. ويبلغ عرضها ١٦ قدماً وطولها ٢٠. وهي مفتوحة من الأمام مع سقف يخيّمها. وللحمارين مربط بطول ١٦ وعرض ١٤ قدماً، وتحتل الأقدام الست المتبقّية، وهي في الواجهة، بالات من التبن وكيس من الشوفان. كما إنني أترك في الغالب بعض الشمندر السكّري والجزر الشتوي في أحد الصناديق. ولديّ على أحد الرفوف سكّين كبير، ومحسّة، وفرشاة، ومبرد خشن، ومفراغ للحافر، ومكشطة.

ولا يدع «تون» و«رونالد» يوماً يمرّ من دون زيارة الزريبة عندما يكون الحماران في الداخل. يجلسان على بالات التبن أو على القش المبعثر في المربط. إلا أن ما يحبّانه أكثر هو عندما يصبح الخارج أكثر ظلاماً وأُشعلُ الضوء. وجدتهما في إحدى المرات مستلقيين على ظهريهما تحت الحمارين. ولما سألتهما عن سبب فعلتهما أجاب «تون»، وكان يومها في حوالى السادسة، «نريد التغلّب على مخاوفنا». عطس «رونالد» لأن رداء الحمار الشتوي الطويل تدلّى على وجهه. أما، وقد أصبح الحماران في الخارج، فإنهما أُصيبا بالخوف.

«كيف؟» سأل «رونالد».

«لا شيء فوق العادة. ما عليكما إلا أن تقفا وراءهما وتعطيانهما دفعة».

«مستحيل،» قال «تون».

قلت «إنهما لن يفعلا شيئاً».

«أمتأكّد أنت؟» سأل «رونالد».

«متأكّد».

استدارا إلى خلف الحمارين وشرعا في الدفع بكل ما أوتيا من قوّة. ربّت «تون» بحرص على ظهر حماره للتأكّد من أنه لن يرفس. وسكنني الفضول لأرى ما الذي سيحصل.

لكن لم يحصل أي شيء، فتوجّهت صوب الحظيرة.

«إلى أين تذهب؟» سأل «تون».

أجبت: «سأعود على الفور».

غرفت من الحظيرة بضع كمشات من العلف وضعتها في سطل وألقيت من خلف الزاوية نظرة خاطفة إلى الصبيّين للتحقّق من الأمور قبل أن أعود. لم يتبّدل شيء. ولمّا رأيت «تون» ينظر من حواليه بقلق، سرت نحوهما. وسألت: «ألم ينجح الأمر؟» فقال «رونالد» «لا. حيوانان غبيّان».

سألته: «ماذا؟»

«حسناً» قال.

«إنها لا تتزحزح» قال «تون». سرت إلى حقلة ترويض الخيل وهززت السطل. سقط «رونالد» أرضاً من جراء السرعة التي هرع فيها الحمار الذي يدفعه صوبي. أفرغت السطل وأقفلت البوّابة. وأمضينا، ثلاثتنا، بعد ذلك بعضاً من الوقت متّكئين إلى البوّابة نراقب الحمارين يأكلان العلف. وقفت على الأرض، و«تون» على العارضة السفلى و«رونالد» على العارضة الثانية من فوق.

قلت: «لن تفعلا ذلك ثانية، أليس كذلك؟»

وأجابا بصوت واحد: «كلاّ».

قفزا نازلين وسارا إلى الحديقة. ولمّا باتا عند الجسر تقريباً استدار «تون» وصاح: «أين والدك؟»

أجبته: «في الداخل».

لم يحتج إلى معرفة المزيد. عبرا الجسر وانحرفا يميناً.

بقيت مع الحمارين اللذين لا اسم لهما. عندما اشتريتهما منذ سنوات عدة لم أفكر بأيّ أسماء ثم مرّ الوقت وفات الأوان إذ أنهما أصبحا «الحمارين» وحسب. سألني الوالد إذا كنت قد جُننت. «حماران؟ لماذا نحتاج إلى الحمارين اللعينين؟ سيكلّفاننا ثروة». فأجبته أنهما ليسا حمارينا، بل حماريّ. أما تاجر المواشي فكان مسروراً لأنه قام بصفقة، وكانت صفقةً مختلفةً على أي حال. والحماران من نسلٍ مختلط، وليسا من نسلٍ صافٍ فرنسي أو إيرلندي أو إيطالي أو إسباني. لونهما رمادي داكن ولأحدهما خطمٌ رمادي فاتح. فرقعت لساني لهما وهمست، «أين والدكما؟» فاقتربا منّي ودفعاني برفق على رأسي بخطميهما ذَوَيْ اللونين المختلفين.

البقرات في حال من الاضطراب، وقامت اثنتان منها بالرفس لما حاولت ربطهما بجهاز الحلب. تأكّد لديّ، حتى وقت قريب، أن السبب في ذلك هو أنها لم تعد تخرج، لكنني أخذت أشك الآن بأنني أنا المضطرب. فالبقر، بهذا المعنى، أشبه بالكلاب. يُفترض بالكلاب أيضاً أنها تشعر بحالة سيّدها الذهنيّة، وأنا لا أملك كلباً. ليس لدينا كلاب في المكان.

لم يتناول والدي حبة اليوسفي، ولم أشأ أن أعرف. فأنا نقلته إلى فوق ويمكنه، في ما يخصّني، أن يذهب ويجثم على السطح أو يتابع حتى أشجار الصفصاف التي تحيط بالحديقة، بحيث يمكن لهبّة ريح أن تطير به إلى السماء. فمن الأفضل لو أنه يختفي وحسب.

قال: «لا أستطيع انتزاع القشرة».

حاولت ألاّ أنظر إلى حبّتي اليوسفي على طاولة السرير، أو إلى الأصابع الملتوية على الشرشف. أخذت الرائحة الكريهة تنبعث من هنا فعلاً بالرغم من انني أبقي النافذة مشقوقة. وسيتوجّب عليّ، إذا لم يختفِ، أن أغسله. ضممت يديّ كالكأس عند حافة النافذة لحجب ضوء المصباح قبل أن أسحب الستارة. ووضعت رأسي بين يديّ، وتطلّعتُ إلى الدردارة في الحديقة الأماميّة. رحل الغراب الأبقع، يمكن أن يكون الظلام قد بلغ حدّاً بحيث أنه اختلط بالأغصان وسماء الليل؟

شاهدت شخصاً يسير. توجد أعمدة إنارة على طول الطريق، واحد لكل بيتٍ أو مزرعة، أي ما مجموعه سبعة أعمدة. لكن هناك خطباً ما مستمرّاً منذ بضعة أسابيع في عمود إنارتي. فهو يتوهّج، لا أكثر؛ ولن يبلغك ضوؤه حتى لو وقفت تحته تماماً. والستائر الخشبيّة في غرفة الجلوس مغلقة، والظلام مخيّم في الخارج بحيث لا يمكنني أن أميّز إلا طيف شخصٍ يسير، وها هو قد توقّف أمام المزرعة، بقعةٌ قاتمة بالكاد تكون مرئيّة والقناة في الخلف. حتى أنني لا أستطيع تمييز الجهة التي تنظر إليها البقعة.

«ما الأمر؟» سأل الوالد.

همست: «شخص ما على الطريق».

«من؟»

«لا أستطيع تمييزه بصورة صحيحة». ثم تحرّكت البقعة واكتسبت فجأة الضوء الأحمر لدرّاجة هوائيّة. تابعتُ الضوء الخلفي إلى أن اختفى متجاوزاً إطار النافذة. شددت الستائر وأغلقتها، وقلبي يخفق في حلقي. وقلت، «حسناً إذاً» وتناولت حبّتي اليوسفي عن طاولة السرير وقشّرتهما وانتزعت الخيوط المرّة البيضاء وناولتهما لوالدي بعدما فصّصتهما. وسرعان من سالت العصارة على ذقنه.

«طعم لذيذ» قال.

٧

رافقني الخوف في حياتي كلّها، الخوف من السكون والظلمة. وواجهت، طوال حياتي، مشكلة في النوم، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من صوتٍ لا يمكنني تمييزه لأستيقظ تماماً. لكنني لم أتوقّف، رغم ذلك، عن التفكير في ما يجري في الخارج ليلاً. تعوّدت بالتأكيد في الأيام الخوالي أن أشاهد، من خلال نافذتي، عبور كل أنواع الأشياء، بالرغم من معرفتي بأن النافذة تقع في مكانٍ يرتفع كثيراً عن ممر الحصى. رأيت كتفين: الكتفين المتشنّجتين المحدودبتين لشخصٍ يتسلّق واجهة المنزل أشبه بنمر، وذراعه تتكلّب أحياناً بحافة النافذة. وأستمع عندها إلى «هنك» يتنفّس بقربي، أو أتخيّله، لاحقاً، نائماً في غرفة النوم المجاورة لغرفتي، فتختفي

عندها الكتفان، أو أي شيء آخر اعتقدت أنني رأيته. وعرفت في قرارة نفسي أنني أرى أموراً يستحيل وجودها هنا.

ها أنا الآن، بعد الذي رأيته على الطريق وبعدما أطعمت والدي، مستلقٍ على السرير أشدّ على عينيّ لأغمضهما. ارْقدْ. قلت لنفسي: ارْقدْ. لكنني رأيت نعاجاً ممدّدة في الحقل، تئنّ وتجترّ، وبقعاً رماديّة في المدى المخضرّ الأسود الواسع، وغرباناً على أشجار الصفصاف ورياشها منفوشة حول رؤوسها، والحمارين، أحدهما في مواجهة الآخر، على مقربة من البوّابة، وعنقاهما منحنيان كما لو أنهما ينامان واقفيْن ورأساهما متلامسان، وطاحونة «بوسمان» الهوائية التي أوقفتها من جديد، وهي تنتصب وحدها في الزاوية النائية، تلمع باللون الرمادي الباهت كلّما حصلت انفراجة في الغيوم، وشخصاً ما عند الطاحونة الهوائيّة ينظر إلى ذيلها في الأعلى ويقرأ «رقم ٤٠٨٣٢». وكلّما رأيت ذلك أمامي أفتح عيني. فهل أن وقوف شخصٍ من دون حراك أمام المزرعة في ليالي الخريف أمر شائع الحدوث؟ وهل كنت سأعرف بذلك لو لم يصدف أنني نظرت عبر النافذة؟

فكّرت لاحقاً بفتيي زورقيْ التجذيف. فالأوّل، الذي وصف المكان هنا بأنه لا ينتمي إلى زمن محدّد، مبهم وسرعان ما اختفى. أما الآخر، صاحب الشعر الأحمر والكتفين اللتين لوّحتهما الشمس، فعالق في ذهني. قال شيئاً، ولكن لا يهم ما قاله. لقد رأى الأمر ورآني. مزارع متقدّم إلى حدّ ما في العمر ببذة عمل زرقاء باهتة أبقى أزرارها العليا مفتوحة بسبب الحر، يقف في الظل على مقربةٍ من بيت المزرعة ولا يملك سبباً لوجوده هناك سوى التطلّع من دون حراك ممسكاً بأنفاسه. وهو في كل يوم، منذ عام ١٩٦٧، يتقدّم في العمر من دون أن يشهد أي تغيير آخر. لا، بل هناك أمر تغيّر، الحماران، وهو من بين كل الأمور الشيء الوحيد الذي علّق عليه. اعتبرهما موضة قديمة. وهكذا، فإن ما قاله له أهمّية. وقد جذّفا مبتعدين إلى قناة «أوبروود»، شابان، ضحوكان، يتملكّهما هاجس الذات، وسرعة النسيان. أخذت الشمس تغيب

عند طرف القناة، وهذا مستحيل لأن القناة تتجه شرقاً، ولهذا لا تغيب الشمس أبداً عن بحيرة «إيسل»، لكنها تستطيع الآن. وتحوّل الفتيان إلى ظلّين وأصبح صوتاهما أكثر فأكثر ضعفاً، ثم اختفيا. والآن، فكّرت، أنني استطيع النوم. غير أنه يمكنك نسيان الأمر عندما تفكّر فيه. ذكّرتني الشمس الخياليّة بالبحر الواقع على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب في اتجاه طيران الغربان. ذهبنا إلى هناك منذ فترة بعيدة، مرّتين في الصيف. وفي اليومين تحوّل الطقس إلى غائم في فترة بعد الظهر. أرادت والدتي رؤية الشمس تسقط في الماء وأقنعتْ والدي بترك عامل المزرعة يحلب البقرات بنفسه. لم يسبق لي أبداً مشاهدة الشمس تغطس في البحر، بالرغم من أنني يسعني ذلك من مسافةٍ ليست ببعيدة.

أسمعُ شيئاً؛ اعتقدت أنه تحت نافذتي فانتصبَ شعر رقبتي. فكّرت بوالدي فوق. لم يعد يشكّل فائدةً لأحد، لكنني في النهاية أحتاجه الآن للسيطرة على خوفي.

ربّما كان صاحب الشعر الأشقر يفكّر فيّ أحياناً: ذلك المزارع المسن الذي اكتفى بالوقوف في المكان، في ذلك اليوم الصيفي الجميل.

٨

«عجوز؟ لستَ عجوزاً لا من قريب ولا من بعيد يا هلمر». جلستْ «آدا»، والدة «تون» و«رونالد»، قبالتي إلى طاولة المطبخ، وتابعت: «أما والدك فعجوز، نعم».

تناهت إلى «آدا» أمور من خلال ابنيها، أمور عن حمارين و«شفرات خشبيّة» أمام النوافذ، فأصابها الفضول. «أتعرف من المسنّ أيضاً؟ إنه كلاس فان بالن الذي يقيم خارج بروك تماماً. هو من عمرك ويعيش في بؤسٍ تام. لا يمكنه الاعتناء

بنفسه. ففي اليوم السابق بالذات، أخذوا منه خرافه التي أهملها تماماً، فأضحت كتلةً من الصوف والعظام المقعقعة».

والمسألة هي في أنني نسيت أن «آدا» باتت تشرب قهوتها مرّة، وعزوتُ الأمر إلى تقدّمي في السنّ.

تعتقد «آدا» أن ما فعلتُه في غرفتَي النوم والجلوس «عظيم». فلون الأرضيّة الأزرق والأشغال الخشبيّة أمرٌ «رائع وحسب» وقد راعتها بنوع خاص رحابة المكان. وهي ترى أنني أحتاج إلى شراء لحاف محشوّ بالريش، وترفض البطّانيات لأنها لم تعد رائجة و«موضة قديمة جدّاً، جدّاً»، وأن النوم تحت لحاف الريش أكثر «راحتيّاً» (تساءلتْ لاحقاً، هل هذه كلمة بالفعل؟). أرادت أن تعرف كم دفعتُ ثمن الستائر الخشبيّة لأنها تفكّر في التخلّص من ستائر منزلها (مصيدة الغبار تلك). وهل أنني رميت بالكراسي؟ كلاّ، انتظر، فهي تعرف ذلك بالفعل، وقد تذكّرتْ فجأةً واحدةً من قصص «تون» و«رونالد»، عن أمر يتعلّق بـ«سجّادة البيت». وهي «تعشق الأمر وحسب»، أي رمي الأشياء، وجعل المكان رحباً بدلاً من التعلّق دوماً بكل شيء. توجّهتْ مرّةً إضافيةً إلى غرفة النوم. لماذا أستمرُّ في النوم على سريرٍ مفرد؟ فلديّ في السرير المزدوج «مكان للتمدّد». قالت ذلك ورمقتني بنظرة خبيثة. وذلك اللحاف المحشو ريشاً، «عليك به، كما تعرف» لأنه يسعني عندها شراء بعض الأغطية اللطيفة الزرقاء للحاف وهو ما سيجعله «أكثر نضارة» وجمالاً.

فتحتْ ذراعيها، وهي في الطريق إلى المطبخ، لتشير إلى الجدران العارية في غرفة الجلوس. الفن. لماذا لم أبتعْ «بعض الفن»؟

لا تزال «آدا» شابة في حوالى الخامسة والثلاثين. ويكبرها زوجها بعشر سنوات على الأقل، وربما خمس عشرة. وهي تتفجّر طاقة. ولو تسنّى لها الأمر لجاءت إلى منزلي لتنظيفه مرّة في الأسبوع بدلاً من مرّة في السنة، في نيسان/أبريل، كما هو شأنها الآن. تتولّى أمانة الصندوق في المؤسسة النسائية المحلّية، وتصنع الملاحف، وهي

عضو في مجموعة للمطالعة، وتساند مجتمعها المحلّي، وتنشغل في زراعة «أجمل حديقة في ووترلاند كلها». تُذكِّرني بأمّي لأنها تكاد تتساوى معها بشاعة، غير أن السبب في حالة «آدا» هو عَلَمٌ (شقّ في الشفة العليا) لم يتم تصحيحه بالشكل المناسب. ابناها جميلان بشعريهما الأشقرين وأهدابهما الطويلة وفميهما المثاليّين. وهي ليست من الجوار، وربّما هذا هو السبب في معرفتها لكل شيء عن كل واحدٍ على مسافة أميالٍ من حولنا.

صببتُ لنا كوبين آخرين من القهوة وأنا أغالب التثاؤب. أحبّ «آدا»، غير أن حماستها وحديثها الصادر من القلب لا يزالان يطغيان عليّ، خصوصاً بعدما أكون قد انتهيت للتوّ من حلب البقرات وعلف العجول.

«هكذا إذاً، تبادلتَ غرف النوم مع والدك. كيف حاله؟ أيمكنني الصعود سريعاً لرؤيته؟»

«حسناً» قلت، ثم كذبتُ عليها. «كلاّ، فهو نائم، لا تزعجيه».

ارتشفت «آدا» قهوتها وهي تنظر إليّ من فوق حافة كوبها. وقالت: «عجوز... ما الذي أوحى لك بهذه الفكرة؟ أنت مليح الوجه، ورأسك يكسوه الشعر اللطيف كلّه وليست لديك أونصة واحدة من الشحم الزائد».

اصطبغت بالاحمرار، وهو شعور انتابني ولا يسعني أن أفعل شيئاً حياله، ليس فقط لأن «آدا» قالت إنني مليح الوجه، بل الأكثر من ذلك لأنني كذبت ويمكن لوالدي أن يفضح كذبتي في أي لحظة. فهو ليس بنائم.

«وها أنت تحمرّ خجلاً كتلميذ مدرسة!»

جلستْ «آدا» في موقعي القديم، وهي لا تجلس إلا فيه كلّما جاءت إلى هنا بحيث يمكنها مشاهدة مزرعة زوجها من جانب النافذة وتشعر كما لو أنها تبقي نظرها على ما يجري بالرغم من أن المزرعة تقع على بعد أكثر من خمسمئة متر. أما أنا فأجلس في مكان أمّي. وها قد مضى على الغراب الأبقع أكثر من أسبوع وهو

يجثم على الغصن نفسه في الدردارة. جاء عيد القدّيس نقولا – ولكن ليس إلى منزلنا – ومضى. ونحن في يوم سبت، والشمس ساطعة من دون أي ريح. إنه صباح صافٍ من صباحات كانون الأول/ديسمبر وكل شيء عارٍ وصارخ جدّاً. إنه يوم يشعرك بالحنين، ليس إلى الديار لأنني موجود فيها، بل إلى أيام كهذا اليوم تماماً ولكن منذ فترةٍ بعيدة. لكن «الحنين» ليس بالكلمة المناسبة، بل عليّ أن أقول «التوق». ولن تفهم «آدا» الأمر، لأنها غير متحدّرة من هنا، ولا تتذكّر الأيام لكن التي تشبه تماماً هذا اليوم في هذا المكان.

سألتها: «هل سبق لكِ أن رأيتِ غراباً أبقع في الجوار؟»

« وكيف هو الغراب الأبقع؟»

«يوجد واحد في الدردارة».

نهضت ونظرت عبر النافذة الأماميّة، وقالت، «إنه ضخم».

«مضت عليه أيّام الآن وهو يجلس هناك يراقب كلّ حركة».

«هذا لطيف» قالت «آدا» التي لم تهتم البتّة. استدارت وعاودت الجلوس. يبدو الأمر عندما تتكلّم وكأن كرةً من الصوف موجودة في فمها. لا بدّ أن للأمر علاقةً بشقّ في حنكها.

«ما الحكاية مع الحمارين؟»

«تركا البوّابة مفتوحة».

«سأطلب منهما ألاّ يفعلا ذلك مرّةً ثانية».

«سبق وفعلت».

«هل عاود الطبيب الزيارة؟»

«نعم».

«وماذا قال؟»

«عجوز. إنه عجوز وحسب. طاعن في السنّ وينسى. وأخذ يتفوّه في الآونة الأخيرة بكلامٍ غريبٍ أيضاً».

«مثل ماذا؟»

آه، مجرّد كلام. عن الأيام الخوالي. ولا أمتلك أحياناً أي فكرة عما يبتغيه». وقمت بإيماءةٍ غامضةٍ على جبهتي.

«والآن؟»

«ماذا عن الآن؟»

وضعتُ قهوتي وحاولت إزالة الحرارة عن جبهتي بيدي اليسرى. لتشكَّل يدي حاجزاً بيني وبين «آدا».

«هل يجب ان آتي بين الحين والآخر؟ سيكون من دواعي سروري المساعدة بعض الشيء في العناية به».

«كلاّ، يمكنني تدبّر الأمر. فالشتاء يكاد يحلّ، وليس لدي من عمل سوى حلب البقرات».

«حسناً». أنهت قهوتها وانزلقت بعض الشيء على كرسيّها. حدّقتْ إلى خارج النافذة الجانبيّة. «كلاّ، كلاس فان بالنِ مسنّ. أما أنت فيمكنك الاعتناء بنفسك جيّداً». استمرّت في التحديق، وهي تفكِر. ربّما تتساءل عن سبب وجود والدي في السرير فوق ولماذا طليت الأرضيّات بالرمادي الأزرق. وتابعتْ: «أنه لا يتحدّث إلى أحد. وهو خجول ووحيد، والآن وقد أُخذت خرافه منه لم يعد له أي شيء. إنه شيء رهيب».

«نعم، هذا رهيب».

«لماذا لم تتزوّج أبداً يا هلمر؟»

«هاه؟»

«تتزوّج؟»

«يحتاج المرء إلى امرأة لذلك».

«لكن لماذا لم تحصل على واحدة؟»

«آه»..

«أليس لدى شقيقك ذاك صديقة؟ ألم يكونا على أهبة الزواج؟» لو صح أن «آدا» في الخامسة والثلاثين، فسيعني هذا أنها وُلدت في العام الذي توفّى فيه «هنك» في ١٩٦٧

«نعم» قلت. «إنها رايِتْ».

«هنك ورايت،» قالت «آدا». «لهما رنّة لطيفة».

«نعم».

«كانت لديه إذاً رفيقة، وأنت لا؟»

«لا».

«غريب».

«آه، الأمور على هذا المنوال أحياناً». سمعتُ صوت باب ملحق المطبخ يُفتح. عرفنا كلانا على الفور من الآتي، قبل أن يظهر أحد عند باب المطبخ.

نادت «آدا»: «لا تصرخا بهذا الشكل».

دخل «تون» و«رونالد» إلى المطبخ معاً واتخذا موقعاً لهما عند كلّ جانبٍ من جانبي والدتهما وأكتفاهما منحنية. «مرحى هلمر» قال «تون». ولم يتفوّه «رونالد» بشيء بل اكتفى بالتحديق إلى قطعة الكعك على الطاولة.

سألتهما «آدا»: «ما الغرض من مجيئكما إلى هنا؟»

«يريدك والدنا أن تأتي إلى المنزل» قال «تون».

«لماذا؟»

أطرق «تون» للحظة وقال: «لست أدري».

«لا تعرف، أم نسيت؟»

«نسي» أجاب «رونالد».

«من الأفضل لنا الذهاب إذاً» قالت «آدا»، ووقفت. «هل سبق ورأيتما غرفة هلمر الجديدة؟»

«كلاّ» أجاب «تون».

«اذهبا، وألقيا نظرة». وتبعتْ الصبيّين إلى غرفة الجلوس.

حاول «تون» و«رونالد» أن يتنافسا وهما يصيحان «أوه» و«آه» لأنهما يعتقدان أنني أحبّ ذلك، وهما على حق. فأنا أحبّ أيضاً الجلوس هنا في المطبخ فيما الناس يتجوّلون في الجوار ويتحدّثون في غرفة الجلوس.

خرجوا من الباب الأمامي. وفي منتصف الطريق عبر ممرّ الحصى استدارت «آدا» وقالت: «نسيت أن أخبرك أن الفتى كوبر، كما تعرف، الذي من طريق بويتنفيرين.»..

«سدّد، يا جارنو، سدّد!» صاح «رونالد». إنه بطل في كرة القدم. وهو نفسه يلعب في الفريق «هـ» أو «و».

«هذا صحيح، إنه جارنو، وهو ذاهب إلى الدنمارك للعمل بالزراعة. أم إنك تعرف ذلك بالفعل؟»

«كلاّ» أجبت. «لم أسمع بالأمر».

«أعتقد أنه ذاهب إلى جوتلاند. يوجد متّسع للتنفّس هناك. هل تبلغ والدك تحيّاتي؟»

«سأفعل» قلت وأنا أقفل الباب الأمامي.

وقفت عند مدخل غرفتي ونظرت إلى البطانيّات الصوفيّة على السرير المفرد، ولاحظت أن أطراف البطّانية العليا متنسّلة. استدرت وتطلّعت إلى الجدران العارية في غرفة الجلوس. يا للفن.

«هلمر!» رفع العجوز الذي فوق الصوت.

تمدّدتُ على الأريكة المغطّاة بالقماش وأغمضت عينيّ. الدنمارك.

٩

دفعتني «آدا» إلى التفكير بالدنمارك، وجوتلاند، وزيلاند، وفونن، وبورنهولم، والحزام الكبير، والحزام الصغير، وأودنس. تلال متحدّرة، مدى واسع، أراضٍ بور. «جارنو كوبر» صبيّ مزارع طفح معه الكيل من الأمر هنا. هو داكن الشعر، ولا بدّ أنه في حوالى الخامسة والعشرين. وعندما أتحدّث إليه – وهو أمر شبه معدوم– فإنه يقول دائماً أشياء مثل «الحياة هنا طين وروث». وها هو يغادر، ويتمتع بما يكفي من الشجاعة للمضي إلى الدنمارك، البلاد القديمة: وإذا لم أكن مخطئاً فإن «مارك» (في دنمارك) هي اسم شيء جرماني، سأتحقق منه في القاموس. نهضت عن الأريكة ونظرت ورائي. لم تعد خزانة الكتب المنخفضة هنا وهي التي تضم الروايات الريفية التي اعتادت والدتي قراءتها. سيتوجّب عليّ الصعود إلى فوق.

«هلمر!»

«نعم، نعم»، تمتمت وأنا أسحب القاموس من بين الروايات الريفيّة. جلست على سرير «هنك» وركبتاي تلمسان خزانة الكتب. سيتوجّب عليّ إعادة ترتيب الأمور هنا إذ يكاد لا يوجد مجال للتحرّك، وقد دُفع بمنضدة الزينة إلى باب خزانة الثياب المبنيّة في الجدار. الأغراض الموجودة في الخزانة لي، وهي من الأشياء التي تريد الاحتفاظ بها ولا تستطيع دفع نفسك إلى التخلّص منها، غير أنك في الواقع لا تحتاجها. وهاكم كلمة «مارك»، وهي من الألمانية مارك Mark ومن القوطيّة ماركا، أي التخوم. يا للألمان الحقيرين. ذلك الجزء الصغير من الأرض عند تخوم إمبراطوريّتنا، ذلك الجزء الصغير من الأرض الذي يعيش فيه الدنماركيّون. وهي تعني أيضاً المِعلَم، وهو حدٌّ أو قطعة من الأرض يشترك الفلاّحون الألمان في ملكيّتها. أهكذا إذاً أصبح «ماركن» يُدعى «ماركن»؟

«هلمر!»

أطبقت القاموس، وأعدته إلى مكانه بين الروايات الريفيّة وتوجّهت إلى الباب. أمكن لأمي أن تقرأ في الأمسيات لساعات. فيتمتم والدي أحياناً وهو يتوجّه قبلها بساعات إلى غرفة النوم: «رومانسيّة الروح». وبدا ذلك سيّئاً على الدوام.

أتغوّط في اليوم الواحد مرّتين. الأولى بعد الحلب مباشرة، والمرّة الثانية بعد القهوة. وأشعر في حالات نادرة بالحاجة إلى القيام بذلك من جديد في وقتٍ لاحق من اليوم، في المساء عادة، لكنني أتجاهل الأمر دوماً.

وأنا، عندما أفكّر في الأمر، أحمل والدي وأنزل به إلى تحت لوضعه على المرحاض. أقفل الباب وأنتظر أمامه أشبه بكلب أمين – يُفترض بالكلاب أن تكون أمينة، ولكن من أين لي أن أعرف ونحن هنا لم نقتنِ الكلاب قط – إلى أن يصيح بأنه «جاهز». وعليه أن يتغوّط عندما أضعه على المرحاض. ويمكن لهذا أن يحصل مرّة كل يومين؛ وأحياناً تمرّ أربعة أيام. وهو أيضاً بالكاد يبول، وأجد من حينٍ إلى

آخر دفقةً من البول في «نونيّة» السرير، فأفرغها وأشطفها بالماء المغلي. ولا أعلم كيف جاءت هذه الأداة إلى المنزل ومتى، لكنها مفيدة.

«ما الأمر؟» سألت وأنا ماضٍ إلى غرفة نوم والدي.

قال: «لا شيء».

«ولماذا ناديتني إذاً؟» وسرت إلى الكرسي ذي الظهر المستقيم ومسنديْ الذراعين بالقرب من النافذة، تحت لوحة الخراف، وأدرته. وحاولت تفادي التنفّس من أنفي.

«اطلب الطبيب».

«كلاّ».

«أريد الخروج من السرير».

وهذا ليس بالأمر الذي أسمح لنفسي بالانجرار إليه في العادة، غير أن رغبته في هذه اللحظة بالذات تناسبني جيّداً. طويت البطّانية والشرشف، فجعلتني الأبخرة المتصاعدة من السرير الدافئ ألهث. دسستُ ذراعيّ تحت جسمه ورفعته ونقلته إلى الكرسيّ. تمسّكت يداه النحيلتان بمسنديْ الذراعين. انتزعت الأغطية عن السرير وأخذت الملاءات إلى تحت، وأقحمتها في الغسّالة مع شحنة من البياضات، وضبطت الحرارة على تسعين درجة. ثم أخذت دلواً من الخزانة الموجودة تحت المغسلة وملأته بالمياه الفاترة. وتناولت منشفةً وقطعةً من الفانيلاّ من خزانة البياضات وعدت إلى فوق. انحنى والدي إلى الأمام غير قادر على ما يبدو على إسناد وزنه بذراعيه، ولا بد أنه زحل ببطء إلى الأمام وأنقذ نفسه من السقوط بإمساكه برجلي الكرسي. وضعت الدلو من يدي ودفعته ليجلس مستقيماً. خلعت أوّلاً سترة بيجامته، وهو ليس بالأمر الصعب جدّاً. التصق الشعر الرمادي بجلد صدره الغائر. درت من حوله ورفعته بذراع واحدة من تحت ذراعه ومن حول صدره. واستخدمت يدي الطليقة لسحب سروال بيجامته الملطّخ عن عجيزته. وها هو الآن يجلس على الكرسي عارياً، وعضوه

عالق بين ساقيه. وهو، بالمقارنة مع جسمه وجلدة ذراعيه وساقيه، كبير وناعم بشكلٍ ملحوظ.

«هل كانت آدا هنا؟» سأل، وقد وجد صعوبة في إبقاء رأسه مرفوعاً.

«نعم».

«ولماذا لم تصعد إلى هنا؟»

«لم تشعر برغبة في الأمر».

«هل قالت ذلك؟»

«نعم، قالت ذلك». أشحت بنظري عن والدي إلى الدلو، ومنه إلى الأرضية المغطّاة بسجادةٍ زرقاء داكنةٍ، ومن الأرضية إلى قطعة الفانيلاّ الملقاة على السرير الفارغ. لن أصل بهذه الطريقة إلى أي مكان. عدت إلى تحت ونقلت مقعداً بلاستيكيّاً من المطبخ إلى الحمّام.

«الجو باردٌ،» قال.

وضعت إحدى يديّ تحت الصنبور وفتحت المياه الساخنة قليلاً. لم أخطّط للأمور كما يجب: فأنا لا أزال مرتدياً ثيابي كلّها وقد فات الأوان الآن؛ لأنني إذا تركته سيسقط. ولا أريد للوالد أن يسقط هنا على الأرضية المبلّطة. وضعت المقعد في إحدى الزوايا بقرب الجدار بحيث يمكنني إبقاءه واقفاً بواسطة ذراع واحدة. رفع إحدى ذراعيه ليحمي رأسه من دفق المياه في الوقت الذي أقفلت فيه الصنبورين.

قلت: «سأقوم بغسلك».

ولم يجب بشيء.

وضعت قطعة الفانيلاّ على ركبته ودفقت عليها عصرةً كبيرة من هلام الحمّام، من ماركة «باديداس» وبرائحة المنثول. شرعت في غسله مع أنه ليس سهلاً استخدام يد واحدة. وها هو يذكّرني مرّة أخرى بعجلٍ وليد، ناعمٍ وزلق، يحاول أن يقف.

أردت أن أمرّر قطعة الفانيلاّ حول عجيزته، وعليّ للقيام بهذا أن أرفعه بذراع واحدة كما فعلت عندما انتزعت سروال بيجامته، لكنني أقف الآن في مواجهته بدلاً من الوقوف من خلفه. سعدت لأنني لم أخطّط للأمر كما يجب، ولأنني لا أزال مرتديّاً ثيابي، وإلاّ لالتصق صدري العاري بصدره الهزيل العاري. مرّرت قطعة الفانيلاّ بضع مرّات على عجيزته، وشعرت أناملي بخصيتيه عبر القماشة الرطبة. أجلسته من جديد على المقعد. ووجدت، وليكن الله في عوني، أن قضيبه آخذ في الانتصاب. وعلي الآن فعلاً عصر الفانيلاّ، غير أنني استخدمت إحدى رجليّ للمباعدة ما بين ساقيه ومسحت سريعاً مغبن الفخذين ما جعل عضوه يشتدّ انتصاباً. رميت بالفانيلاّ جانباً وفتحت الصنبورين.

واشتكى مجدداً من البرد.

فقلت: «هذا خطأك».

عاد عضوه إلى الغوص بين فخذيه. وتساءلت، بعد شطفه، هل أحتاج إلى غسل شعره؟ كانت «آدا» تقول «رأس حسن لا يزال يكسوه الشعر». لكن كفى. نشّفته، وتمكّن من الوقوف على قدميه لبرهة.

وقفت باتّزان عند مدخل غرفة نومه أشبه بعريسٍ من الطراز القديم، وأدركت أنني قمت بالأمور بالترتيب الخاطئ، إذ لا يزال عليّ أن أرتّب الفراش. أجلست والدي على الكرسي المجاور للنافذة، والمنشفة الرطبة لا تزال ملفوفة حول وسطه، وبيجامته الوسخة مكوّمة على مقربةٍ من إحدى أرجل الكرسي. رتّبت الفراش بأغطيةٍ نظيفةٍ من الخزانة. وكانت ملابسي الرطبة تجعل الأمر مربكاً إضافةً إلى برودة غرفة النوم. وضعت الوسادتين عند رأس السرير وغطّيته بالبطانيّات.

«أودّ لو أنني ميت» قال بهدوء.

فسألته: «هل أنت الآن مرتاح ونظيف؟»

«إنه ذلك الغراب» قالها وهو يشير بإصبع مرتجفة.

«ماذا به؟»

«إنه ينتظرني».

«لا، إنه لا يفعل».

«بلى، إنه كذلك».

«فليكُن».

لم يشأ والدي سماع كلمةٍ واحدةٍ في شأن التدفئة المركزيّة. خالفته أمّي الرأي، لكن صوتها لم يُحتسب. توجد مدفأتان على النفط: واحدة في المطبخ والثانية في غرفة الجلوس. ويمكنه الآن الشعور بالعواقب في الطابق العلوي. كان، في الأيام الخوالي والخارج يتغطّى بالجليد، يترك الدفّاية تعمل بشكلٍ خافتٍ ليلاً وباب غرفة نومهما مشقوق. وعندما نستيقظ، «هنك» وأنا، لا يسعنا رؤية ما في الخارج لكثرة ما تفتّحت أزهار الجليد على النافذة.

تصلنا المياه الساخنة من أحد المراجل. لم أصرف الكثير منها على الوالد، ولا يوجد بالتالي ما يوقفني. لا أذكر المرّة الأخيرة التي استحممت فيها في وسط النهار، وها إن رائحة المنثول تفوح منّي الآن. أشعر بأنني شاب وأتمتّع بالقوّة، غير أنني ما إن أمسكت بعضوي حتى شعرت، ويا للغرابة، بأنني عديم الفائدة وفارغ. لم يمكنني إلا أن أقارنه بعضو والدي. عضوي أكبر، وهذا الاستنتاج وحده كان كافياً لجعله ينتصب. وفيما كنت أتساءل عمّا يعنيه ذلك، رنّ جرس الباب. أحسست بأن خصيتيّ تنكمشان في يدي. يكاد لا يقرع جرس الباب أحد هنا، ولم أدرك ما الأمر في البداية. أغلقت صنبورَيْ المياه وانتظرت التطوّرات. أمكنني الشعور بأحد الشرايين يرتجّ في حلقي وبدا الماء الذي يقطر على الأرضيّة المبلّطة أشبه بالرعد. عمّ الهدوء. جفّفت نفسي ببطء وارتديت سروالي التحتي، فثيابي في غرفة النوم. فتحت باب الحمّام ولم أجد أحداً واقفاً قبالة اللوح الزجاجي المحجّر المستطيل للباب الأمامي. حدّقت النظر، قبل ذهابي إلى غرفة الجلوس، حول عضادة الباب

لأنظر هل يوجد أحد عند النافذة، ولم أرَ أحداً. سرت إلى غرفة النوم المغلقة الستائر. لاحظت من جديد، وأنا أسحب الثياب الجافة، الأطراف المنسّلة للبطانيّات. وما أن ارتديت ثيابي حتّى توجّهت إلى البهو وفتحت الباب الأمامي. الطريق خالٍ والغراب الأبقع يحدّق إليّ.

وهو، بحسب الكتيّب، يصدر صوت «واق، واق،» إلا انني لم أسمعه ولو مرّة يفعل ذلك.

سمعت طيلة فترة بعد الظهر صوت الجرس يتردّد عبر البهو الواسع. مضيت لإحصاء النعاج، وبالرغم من أنها ليست إلا ثلاث وعشرون، فقد اضطررت إلى معاودة العدّ ثلاث مرّات. وسبق لي قبل بضعة أيّام أن فصلت الكبش عن النعاج وأعدته إلى المزارع الذي يعيرني واحداً مرّة في كل سنة. علّقت رسن الكبش في الحظيرة. ولم أفكّر بالشخص القابع من دون حراك، الذي رأيته أخيراً أمام المزرعة، إلا في فترة بعد الظهر، عندما حلّ الظلام بالفعل وشرعت في حلب البقرات.

١٠

سائق الصهريج الآخر، ذلك الشاب المبتسم، موجود في مقرّ الحلب.

«آه، هلمر» قال لدى دخولي. وأنا في الغالب أبقى بعيداً عن مقر الحلب عندما يكون الآخر المسنّ الجلف موجوداً. استند بإحدى يديه على طرف الخزّان وواصل النظر إلى الخرطوم المتّصل به عند قدميه. أودّ لو إنني أرحّب به باسمه الذي أنساه في كل مرّة ألتقيه، وينتهي الأمر بإيماءة ترحيبيّة.

قال: «مات آري». ما من شيء يخفت ابتسامته حتى خبر كهذا.

«مات؟ كيف؟»

«نوبة قلبيّة».

«متى؟»

«يوم أمس الأول. في منزله».

«خطر لي بالأمس تماماً أنه سيتقاعد في غضون بضع سنوات».

«نعم، أراد التوقّف عندما يبلغ الستّين».

«كم كان عمره؟»

«ثمانية وخمسون عاماً».

«ثمانية وخمسون».

«كان لا يزال شاباً».

فرغ الخزّان. حلّ الخرطوم وسالت آخر كمّية صغيرة من الحليب عبر المصرف. لفّ بعد ذلك الخرطوم على دولاب في مؤخّرة الصهريج. وكرّر، «كان شاباً». وعاد ليقف قبالتي، ساقاه متباعدتان ويداه على خاصرتيه. وهو يرتدي دائماً تلك الابتسامة الملتوية التي تُظهر أسنانه، وقال: «سيتوجّب عليك أن تتعامل معي في الوقت الراهن».

أجبته، «فليكن الله في عوني».

وها إن الابتسامة تتحوّل إلى ضحكةٍ تُظهر المزيد من أسنانه. توجّه إلى الشاحنة من دون أن يودّع. فقد ضحكنا على خبر الوفاة وهو ليس بالأمر الذي تعقبه دردشة. فتح الباب وقفز صاعداً بسلاسة، وحصر سرواله الأزرق الساق التي استخدمها للانطلاق، وهي ساق يمكن أن تعود لمتزلّج. سرتُ خارجاً من الحديقة أتبع الصهريج وهو يبتعد، ولو أنه نظر في مرآته الخلفيّة لوجدني واقفاً هناك كما فعل في الصيف

الفتى صاحب الشعر الأحمر. إنها تمطر والحماران عند البوّابة ورأساهما منحنيان. إذا لم يتوقّف المطر سأضعهما في الزريبة. وتطلّعت إلى حديقتي الرطبة.

وقلت في نفسي: مسنّ وجلف وميت.

كنّا «هنك» و«هلمر» حتى وفاة شقيقي، بالرغم من إنني الأكبر سنّاً، نتشارك في القيلولة وبقيت حتى وقت قريب آخذ قيلولة بعد الظهر على سريره. ولم أتوقّف إلا بسبب كل سقط المتاع الموجود في غرفته، وبسبب دنوّ والدي منها. استلقي على جانبي وساقاي مضمومتان كما في الأيام الخوالي التي تقاسمنا فيها السرير نفسه. وها أنا استخدم الأريكة في فترات بعد الظهر. لم أعد أشعر بالراحة في سريري، وبخاصةٍ في فترات النهار، منذ تعليقات «آدا» عنه. ذهبت منذ أيام قليلة إلى «مونّيكندام» لشراء سرير جديد. ووقع اختياري على ذلك الذي يحتوي حقّاً على فراشين وحسب، مع أقدام قصيرة جدّاً تحت الفراش الأسفل. سيقومون بتسليمه قريباً. قالوا إنهم سيتصّلون بي «قطعاً قبل عيد الميلاد» بحسب بائع الأسرّة المرح. واشتريت من متجر آخر لحافاً محشوّاً بالريش وملحفتين إحداهما باللون الأزرق الفاتح والأخرى بالأزرق الداكن، لأنني أثق برأي «آدا». ولا يزال اللحاف مغلّفاً بالبلاستيك في إحدى زوايا غرفة نومي، ولم أخرج الوسادتين من غلافيهما. طلبت وسادة واحدة، غير أن مساعدة صاحب المتجر، وهي شابة ذات ضفيرتين سوداوين، قالت: «واحدة؟» بدرجة من التشديد لم يتبقّ لي معها من خيار إلا أن أقول: «لا، اثنتان بالتأكيد». لن أخرجهما من غلافيهما إلا عندما أتسلّم السرير، وأنا لا أزال حتى الآن أنام تحت البطانيات المنسّلة والشرشف الوحيد.

«هنك» و«هلمر» وليس «هلمر» و«هنك». وأنا من النوع الذي لا يمتلك أي ذكريات على الإطلاق عن أوّل أربع أو خمس سنوات من عمره. وأشكّ، إذا وُجدت لديّ ذكريات، في أنها ملوّثة أوحت بها أمور أخبرني عنها أناس آخرون. ولا تبدأ ذاكرتي إلا في الخمسينيات. ولا أعرف كم مرّة ضربنا الوالدُ قبل ذلك.

وجد أننا، نحن الاثنين معاً، أمرٌ مثير للحنق، لأنه اضطرّ دوماً إلى التعامل مع صبيّين يشكّلان جبهةً موحّدة. اعتَقَدَ أننا نتآمر عليه، وأن هذا هو هدفنا في الحياة، وأننا لا نظهر أمام عينيه إلاّ لاستفزازه. تلقّيت أكثر الضربات لأنني الأكبر وأقوم بالتالي «بطبخ الأمور». كان يدقّنا بيديه العاريتين، وإذا توفّر له الوقت يسحب قبقاباً يضربنا فيه على مؤخّرتنا وأحياناً على ظهرنا. اعتقدت بأن للأمر علاقةً باسمي. فـ«هلمر» اسم من طرف والدتي. أما «هنك» فيحمل اسم والده.

أدخلت الحمارين قبل أن أشرع في الحلب، ولم يتطلّب الأمر الكثير. اكتفيت بفتح البوابة والدخول إلى زريبتهما، وقبل أن أصل كانا واقفين ينتظرانني. أدخلتهما، وقسّمت قطعة شمندر سكّري ورميت بأجزائها في حوض الغذاء الصغير، ثم وضعت بضع كمشات من التبن في المعلف. علّمت «تون» و»رونالد» أن يستأذنا مسبقاً لعلف الحمارين، لأنني لو أطلقت أيديهما لأصيب الحماران سريعاً بالبدانة، أو أصيبا بالمرض. نقر المطر على السقف المموّج، وتجاهل الحماران الأمر عندما حككت أذنيهما إذ انصرفا بكلّيتهما إلى الأكل. أشعلت الضوء قبل مغادرتي الزريبة، فلم ينظرا إليّ وأنا أسير مبتعداً.

١١

أخذت من «مونّيكندام» الطريق «ن٢٤٧» وسلكتها حتى «إدام،» ومن هناك تابعت القيادة عبر القرية حتى السدّ، لأنني إذا لم أنعطف من هنا فسأعلق على الطريق الرئيسيّ المؤدّي إلى «أوستهويزن». أوقفت السيّارة للحظة على مقربة من «واردر» لأتمكّن من رؤيةٍ أسراب الطيور بشكلٍ أفضل: أكلة المحار، الغربان، نوارس الرنكة، والنوارس ذات الرؤوس السوداء. أجفلني بوق سيّارة أرادت المرور على السدّ الضيّق.

«لماذا توقّفت على السدّ؟» سألتني «آدا» التي لا تستطيع تمييز القرقف الأسود من القرقف الأزرق. وقد ارتدت معطفاً أسود متوسّط الطول، وبدت شاحبة قليلاً.

اضطررت في «هورن» إلى الانعطاف عن السدّ قليلاً. الطقس خامد وضبابي، وفي البعيد تندمج مياه بحيرة «إيسل»، بشكل لا يُلاحظ، بالسماء. هناك جلجلة تحت غطاء محرّك الـ «أوبل كاديت»، وعليّ أخذها من جديد إلى المرأب. انعطفت يساراً في «أوسترليك» وركنت السيّارة بعد ذلك بعشر دقائق أمام دار «فنهويزن» للجنازة وهو مجاور لأحد دور العجزة.

«كيف أمكنهم القيام بأمر كهذا؟» سألتْ «آدا». «كيف أمكنهم أن يكونوا على هذا القدر من القساوة؟»

حضر كثير من المزارعين، وأمكن التعرّف عليهم فوراً من ملابسهم، إذ ارتدوا جميعهم تقريباً صداراً فوق قميص نظيف. تبعنا موكب النعش سيراً من دار الجنازة إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية حيث تخاطب زوجة «آري» النعش، أو بالأحرى تحاول مخاطبته، لأنها ما إن قالت: «آري قد مات» حتى عجزت عن المتابعة. نهضت شابتان – يُفترض أنهما ابنتاها – وأعادتاها إلى مقعدها. أجرى الكاهن رتبة الدفن فيما رتّلت الجوقة المحلّية ترتيلة حزينة، أعقب ذلك فترة صمت وجيزة، جاء بعدها حملة النعش الستّة بقبعات رسميّة رمادية داكنة، ورفعوه على أكتافهم، ونقلوه إلى الخارج. سارت «آدا» بجانبي وكأنها زوجتي، وأخذتني من ذراعي وهي تبكي. لم يشأ زوجها «ويم» المجيء، لأنه، بحسب «آدا»، يخاف الموت ويحتفظ حياله دوماً بمسافة آمنة. والأكثر من ذلك أن لديه أموراً أفضل يقوم بها. لا تقع المقبرة خلف الكنيسة مباشرة، فتوجّب علينا السير قليلاً. اجتزنا في طريقنا فرعاً من فروع سوبرماركت «دي بويرز». إنها جنازة جيّدة: أنزل الحملة النعش وهالت زوجة «آري» وابنتاه التراب على القبر. وفيما نحن نسير عائدين إلى الكنيسة جاء سائق الصهريج الشاب من ورائنا، وقال: «أنا مسرور لتمكّنك من المجيء يا هلمر. وأنتِ أيضاً يا آدا. فالتضامن شيء جميل».

«آه، غالتجو،» قالت «آدا»، وصوتها يبدو أكثر من أي وقتٍ مضى أشبه بالقطن الطبّي «هذا أقل ما يمكن للمرء القيام به».

لم أقل شيئاً، وقد تأثّرت بردّ فعل سائق الصهريج الشاب. «غالتجو» لا عجب في أنني استمرّ في نسيان اسمه. وهو، حتى هنا في المقبرة، يبتسم، فليس بيده حيلة. تأخّرنا عن الموكب بعض الشيء. ورأيت، لمّا استدرت، رجلين شرعا في ردم القبر. لم يقوما بالأمر بعناية، كمشة تراب وراء الأخرى، بل بحمولات رفش ضخمة.

عاد الجميع بعد ذلك إلى دار الجنازة لتقديم التعازي للزوجة والابنتين وباقي عائلة «آري». شربنا القهوة، وتناولت «آدا» قطعة من الكعكة، وتناولت أنا قطعتين.

أرادت «آدا» سلوك طريق آخر للعودة. فانتقلنا إلى «هورن» عبر «هم» و»بلوكديجك».

«لنذهب عبر بيمستر،» قالت. «بيمستر رائعة».

شققت طريقي عبر «بركهوت» إلى «أفنهورن» و»شمرهورن». وتبعت الإشارات إلى شمال «بيمستر». وسألتُ: «إلى القرى؟»

فقالت «آدا»: «إلى القرى».

أخذت اليمين وسلكت الطريق عبر شمال ووسط «بيمستر». «تخيّل العيش هنا » قالت «آدا». «تطلّع وحسب إلى المدى الواسع الموجود. الأرض جميلة جدًا ومرتفعة، فيما أرضنا رطبة دوماً، ضيّقة ورطبة».

سألتها: «هل ذهب جارنو كوبر إلى الدنمارك؟»

«كلاّ. سيغادر في كانون الثاني/ يناير». وتطلّعت من حولها بشوق. «سيحب ويم الحصول على شيء أكبر. ليس أكبر كثيراً، بل بعض الشيء. عشر بقرات تقريباً وبضعة هكتارات».

«عليكم إذاً الذهاب أيضاً إلى الدنمارك».

«يا إلهي، لا. هل يمكنك أن تتخيّل ويم راحلاً؟»

«كلاّ» قلت. «لا يمكنني تخيّل ذلك». أقام «ويم» طيلة حياته في جوارنا، لكنني بالكاد أعرفه.

طلبت منّي «آدا» التمهّل لإلقاء نظرة جيّدة على «اليونيكورن» قبل أن نستدير صوب جنوب شرق «بيمستر». «نعم» قالت وهي تنعم النظر ببيت المزرعة المُجَدّد، «ها نحن ننطلق إلى المنزل، لكنهن باقيات هنا من دون زوج ومن دون والد».

أوقفتُ السيّارة قبل تقاطع الطرق وترجّلتُ منها. ترطّبت أغصان الأشجار العارية المحيطة بالحقل المواجه «لليونيكورن» والتي تقيه من الريح. لم أتمكن من رؤية نهاية صف الاشجار، وقد طمس الضباب الخفيف جذوعها. مرّت بنا سيّارة مسرعة، ثم حلّ الهدوء من جديد. وهناك، على الجانب الآخر من التقاطع، ثلاثة جياد تقف على مقربةٍ من بيت مزرعة أقل جمالاً.

«آدا» على حق، فـ«بيمستر» رائعة، حتى في أواخر الخريف، لكنني أفكّر بالدنمارك. ويمتلكني شعور بأن طقس الدنمارك دائم الضباب.

فتحت «آدا» باب السيّارة وترجّلت منها. وسألت: «ما الذي تفعله؟»

«لا شيء خاص، أقف هنا وحسب».

تطلّعت إليّ وقالت: «هل أنت بخير؟»

أجبتها: «بالتأكيد».

«غريبة هي الجنازات».

«إيه».

«وبخاصة إذا كانت جنازة شخص لا تعرفه حق المعرفة».

«آه، هه».

«يجعلك الأمر تشعر من بعده أنك حيّ كما لم تكن كذلك من قبل».

«أين يقيم ذلك الشخص، غالتجو؟»

«ليس لديّ أي فكرة. كما إنني لم أعرف أن آري يأتي من مكان بعيد مثل فنهويزن. ما الذي نعرفه عن هؤلاء الناس؟»

قلت: «ليس الكثير».

«هلاّ نعود إلى المنزل؟»

«هيّا».

أخذت الطريق الأوسط إلى قناة هولندا الشمالية وسلكته مجتازاً «بورميرند» و«إيبندام» و«ووترغانغ»، حتى «هت سوي»، ومن ثم عبر «بروك» فالمنزل.

سمعت رنين الهاتف وأنا أسير عبر غرفة الحليب. هرعت عبر ملحق المطبخ إلى الرواق للردّ عليه، ولكن ما من أحد. «هالو؟» قلت. احتفظ الجانب الآخر من الخط بالصمت، وهو ذلك النوع من السكوت الذي تسمع معه الشخص وهو يحبس أنفاسه. «من على الخط؟» لم يجب أحد فأقفلتُ السمّاعة. الصحيفة موضوعة على طاولة المطبخ ولم يقرأها أحد. لم أتمكّن من الجلوس، واحتجت إلى القيام بعملٍ ما. الوقت الآن هو زمن الما بعد: وأنا أكثر حياةً مما كنت عليه من قبل.

أمتلكُ منشاراً يدويّاً مناسباً جدّاً لتشذيب الصفصاف. يبقى حاداً للغاية لفترة طويلة جدّاً ولا بدّ أن سعره كان مرتفعاً. توجد أشجار صفصاف عند الطرفين الجنوبي والخلفي للمزرعة، أشذّبها مرّة كل سنتين أو ثلاث. لم أقترب ناحيتها في هذه السنة، واليوم هو يوم ممتاز للتشذيب. وآمل في أن يوم غد مناسب أيضاً إذ لا يسعني الانتهاء منها كلّها في يوم واحد. حميتُ وأنا في منتصف العمل على الصفصافة الأولى، ولما شرعت بالثانية كُنت قد بدأت أتصبّب عرقاً. لا أحتاج إلى سلّم، فصندوق البطاطا كافٍ. ولما كاد يحين موعد الحلب كنت قد انتهيت من ستّ صفصافات عند جانب

المزرعة وأنا لا أمتلك أي فكرة عمّا أخذت أفكّر فيه طوال الوقت. رميت بعض الأغصان الطريّة في معلف الحمارين واتصلت هاتفيّاً بـ«آدا» التي بدأت العمل على حافة خشبيّة في ما تنوي أن تصبح أجمل حديقة في «ووترلاند». قلت لها إنه يمكنها الحصول على أغصان صفصافاتي بشرط أن تأتي وتأخذها بنفسها.

١٢

وقف والدي عند النافذة، وهذا ليس بالأمر الجيّد. اتكأ على الحافة الضيّقة وجبينه ملتصق بالزجاج. عمّ ضوء باهت غرفة النوم، والطقس ضبابي كالأمس فيما تحاول الشمس عبثاً تحقيق أي اختراق.

سألته: «كيف بلغت المكان؟»

تفوّه بما لم يمكنني فهمه.

«ماذا؟»

دفع نفسه بعض الشيء بذراعيه، مقوّماً ظهره ومبعداً رأسه عن الزجاج. وقال: «رحل الغراب الأبقع».

«ماذا؟»

«الغراب الأبقع؛ لقد طار بعيداً».

نظرت من خلال نافذة غرفة النوم إلى ما هو أبعد من والدي، لأرى الآن ما لم أشاهده من غرفة المطبخ الأماميّة: الغصن الفارغ على الدردارة.

«لم يكن في انتظاري».

«لا، طبعاً لا، ما هذه التفاهات؟»

«هذا ما اعتقدته». وأخذ ذراعاه يرتجفان ورأسه يهتز.

وتمتمت داخل نفسي: «لو تمّ الأمر لكان رائعاً».

«ماذا؟»

قلت: «عُدْ إلى سريرك».

«لا أستطيع».

«لماذا لا تستطيع؟ فقد بلغت النافذة، أليس كذلك؟»

استدار ببطء مبقياً يده على الحافة، وتطلّع إلى سريره متردّداً أشبه بمن يقوم بالوثب الطويل ويتطلّع إلى لوحة القفز. جرّ قدميه، بوصة وراء بوصة، مبتعداً عن النافذة، ليقول في منتصف الطريق، «لن أتمكّن من ذلك».

«بلى، ستتمكّن، لا تستسلم».

لكنه لم يتمكّن. حملته ودرت من حول السرير، وما إن هممت بوضعه عليه حتى رنّ الهاتف. سأدعه يرن، فلو أجبت لربّما سمعت من جديد ذلك الصمت المكبوت. رنّ سبع مرّات بينما كنت أمدّد والدي على السرير.

قال، وهو لا يزال يلهث، «أستطيع السير».

سألته: «أتعرف من مات؟»

«لا».

«آري».

«آري من؟»

«سائق الصهريج».

«لا!»

«بلى».

*

لا يوجد مفتاح في باب غرفة نومه، ولا يوجد مفتاح خارج باب غرفة نوم «هنك» التي دخلت إليها وجلست على سريره. المفتاح موجود في الثقب في الجانب الداخلي للباب. تمدّدت والستائر مسدلة، والغرفة مظلمة. حدّقت في السقف وأدركت بأنه لو كان لديّ أحد لاختلفت الأمور كلّها. لو انني متزوّج وعندي أولاد. إذ يمكن للمرء بوجود العائلة التخلّص من والده من دون الشعور بالذنب.

نهضتُ وسحبت المفتاح من ثقبه. خرجت إلى بسطة الدرج وأقحمت المفتاح في قفل باب والدي فوجدته ملائماً، لكنني لم أتأكّد من ذلك فعلاً إلا بعدما أدرته، ولم تصدر أي ملاحظة من داخل غرفة النوم. أخرجت المفتاح من القفل ومكثت لبرهة في مكاني وأنا أحمله بيدي، لأعيده من ثمّ إلى الثقب.

تقع غرفتا النوم عند الجانب الأيمن لبسطة الدرج. ويوجد في مواجهة بيت الدرج مَنور لا يُدخل الكثير من النور. كما تقع، عند طرف البسطة، على مقربة من المنور، غرفة ثالثة أصغر من غرفتَي النوم. وهي تغطّي تقريباً ثلث غرفة الحليب من تحتها. أطلقت عليها والدتي، في اليوم الذي توفّيت فيه، اسم «الغرفة الجديدة». لا أذكر ما افتُرض بالغرفة أن تمثّله، لكنها لم تُستخدم أبداً منذ أن شُيدت مع غرفة الحليب. لا أدخلها أبداً، وبابها موصد على الدوام. تغطّي أرضيّتها السجّادة الزرقاء الداكنة نفسها التي في غرفتَي النوم. شعرت بالغرابة الشديدة وأنا أدخلها لأول مرّة. إنها عفنة، وتعبق فيها مع ذلك رائحة الجديد كما لو انها شُيّدت حديثاً. هناك نافذة كبيرة بعض الشيء معدّة خصيصاً للجدار المائل، وهو ما يجعل الغرفة أكثر إنارة بكثير من بسطة الدرج. لكنها فارغة وما من سببٍ يدفعني إلى دخولها.

رأيت من خلال النافذة الحمارين في الزاوية النائية للحقلة المخصّصة لهما. وقد

أخرجتهما من جديد هذا الصباح. إنهما يقبعان دوماً معاً لا ينفصلان إلا لماماً عندما يسيران أو يخبّان في الجوار، ويصابان عندها بصدمةٍ كبيرةٍ تجعلهما لا يستطيعان الانتظار للعودة معاً من جديد. فتحتُ النافذة قليلاً قبل العودة إلى تحت.

إنه متجر الأسرّة. اتصل البائع المرح للمرّة الثانية وقال إنه قام بمحاولة سابقة، وإن السرير سيصل في الغد. أردت أن أعرف متى. لا يستطيع التأكيد، لكن «في وقتٍ ما في الصباح». ونصحني، قبل أن يقفل السمّاعة، بشراء جهاز لتسجيل الرسائل الهاتفيّة، فهذا مناسب أكثر لمن يريدون ترك رسالة.

توجد وراء خمّ الدجاج وزريبة الحمارين وكومة الروث ثماني صفصافات على جانب القناة. سبع منها منتصبة، وواحدة مائلة فوق القناة. وأقوم، منذ سنوات، بمعالجة تلك الشجرة بالطريقة نفسها: أضع قسمي السلّم بجانب بعضهما فوق القناة وأربط عارضة قصيرة بزاوية قائمة عبر السلّمين وأدق فيها بضعة مسامير طويلة لإبقائها في مكانها (إذ يختلف الارتفاع بين جانبي القناة). ثم أمدّد لوحاً خشبيّاً على السلّمين واضعاً أحد جانبيه على العارضة بحيث يصبح في وضع أفقي. وأتمكّن من ثم، بوضع صندوق خشبي على اللوح، من بلوغ أغصان الصفصافة. وأبدأ دوماً بالشجرة الملتوية، لأنني ما إن أنتهي منها حتى يصبح الباقي سهلاً. يقطع الفولاذ الحاد كالموسى بسهولة عبر الخشب الفتيّ والطريّ. لم تعد ذراعاي وكتفاي تتحرّك بالسهولة نفسها بعد عملي بالأمس على الأشجار الست. أنجزت اثنتين منها، ثم ارتحت وأنا أراقب النعاج في الحقل المجاور لطاحونة «بوسمان» الهوائية.

إنها ثلاث وعشرون، وهذا في الواقع رقم مفرد، والأجمل من ذلك لو أنها عشرون.

١٣

استهلك الأمر وقتاً طويلاً من الرجال الذين جاؤوا لتسليم السرير، فهو من النوع الذي لا يتفكّك. أُدخل من الباب الأمامي بسهولة تامة، لكن الأصعب كان الاستدارة من الرواق إلى غرفة الجلوس. سبق لي أن رفعت السرير القديم بعد الحلب مباشرة، ووضعت الفراش على جانبه في غرفة نوم «هنك»، ورميت قطع الإطار الخشبي مع كومة الخشب المجاورة لكومة الروث. أصبحت الكومة كبيرة جدّاً وقد يتوجّب عليّ أن أشعل فيها النار عشيّة رأس السنة، في حال تناسب ذلك مع الريح ولم تمطر. ترك من جاؤوا لتسليم السرير آثاراً من الوحل في غرفة النوم وغرفة الجلوس، وأبوا أن يبقوا لتناول القهوة لأنه عليهم تسليم المزيد من الأسرّة. عمّ بعد ذلك البرد لفترةٍ طويلةٍ في المنزل لأنه لم يخطر على بال أحد، ومن بينهم أنا، إقفال الباب الأمامي في خلال كل تلك الفوضى الحاصلة في البهو. استهدفت الريح الشرقية الباردة النوافذ الأماميّة، وهذا مؤشر إلى ليلة من الصقيع الحاد.

للسرير اسم سويدي أو دنماركي نسيته، شيء مع نقطتين فوق حرف الألف. قماشه مربّع بالأزرق والأبيض وهو واسع للغاية؛ فمهما استلقيت عليه لن تخرج رجلاي عن طرفه. استمرّ والدي في الصياح، وأنا أرتّب السرير. وأصابه فضول يائس. ذعرت لوهلةٍ اعتقاداً منّي بأنني نسيت أين وضعت المفتاح، لكنني تذكّرت أنني تركته في الثقب. أدخلت إحدى الوسادتين في غطائها ووضعتها في مكانها، ثم ذهبت إلى المطبخ وجلست. يمكنني، بجلوسي على كرسيّ أمّي وانحنائي إلى الطاولة، أن أنظر داخل غرفة النوم عبر الأبواب المفتوحة، وأرى الوسادتين. ولماذا أحتاج إلى وسادتين؟ لكن وسادةً واحدةً تبدو مضحكة، ويبدو معها السرير في شكلٍ ما وكأنه فقد توازنه. وثمن الوسادتين ليس بزهيد. قرأت الصفحة الأولى من

الصحيفة وتناولت كوباً من القهوة لأتوجّه من ثمّ إلى غرفة النوم لإدخال الوسادة الثانية في الغطاء.

بعد الظهر، قاد تاجر المواشي شاحنته إلى الحديقة، وهو شخص غريب لا يكاد ينبس بكلمة. يرتدي معطفاً أنيقاً واقياً من الغبار وقلنسوةً، وينزعهما كلّما دخل إلى المنزل، لكنه يكتفي برفع القلنسوة إذا وجدني في الخارج أو في الزريبة. يدلي دائماً بنوعٍ من الملاحظة في شأن الطقس ثم يلوذ بالصمت. ويتوقّف الأمر عليّ لأطلعه عليّ ما لديّ من أشياء له. وفي غياب أيّ شيء يرحل فوراً من دون أن يتفوّه بكلمةٍ أخرى. لم يجلس أبداً إلى طاولة المطبخ، وهو الذي يزور المنزل منذ أكثر من ثلاثين عاماً. يترك حذاءه على مقربةٍ من باب البهو، ويضع، عندما يقف على مشمّع أرض المطبخ، قدماً فوق الأخرى ويحرّك أصابعه في جواربه الصوفية. وها نحن اليوم نقف وسط الحديقة ولديّ شيء له: بضع نعاج.

سأل: «هل تم تزويجها؟»

«نعم. وقد أعدت الكبش في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر».

«ثلاث نعاج؟»

«ثلاث. كم ثمن النعجة هذه الأيام؟»

«مئة وعشرون، هذا إذا حالفك الحظ. والأرجح مئة».

«هذا ليس بالكثير».

«لا، ليس بالكثير. هل وضعتها في الزريبة؟»

«كلا، إنها في الحديقة الخلفيّة».

أسعده مدّ يد المساعدة، بالرغم من إمكانية العودة في الغد. سرنا معاً إلى الحقل وقدنا النعاج إلى بوّابة الجسر. أمسك بواحدة، وأمسكت باثنتين، واندفعت العشرون الأخرى مبتعدة. فتح البوابة وأفلت نعجته إلى الحقل الثاني، ثم أخذ واحدة منّي.

وسقنا النعاج إلى بوابة الجسر القريبة من الحديقة. فتسلّقتها، وأزحت قسمين من سياج الحظيرة ووضعتهما على كل جانب من جانبي باب الشاحنة الخلفي المفتوح. هناك خمس عشرة قدماً على الأكثر بين الحاجز وبوّابة الجسر التي فتحتها، فسارت واحدة من النعاج مباشرة إلى صندوق الشاحنة. وتبعتها الاثنتان الأخريان. رفع تاجر الماشية باب الصندوق الخلفي وثبّته.

قال: «تم ذلك بسهولة».

ووافقت معه قائلا: «هذه المرّة».

رفع تاجر الماشية إصبعه مودّعاً وصعد إلى الشاحنة. قاد بهدوء على الجسر، ثم استدار بهدوء أكبر إلى الطريق.

أقفلت البوّابة. وتجمّعت النعاج العشرون الباقية معاً على مقربة من الطاحونة الهوائية في اقصى زاوية المزرعة.

قلّمت في تلك الليلة أظفار يديّ ورجليّ وأخذت حمّاماً طويلاً قبل أن آوي إلى الفراش. أبقيت نار الغاز مشتعلة على الخفيف وباب غرفة نومي مفتوحاً. نظرت إلى نفسي في المرآة الكبيرة فوق رف الموقد وأنا عار من رأسي إلى أخمص قدميّ. شعرت فجأة بالرغبة في التزلّج، وقد افتقدت الشعور الذي يتملّكك في ظهرك وفي عضلات ساقيك جراء التزلّج لمسافة طويلة. توهّجت حرارة النار على عضوي، ثم اندسست للمرة الأولى تحت اللحاف المحشو بالريش. خَبا التوهّج في المشعب ما بين رجليّ؛ وبالكاد غمضت لي عين طوال الليل بسبب خشونة اللحاف الجديد.

١٤

يعمل «تون» و«رونالد» على حزم أغصان الصفصاف. بسطا أطوالاً من خيوط البالات على الأرض، ورمى عليها كلّ منهما ملء ذراعيه من الأغصان وربطها بإحكام. نقلا الحزم عبر الحديقة الأماميّة إلى الساحة، ولوّحا في كلّ مرة اجتازا فيها إحدى النوافذ. توجد أمامي على طاولة المكتب فاتورة الهاتف ورسالة كُتب عنوانها بخط اليد جلبتها «آدا». فقد انطلق ساعي البريد عائداً تماماً قبل أن تستدير إلى الساحة وهي تجرّ مقطورة في مؤخرة سيّارتها. إنه يوم سبت.

أردت فتح الرسالة، لكن «آدا» لا تزال واقفة عند عتبة غرفة نومي. فقد تحسّستْ للتو غطاء اللحاف ونادت عليّ قائلة، «عليك أن تغسل هذه الأغطية أوّلاً! فهي تكون دوماً متيبّسة!» أومأت برأسي لـ«رونالد» الذي لوّح بيده وهو يعبر من أمام النافذة الأماميّة. تبعته بأفكاري وظهر عند النافذة الجانبيّة عندما توقّعته تماماً، ولوّح من جديد. يضع قبّعة صوفيّة والمخاط يجرّ من أنفه القرمزي. إنه سعيد، وهو دائماً سعيد حتى عندما تصاب أصابعه بالبرد وهو يهشّم الكرنب في حديقة خضاري.

«ذلك رائع».

قفزتُ من هول المفاجأة.

وقفتْ «آدا» في المدخل ورأسها مائل قليلاً كما لو أنها تصغي إلى أمرٍ ما. قالت: «أفتقد شيئاً، في غرفة الجلوس».

«أهي الكراسي؟»

كلاّ» وأطرقت للحظة. «بل صوت».

«الساعة؟»

«نعم، الساعة. أين ذهبت؟ أنت لم تلقِ بها في كومة الخشب، أليس كذلك؟»

«كلاّ، إنها في الأعلى، عند الوالد».

«آه» قالت «آدا»، ونظرت إلى يديّ. «ممّن الرسالة؟»

«لا أدري، لم أفتحها بعد».

«كيف والدك؟»

«على حاله».

«هل ينزل إلى هنا؟»

«أحياناً. فهو ينام كثيراً».

«أرى ذلك».

نظرت إليّ ورأسها يميل جانباً لكن هذه المرّة ليس كأنها تستمع إلى شيء. «سأذهب وأحمّل المقطورة». واستدارت وسارت في البهو. انتظرت سماع صوت باب ملحق المطبخ يفتح، لكن رأسها عاد بدلاً من ذلك إلى الظهور حول زاوية باب المطبخ. وقالت، «وسادتان، يا هلمر. وسادتان؟» تبدو «آدا» مضحكة، بذلك التشوّه في شفتها العليا عندما ترمقك بنظرةٍ ذات مغزى. وبعدها اختفت فعلاً. قلّبت الرسالة بيدي المرّة تلو الأخرى، لا يوجد على ظهرها أي اسم.

عزيزي «هلمر»

لا تندهش، أعرف أنك تتطلّع أوّلاً لتنظر من المرسِل، فأنا أفعل ذلك أيضاً عندما أتلقّى الرسائل، لكن لا يوجد أيّ مبرّر ليصيبك اسمي بالصدمة. ربّما لم تعد تعرف من أنا! فنحن لم نَرَ بعضنا أو نتكلّم مع بعض منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهو ما يجعل من كتابة هذه الرسالة أمراً صعباً.

سأبدأ على الفور بالقول صدقاً إنني وأخيراً أكتب لك لأنني أعتقد أنه لا بدّ أن والدك قد رحل الآن إلى دنيا الآخرة. فهل أنا على حق؟ لطالما شكّل والدك العائق الذي منعني من الاتصال بك. ولا أحاول أن أكون بغيضة في هذا الشأن، وربما تجد الأمر مؤذياً لو أن وفاة والدك أحزنتك (هذا إنْ توفّى).

وهل عليّ أن أكتب عن كلّ الأمور التي حصلت معي؟ حسناً، سأختصر. ذهبت للإقامة عند أقارب لي في «باربنت» حيث تزوّجت بعد فترة وجيزة من مزارع للخنازير. رزقنا بابنتين، وبصبيّ بعد فترةٍ طويلةٍ لاحقة. غادرت ابنتاي المنزل منذ فترةٍ طويلة. أما زوجي (ويدعى «فيان»، وهو اسم أعرف أنه غريب بعض الشيء) فتوفّي في العام الماضي. ولا يزال ابني يعيش في المنزل وقد بلغ الثامنة عشرة للتو.

لا بد لي أيضاً أن أصدقك القول وأخبرك إنني قد حاولت الاتصال بك قبل أن أكتب هذه الرسالة. جئت مرّةً على درّاجتي الهوائيّة إلى المزرعة في منتصف الليل وتوقّفت هناك أنظر أليها لبعض الوقت. رأيتك في الأعلى عند نافذة غرفة النوم (ولا أثر لوالدك). أقمت حينها عند عمّتي في «مونّيكندام». (وهي، لا تزال حيّة وقد بلغت الثالثة والثمانين. فهل تعرفها؟ هي لا تعرفك.) لم ألتقِ بها منذ خمسة عشر عاماً ولم تستطع أن تفهم سبب تشريفي إياها بزيارة. وقرعت، في اليوم التالي، الجرس، سوى إنني ذعرت وغادرت مسرعة. كما أنني اتصلت بك هاتفيّاً ولمّا سمعت صوتك أقفلت الخط كجبانة حقيقيّة. إلا انني أثق بأنك ستفهم أنه ليس من السهل عليّ رؤيتك أو سماعك. تصوّرت، وأنا أسمع صوتك، «هنك» واقفاً هناك في بهوك.

بدا أن الرسالة تشكّل أبسط الحلول، لكنني وجدت الآن، وأنا أكتبها،

أن الأمر صعب. هل تمانع في أن أكتب لك رسالةً أخرى؟ أو أن علينا التحادث عبر الهاتف؟ سأكتب رقم هاتفي في أسفل الرسالة.

هذا كلّ شيء الآن.

مع أطيب التمنّيات،

رايت

ملاحظة: هناك أمر أريد أن أطلبه منك.

كُتِبت الرسالة، مثل ظرفها، بخط اليد. ولا تحمل عنواناً بل رقم هاتف وحسب. ولم أفتح الفاتورة.

وصلتْ بعد الظهر – كما في كل أيام السبت – رافعة ذات سلّة تابعة للبلديّة. شغّل رجل الآلة من الأرض، فيما حلّ آخر غطاء نور العمود. وقفت أراقبهما من وراء الستارة الخشبية، ولا أعتقد أن في وسعهما رؤيتي. ولم أغادر موقعي عند النافذة إلا بعد انتهائهما. وها أنا متمدّد الآن على السرير، وقد أصابني الاضطراب. راودني الشعور نفسه الذي شعرت به في جسمي في اليوم الذي شاهدت فيه سرب الطيور المختلفة ذلك وحدّقت بي نعاجي مثل أفراد فرقة الإعدام. أصبح النوم غير واردٍ إذ استمرّت كلّ هذه الأمور تعبر ذهني ولا يستقرّ منها شيء: طلاء غرفة الجلوس وغرفة النوم، تشحيل الصفصافات، «جارنو كوبر» في الدنمارك، مأتم سائق الصهريج المسنّ، الغراب الأبقع في شجرة الدردار. كان يكفي شراء السرير الجديد، الذي استلقي عليه الآن، ليدفعني إلى النوم، إلا إنني مضطرب جدّاً.

إنها رسالة «رايت».

١٥

أصبحت، في ١٩ نيسان/أبريل ١٩٦٧، في منتصف الفصل الثالث من سنتي الجامعيّة الأولى في اختصاص اللغة والأدب الهولنديين. وكنت، على ما أعتقد، أكثر طلاب سنتي اجتهاداً، ليس بسبب طموحٍ شخصي أو دافع، بل لأثبت ذلك لوالدي. لم أتأهّل للحصول على منحة لأنه يمتلكُ الكثير من الأصول. هذا ما ورد في رسالة الرفض من مجلس المنح الدراسيّة في وزارة التربية والعلوم، ونعرف، هو وأنا، ماهيّة هذه الأصول: أرض، ومبانٍ، وبقر، وآليّات. ولما أظهرتُ الرسالة لوالدي، قال: «وهل يفترض بي بيع البقر لإرسالك إلى الجامعة؟» لم ينتظر الجواب بل جعّد الورقة من دون إضافة أي كلمة أخرى ورماها في مجلى المطبخ لبعد سلّة المهملات عن متناول يده. ولو كان يحمل ولاّعةً أو علبة كبريت لأحرقها. وقف «هنك» هو الآخر في المطبخ لا يعرف كيف ينظر إليّ من تحت حاجبيه الداكنين. انتشلت أميّ الورقة من المجلى وحاولت تمليسها، لتضعها في النهاية في سلّة المهملات.

وهكذا بقيت في المنزل، امتطي درّاجتي الهوائية إلى أمستردام حيث تابعت المحاضرات وقمت بكل أنواع الأعمال لدفع أقساطي الجامعيّة. وكنت لمّا أجلس إلى طاولة المطبخ في الصباح وعيناي متعبتان بسبب عودتي في الليلة السابقة متأخراً، بعد تفريغ شاحنة بضاعة في واحد من المتاجر الكبرى، تسألني والدتي أحياناً عمّا لدي في أمستردام، أمستردام المدينة التي من الأفضل لي أن أتحاشاها. وهي لم تملك في الحقيقة أي فكرة عمّا يجب أن تسألني، لكنها حاولت على الأقل. أما والدي فإنه، حتى ذلك التاريخ، التاسع عشر من نيسان/أبريل، كان قد سألني ربّما ثلاث مرّات عن الكلمات الصعبة الكبرى التي تعلّمتها حتى الآن، ويستأنف، من دون أن ينتظر أي جواب، حديثه مع «هنك». وهي محادثات عن بقرات جف

حليبها، وعن الحيوانات الصغيرة التي يجب نقلها، أو عن المزارعين في الجوار. وهي أمور لها معناها عندهما».

«هنك» هو المزارع، و«هنك» ابن أبيه. أما ما يُفترض به أن يصنع بي، أو ما يُفترض أن أصنع بنفسي، فمسائل يمكنه تجاهلها.

و«هنك» كانت له «رايت». وهو حتى كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٥، عندما التقاها في إحدى حانات «مونّيكندام»، كان يخصّني وأنا أخصّه. كنت موجوداً في الحانة نفسها، وشكّل ذلك لـ»رايت» مصدراً لبعض الارتباك. إنها عشيّة عيد الميلاد، الليلة التي يخرج فيها من لا يشاركون في قدّاس منتصف الليل. شرع «هنك» في التحدّث إليها، ومع تقدّم الأمسية، انسحبا بعيداً عن المجموعة التي بدأت السهرة معاً، وهي مجموعة صبية المزارع وقد بقيتُ معها. جلس «هنك» وظهره إليّ. وأمكنني القول من مؤخّرة رأسه أنه يتكلّم بسرعة وحماسة، فيما أخذت «»رايت» بين الحين والآخر تسترق النظر إليّ من فوق كتفه والحيرة تبدو في عينيها. إنها أجمل فتاة تقع عيني عليها أبداً. تحدّثَ، وحافظْتُ على الصمت. إنها سهرة نموذجيّة لـ«هنك» و«هلمر»، وليس العكس. كنّا في الثامنة عشرة ولا نزال نشبه بعضنا كخروفين، لكن من نعجتين مختلفتين. وأضحيت بعد ليلة عيد الميلاد، متروكاً لوحدي.

نالت «رايت» إجازة سوقها في مطلع نيسان/أبريل. وأرادت في التاسع عشر منه أن تبرهن لـ»هنك» أنها، بالرغم مما يعتقده هو وعدد كبير من الرجال، لم تنجح في الاختبار بسبب ابتسامتها. أمّا أنا فتابعت في فترة بعد الظهر تلك، حصّة في علم فقه اللغة وتوجّهت بدرّاجتي إلى المنزل. الريح تهبّ من الجنوب الغربي. إنها ريح خلفيّة، فلم أرفع سحّابة معطفي.

جلست أمّي في المطبخ لوحدها. وقالت، «مات هنك».

انحرفتْ «رايت» عن الطريق في «مورديررز بريتش»، ما بين «إدام» و«واردر»،

لأن السيّارة الآتية من الاتجاه المعاكس لم تلزم جانب الطريق. انزلقت السيّارة من على السدّ، وانقلبت وهبطت على بطنها في بحيرة «إيسل». أُغمي على «هنك» والتوى بابه وانبعج السقف من فوقه. وفي هذا المكان بالذات تصبح المياه أكثر عمقاً من معظم الأمكنة، ربّما بسبب الفيضان الذي جرف في السابق هذا الجزء من السدّ، ونتجت عنه بحيرة تدعى «موردیررز بريتش» (الفجوة القاتلة) في الجهة الداخليّة. لم تتمكن «رايت»، حتى بمعاونة من السائق الذي لم يفسح الطريق، من سحبه من السيّارة. والسيّارة، التي لم تُرفع من بحيرة «إيسل» إلا في اليوم التالي» هي الـ«سيمكا» الزرقاء الداكنة التي يملكها الوالد.

أمضت «رايت» في منزلنا كلّ الأيّام التي بقي فيها «هنك» مسجّى في غرفة الجلوس. تصل باكراً في الصباح ولا تذهب إلى منزلها إلا في وقتٍ متأخّرٍ من الليل. لم يمكننا ترك النعش مفتوحاً لفترة طويلة لأن «هنك» تعرّض للغرق. هبطت الحرارة بسرعة في ليل التاسع عشر وأبقينا إطاري النافذتين المنزلقتين مشقوقين. جلست والدتي و«رايت» في المطبخ طول اليوم لا تفعلان شيئاً. وأخذ يفد علينا زوّار بين فترةٍ وأخرى، الأجداد على الأخص وثلاثة منهم كانوا عام ١٩٦٧ لا يزالون أحياء. تحاشيتُ والوالد، أحدنا الآخر، وبذلنا كل ما في وسعنا للبقاء ما أمكن في الخارج. فالوجود في المنزل لا يُحتمل. جلست المرأتان بصمتٍ في المطبخ، فيما سُجّي «هنك» في غرفة الجلوس الباردة، ولم استطع النوم ليلاً خوفاً من أن أبدأ في شمّ رائحته. ذهبت بعد يومين على الحادثة بالدراجة إلى أمستردام لمتابعة محاضرتين. وتوقّفت في طريق الذهاب لفترةٍ طويلةٍ عند رأس جسر «شيللينغوود» وأنا أحدّق بـ «أورانج لوكس». أعرف بتأكيدٍ مطلقٍ أن محاضرة يوم التاسع عشر كانت في علم فقه اللغة لأن والدتي أبلغتني لما عدت إلى المنزل أن «هنك» مات. امّحت المحاضرات السابقة لذلك التاريخ واللاحقة له كلّياً من ذاكرتي. وتوقّفت من جديد لفترة طويلة وأنا على طريق العودة عند رأس جسر «شيللينغوود» وحدّقت هذه المرّة في الجانب الخارجي لبحيرة «إيسل»، مرجئاً الوقت الذي سأعاود فيه استخدام

الدوّاستين. وقد احتفل الجسر في تلك السنة بالذكرى العاشرة لتأسيسه. شعرت بأنني سأصبح عرضة للنسيان: فوالدي ووالدتي هما الأهل، و«رايت» تكاد تكون الزوجة، أما أنا فمجرّد شقيق.

توقّفت، منذ ذلك اليوم، عن الذهاب إلى جنوب القرية، وصرت أتوجّه شمالاً في كل رحلةٍ تقريباً أقوم بها.

بقيت «رايت» ترتجف حتى ما بعد الجنازة، وقد أصيبت بالبرد حتى العظام من جراء الشعور بالذنب والمياه الجليدية لبحيرة «إيسل». غادر الجميع وجلسنا نحن الأربعة في المطبخ: «رايت» في مكان «هنك»، وضوء النافذة الجانبيّة من ورائها. رفع الوالد كوب قهوته الفارغ وهزّ الملعقة جيئة وذهاباً وهو يحدّق بسطح الطاولة. نهضت الوالدة وصبّت بصمتٍ كوباً آخر. وكان في وسع «هنك» أيضاً القيام بذلك وجعل ملعقته تقفز في كوبه، لكنه يبتسم لي عندما يفعل ذلك ويشكر أمّي بعد ان تملأ له كوبه. شاهدتُ «رايت» تنظر إلى الوالد الذي حرّك قشوة الحليب في قهوته، ثم نظرت إليّ. ورأيت في عينيها من جديد الحيرة التي نظرت بها إليّ ليلة التقت بـ «هنك». لا أذكر أنني حادثتها، فهي أجرت حديثها كلّه مع الوالدة. لقد شكّل ذلك أسبوعاً من الصمت.

لا أذكر الأمر، لكن لا بدّ أنها امتلكت عملاً. مرّت ثلاثة أيّام وهي لا تزال في منزلنا كأنها لا تعرف ماذا تفعل تالياً. أصاب مزاجُها الوالدة بالعدوى، وأخذتا تسيران في الجوار معاً، وغالباً إلى طاحونة «بوسمان» الهوائيّة، كما لو أنهما تعرفانه مكاناً عنى الكثير لـ «هنك». شاركتنا الطعام وهذا طبيعي تماماً، أقلّه للوالدة ولي. لكن ليس للوالد. ففي تلك الأمسية، في السادس والعشرين من نيسان/أبريل، في حال صح إحصائي، شرع في تناول وجبته بصمت. وتحدّث إلى «رايت»، قبل أن يدفع إلى فمه بشوكة مليئة بالبطاطا، وهذا في الواقع الشيء الوحيد الذي قاله لها طوال أسبوع الصمت ذلك: «أريد منكِ الرحيل بعيداً وعدم العودة أبداً».

وضعت سكينها والشوكة من يدها – وهي الوحيدة التي أكلت بالسكين والشوكة – في شكل مرتّب على مقربة من صحنها شبه الفارغ، أرجعت كرسيها ووقفت. «حسناً» قالت بهدوء وكأنها توقّعت الأمر، أو كأنها كانت تنتظره. سارت إلى البهو، ارتدت معطفها وغادرت من الباب الأمامي. شرعت والدتي في البكاء، ونهضتُ وسرتُ إلى النافذة الأماميّة، ورأيتها تنعطف على درّاجتها إلى الطريق. أنا أذكر «رايت» على الشكل التالي: ظهرها منحنٍ (في مواجهة الريح الأماميّة)، وشعرها الأشقر يتموّج، وهي تمتطي دراجتها الهوائية عبر طريق ضيّق وفارغ يزداد فراغاً وفراغاً كلّما اقتربت من السدّ. واختفت كما اختفى الضوء الأحمر في تشرين الثاني/ نوفمبر وراء إطار النافذة.

وثمّة المزيد مما أراد أبي قوله: «أما أنتَ فلم يعد لديك ما تفعله في أمستردام». أصبحتُ فتى والدي. ولم تكفّ أمّي عن البكاء.

١٦

إنني أتزلّج. أربع ليالٍ من الصقيع تجمّدت بعدها البحيرة الكبرى كلّياً، ما عدا بقعة بيضويّة في الوسط. أبقيتُ عيناً على طيور البط والزقّة والدِقدقة، وشعرت بما يكفي من الأمان. ولم يُظهر سكّان أمستردام أنفسهم، فهم لا يعرفون بعد أن التزلّج بات ممكناً. سبق لي، خلال الصقيع الجليدي الحقيقي الأخير، قبل سنوات كثيرة، أن اشتريت زوجين من زلاّجات السباق لأنني أردت التزلّج عند الزوايا، وهو ما لا يسعك فعله بالزلاّجات الـ «فرايزيّة» [نسبة إلى مقاطعة فرايزلاند في شمال هولندا]. وها إنني اتزلّج الآن عند الزوايا، أسرع وأسرع، أوسع وأوسع. وأنزل أكثر قليلاً على

ركبتيّ المتيبّستين. وكلّما أسرعت كلّما قلّ عدد الشقوق التي تظهر على الجليد الذي تحوّل في بعض الأماكن إلى اللون الأسود. مضى زمن طويل على إمكان التزلّج قبل عيد الميلاد، وراقبتني نحو دزّينة من مهور «شتلند» ببلادة، فهي لا ترى الجليد بل مياهاً ملساء. اضطررت في النهاية إلى الفرملة للامتناع عن الطيران إلى الأجمات اليابسة كالعظام على طول الجانب الشرقي للبحيرة، فلم تعد لركبتيّ وأسفل ظهري طاقة على الاحتمال. وإذا بقي الصقيع على حاله فسأتمكّن، في غضون أيام قليلة، من التزلّج إلى «مونّيكندام» وربما القيام بلفّة كاملة حول «ووترغنغ» أو إيلبندام».

تعلّمت التزلّج من دون «هنك» ومن دون الوالد. فوالدي يخشى المياه المجلّدة، بالرغم من أنه لم يعترف أبداً بذلك. أما «هنك» وأنا فقمنا بكل شيء معاً ما عدا التزلّج. علّمني عامل المزرعة وشجّعتني أمّي، فهي تحسن التزلّج الفني وتقوم بدورات رائعة وبأشكال دائرية متداخلة وتصيح بانتظام: «هذا صحيح!» لم يجرّني عامل المزرعة معه، وهو ما أَعتقدُ أنها الطريقة المعهودة لتعليم التزلّج، بل دفعني. أحاطت يداه الكبيرتان بمؤخّرتي أشبه بمقعد الكرسي، وطوى ركبتيه كثيراً بحيث كاد يجلس القرفصاء. ولما صرختُ طالباً التوقّف، فرمل وأوقفني بلفّ يديه حول وركيّ. وعلى حدّ ما أتذكّر فإنه تزلّج في المكان معي على هذا الشكل لساعات، بعد وقت طويل على انتهاء أمي من تصوير الدوائر المتداخلة. ولا يمكن للأمر أن يكون قد جرى على هذا الشكل. ولا بدّ أن والدي سار إلى الميدان ليذكّره بحدّة بوجود أمور يقوم بها أهم من تسلية نفسه على الجليد، ولينظر إليّ بسخط – إلى صبيّ في السادسة أو السابعة من العمر – لأن «هنك» هو الذي يهتم بالحيوانات الصغيرة، أو يجمع البيض، أو ربّما يقطع أذيال الحيوانات. وتكتئب أمّي في المطبخ لأنها حتى هي سمعت كلاماً ملء أذنيها: ماذا تعتقد أنها تفعل، أتتزلّج مع عامل المزرعة؟

لا بد أن هذا هو اليوم الذي قرّر فيه والدي لنفسه – لمجرّد أنني استمتعت بأمر آخر – أن «هنك» سيصبح المزارع بالرغم من أنني الأكبر سنّاً، ولو بدقائق معدودة. ساعد «هنك» والدي، ورحتُ أتزلّج وأتعامل مع عامل المزرعة كمساوٍ لي. وربّما

كانت هذه واقعة واحدة في سلسلة من الأحداث جعلت والدي يستنتج أنني غير مناسب لخلافته. وقد اضطُرّ، بعد وفاة «هنك»، إلى التعامل معي، لكنني بقيت دوماً في نظره بمثابة الخيار الثاني.

حملتني دفعتان طويلتان إلى حيث وضعت قبقابيّ بين القصب. نزعت مزلاجيّ ونظرت إلى طيور الماء. ويطلق والدي على طيور الزِقّة والدِقدق اسم «دجاج الماء» لأنه يخلط دوماً ما بينها. سأذهب في وقتٍ لاحقٍ من النهار لاستطلع حالة قشرة الجليد على نوافذه.

ذكّرتني قشرة الجليد بـ «هنك» وبسريره الدافئ.

شاهدت، حتى قبل بلوغ الطريق، شاحنة تاجر المواشي تنعطف إلى الباحة، فلم استعجل. سيبحث عنّي، لكنّني سأبلغ المنزل قبل أن يفتّش في كل مكان. بيد أن أفكاري التقطت عبارة «في كل مكان»، وتخيّلت على الفور تاجر المواشي يقف على السجادة الزرقاء على مقربة من سرير الوالد، قبعته في يده، وهو صامت، ويحرّك أصابع قدميه وتبدو عليه الجدّية. أمّا والدي فلم يصمت، وهو يهذر ويثرثر ويواصل الكلام إلى أن أدخل الغرفة. أسرعتُ الخطى والعشب المغطّى بالجليد ينطحن تحت حذائي. أرجحتُ ساقاي من فوق البوابة الأخيرة وركضت إلى الباحة.

خرج تاجر المواشي من الحظيرة. أراد، لما رآني، رفع قلنسوته لكنه بدّل رأيه. وقال: «لديك بضعة عجول جيّدة هناك».

«نعم» قلت وأنا لا أزال ألهث.

أضاف: «الجو بارد».

«نعم».

«أكنت تتزلّج؟»

«نعم. البحيرة الكبرى قد تجمّدت بالفعل».

«بعتُ نعاجك».

«يا للسرعة».

«آه، إنه واحد من هواة المزارع. مئة وخمسة وعشرون للرأس الواحد».

«لا بأس».

سحب محفظته، وهي كناية عن شيء ضخم مربوط بسلسلة إلى حزامه. لحس إبهامه وسبابته، وسحب خمس خمسينات ونقّب في جيبه عن بعض الفكّة. فهو يتقاضى ثلاثين بالمئة، بغض النظر عن الثمن.

«شكراً» قلت. «هل ستصرّح بها؟»

«كلا».

«جيّد».

سار في اتجاه شاحنته المتوقّفة في وسط الباحة، وقال قبل أن يتسلّق إلى الكابينة، «كل عيد ميلاد وأنت بخير». إنه يثرثر اليوم.

تذكّرتُ بشكلٍ مبهم متجراً للفن يُدعى «سيميز» عند أوّل «برويين»، فركنتُ السيّارة. لاحظت أنني أشعر بالتوتّر، وفتحت الباب من دون النظر عبر النافذة. اقتربتْ منّي امرأة كبيرة الحجم في ثياب فضفاضة، بدت من منظرها أنها الفنّانة نفسها: هل هناك ما أودّ السؤال عنه؟ «كلاّ، فأنا أتفرّج وحسب». لم يستغرقني الأمر طويلاً؛ لو أن هذه البقع الملوّنة فنّ، فأنا مزارع نبيل من «غرونينغن». شممت، بعودتي إلى الشارع، نار الحطب من معمل تدخين السمك. اشتريت رطلاً من الأنقليس لفّه السمّاك بصحيفةٍ قديمةٍ ثم وضعه في كيس من البلاستيك. تابعت من بعدها طريقي على طول الواجهة المائية. توجد صالة عرض على مقربة من الـ «إنغليش كورنر»، التماثيل المصنوعة من الحجارة الملساء على الرفوف على طول الجدار جميلة، وبخاصة للمس، بيد أنني لا أزال أفكر في الحصول على لوحة. توجّهت عائداً إلى

وسط المدينة، حيث عُلِّقت لافتات في كلّ مكانٍ تُعلن عن «الألعاب النارية». أُقيم مزودٌ وبقرتان وحمار بالحجم الطبيعي في القسم المسقوف خارج «الويهاوس». لمس فتى أنف الحمار وكاد يتعثر عن الأرضية المرتفعة من فرط الدهشة، عندما تأرجح رأس الحمار جيئة وذهاباً. ورُفعت على مركبٍ عالقٍ في الجليد في الميناء القديم شجرة عيد ميلاد ضخمة وقد أضيئت كلّها.

مررتُ، وأنا أسير عائداً إلى السيّارة، بمتجر للأثريّات. دخلت إليه بالرغم من أن المزيد من الخردة القديمة هو آخر ما أبحث عنه؛ وقد سبق ورميتُ حمولة منها في كومة الخشب أو خزنتها في غرفة «هنك». تطلّع إليّ رجل عجوز من إحدى الزوايا لكنه لم يفُهْ بكلمة. وضعت الكيس البلاستيكي الذي يحتوي على الأنقليس على كرسي على مقربة من الباب وجلت بنظري في المكان، فوجدت كومةً من الخرائط القديمة على طاولةٍ من خشب السنديان، ولا فكرة لي عمّا أريده من خريطة قديمة، بيد أنني واصلت تقليب الخرائط: شمال هولندا، واستصلاح الأراضي، وبلد لم أدركه على الفور، و«ماركن»، و«بيمستر». أعدت الخرائط إلى مكانها، الواحدة تلو الأخرى، حتى بلغت تلك التي لم أدركها. إنها الدنمارك، الدنمارك القديمة ومعظمها بالأخضر مع ثلاثة ملاحق داخله فيها وهي جزر «أيسلندا» و«بورنهولم»، و«فارو». وقد رُسمت «أيسلندا» و«فارو» بظلال اللون البنّي. والخريطة في حالة جيّدة إلا طرفها المصفرّ بعض الشيء. اشتريتها وحصلت على فكّة من الخمسين التي ناولتها للرجل المسنّ. عبرتُ بعد ذلك الطريق إلى صانع الإطارات، وعثرت على إطار كبير بالحجم المناسب طُلي بالورنيش الفاتح. ولمّا لم يكن غيري في المتجر، كان أمام التاجر متّسع من الوقت ليقطع لي لوحاً من الزجاج الذي لا يعكس الضوء. وضّب الإطار والزجاج كلاً على حدة. ولم أحصل على أي فكّة من الخمسينات الأربعة التي ناولته إيّاها. ثم قفزت سريعاً إلى متجر الأثريّات قبل عودتي إلى السيّارة، فأنا وسط كلّ هذه الإثارة قد نسيت الأنقليس.

فكّرت، وأنا أقود عائداً إلى المنزل، بـ«جارنو كوبر» في «جوتلاند».

تناولت على عجلٍ بضع شرائح من الخبز قبل أن أعبر الحقول، للمرّة الثانية اليوم، إلى البحيرة الكبرى. اختلفت الأضواء عنها في الصباح وقبع سرب من الإوزّ على مقربة من البقعة المفتوحة في الجليد. سحبت مزلاجيّ، ولما أصبحت في دورتي الثانية حول البحيرة أضحت سرعتي كبيرة جدّاً لدرجة أنني لم أعد في حاجةٍ إلى التزلّج في أقسام مباشرة على الإطلاق. تزلّجت في حلقةٍ كبيرةٍ واحدة، في زاوية لا تنتهي أبداً. واستمرّيت في ذلك إلى أن أصابني الإعياء.

حلبت البقرات، وتناولت بعدها نصف رطل الأنقليس بالخبز. ولمّا انتهيت صعدت إلى الأعلى حاملاً تفّاحة. أضأت النور في غرفته، وها هو ممدّد على ظهره وعيناه فاغرتان والبطّانية مسحوبة حتى أنفه. تكاد لا تصدر منه أي حرارة، فيما يمتلئ أسفل النافذة بأزهار الجليد. وربّما أنه يتجمّد حتى الموت في الليلة الآتية.

قلت: «جئتك بتفّاحة».

أجاب: «الطقس بارد».

«نعم، الطقس جليدي». وضعت التفّاحة على طاولة السرير وغادرت الغرفة. لم أفكّر بالسكّين إلا وأنا على الدرج. لكنّني لن أعود، لا لإعطائه سكّيناً ولا لإطفاء النور.

وضع صانع الإطارات كيساً من الورق يحتوي على مسامير صغيرة لتثبيت الزجاج. لاحظت وقد فردت كلّ شيء على طاولة المطبخ أن هناك شيئاً ناقصاً: الخلفيّة. قست الإطار وخرجت إلى الحظيرة ومعي قلم رصاص وشريط قياس. عثرت على قطعة رقيقة من الخشب المعاكس وسط بعض العارضات القديمة وقطعتها بحسب القياس المطلوب على طاولة العمل تحت الخزانة التي ألصقت عليها علامة خطر الموت. سمّرتُ مسمارين في قطعة الخشب ربطت بهما سلكاً رفيعاً لتعليقها به.

مدّدت الإطار على وجهه على طاولة المطبخ، ثم أسقطت فيه لوح الزجاج، واتبعته بالخريطة (التي تناسبت معه تماماً حيث أختفى معظم الأطراف المصفرّة

خلف الإطار)، ووضعت فوقها أخيراً قطعة الخشب المعاكس. لم أترك الكثير من الفراغ، فكانت أربعة مسامير كافية لتثبيتها بإحكام في الإطار. ثم حملت الخريطة المؤطّرة إلى غرفة الجلوس ورفعتها هنا وهناك إلى الجدار. ضاعت بين النوافذ، ولم أتمكّن من وضعها إلى يمين رفّ الموقد أو يساره من دون أن يبدو الجانب الآخر فارغاً. يجب إذاً نقلها إلى غرفة النوم. دققت مسماراً كبيراً في الجدار المجانب للباب وعلّقت الخريطة هناك بحيث يمكنني رؤيتها من السرير.

انتظرني الحماران بالرغم من أنني لا أذهب إليهما في كلّ مساء. سبق أن تركت الضوء مشتعلاً، فشكّل ما انبعث منه من نورٍ ما يشبه المعبر الواسع في الباحة. إنه مِزْوَدي الخاص. نخرا لدى دخولي الزريبة، فقدّمت لهما جزرتين شتويّتين ومغرفةً من الشوفان. واندفع تنفّسهما من المعلف أشبه بغيمةٍ باردة. جلست على بالة من التبن وانتظرت انتهاءهما من الأكل، وصدرت أصوات قوقأةٍ خافتةٍ من خمّ الدجاج المجاور لزريبة الحمارين. أمر غريب.

أشعرني جلوسي الساكن بالبرد. ولمّا انتزعت ثيابي في ملحق المطبخ فعلت ذلك ببطء لأشعر بمزيدٍ من البرد. ارتعشت في الحمّام إلى أن سخنت المياه. غسلت شعري وشبكت يديّ معاً خلف عنقي وحوّلتهما إلى وعاء أفرغه المرّة تلو المرّة وأرشّ الماء الساخن من فوق كتفيّ نزولاً على ظهري. جفّفت نفسي وسرت إلى غرفة الجلوس وأطفأت النور وأشعلت الموقد. وقفت منتصباً أدرس نفسي في المرآة على ضوء نور غرفة النوم. هذا منزلي الآن، وفي وسعي، كلّما أردت ذلك، الوقوف عارياً أمام المرآة. توهّجت حرارة النار على عضوي، وشعرت بالثقل والقوة في عضلات مؤخّرتي وساقيّ. بدا الأمر كأنني أشعر بيديّ عامل المزرعة على مؤخّرتي من جديد. وبلغ الشعور حدّاً من الواقعيّة دفعني إلى وضع يديّ هناك لجعل ما تخيّلته من يدين تختفيان. أخذتُ رسالة «رايت» الموضوعة على رف الموقد إلى غرفة النوم وقرأتها من جديد وأنا في السرير (تحت الملحفة الثانية التي غسلتها في هذه الأثناء). نظرت إلى خريطة الدنمارك قبل أن أطفئ النور، وفكّرت بالنعاج الثلاث المقيمة هناك، واستدرت إلى جانبي الأيسر وسحبت ركبتاي إلى الأعلى في الظلام.

١٧

وصلتني رسالة ثانية:

العزيز «هلمر»،

«برابنت» فظيعة. أجهل إن كنت قد زرتها، لكن خذها منّي: إنها رهيبة. لا شيء سوى الخنازير والأشخاص الأنيسين، لكن نوع أنسهم لا يشبه في أي شيء ما تعوّدنا عليه في الديار في شمال هولندا. هل يمكنك، على سبيل المثال، تخيّل الكرنفال؟ هل تتخيّلني مرتديةً ثياباً مضحكة، بذّة مهرّج وقناعه؟ يواصل الجميع الابتسام طوال الوقت كما لو أن لديهم ما يبتسمون له.

ولدت ابنتانا في «برابنت» وترعرعتا فيها، لكن هذا لا يهمّ كثيراً لأنهما ابنتانا، ولأنني اتّفق معهما بشكلٍ جيّد جدّاً. كلتاهما ودّيتان، ولكل منهما زوج لطيف وأولاد (نعم أصبحتُ جدّةً!)، وتعيشان على مرمى حجر منّي بحيث يمكنني زيارتهما متى شئت.

وابننا (لاحظتُ للتو فقط أنني كتبت بصيغة «نحن»، بالرغم من مضيّ سنة تقريباً على وفاة «فيان») لا يتناسب تماماً مع «برابنت». لا أعرف السبب، وربّما أنه يشبهني أكثر مما يشبه «فيان». وأنا، بعد وفاة «فيان»، بعت المنزل وأقيم في القرية الآن، مع ابني. وهذا غريب: يموت الزوج، ينتقل المرء، ويصبح فجأة كل الوقت بين يديه.

أكتب هذه الرسالة لأنك لم تبعث برسالةٍ جوابيةٍ أو تتصل. ويتملّكني الفضول لمعرفة كيف عاملتك الحياة. لا أعرف حتى إذا كنتَ قد تزوّجت، لكنني أظنّ أنك لم تفعل، فوالدتي أخبرتني، قبل أن تموت بقليل، أنك

لم تفعل. نعم، فأنا كما ترى حاولت متابعة أحوالك بأفضل ما أمكنني. وهناك أمر أودّ أن أطلبه منك، لكنّني أفضّل عدم القيام بذلك في رسالة. فلماذا لا تكتب أو تتصل؟

سأقول الأمر بلا مداورة: أودّ كثيراً القيام بالزيارة لأراك، وأيضاً لرؤية المزرعة التي غالباً ما زرتها (وكنت لأقيم فيها الآن لو سارت الأمور بشكلٍ مختلف). ثم هناك المشكلة مع والدك (وقد كتبت عنها في رسالتي الأخيرة) والتي تحتاج إلى حلّ.

على أمل سماع أخبارك،

مع محبتي

«رايت».

تحمل الرسالة هذه المرّة عنواناً على ظهر مغلّفها. لا يذكّرني اسم القرية بشيء، ولا يمكنني أن أفهم ما الذي تريده منّي. فهذه الرسالة مشوّشة، على غرار سابقتها. وقد ذُيّلت في المرّة الأولى بـ «أفضل التمنّيات، رايت» وها إن الأمر يتحوّل إلى «مع محبّتي». كما لو أنها تحاول إثارة فضولي. هل إن الأمر الذي أرادت طلبه منّي وأشارت إليه أيضاً في رسالتها الأولى هو السماح لها وحسب بالمرور للزيارة؟ أم أنه شيء آخر. وقد أزعجتني جملة «كنت لأقيم فيها الآن لو سارت الأمور بشكل مختلف» (وقد وُضعت بين هلالين وكأنها تعليق عابر). وفسّرتُ نهاية رسالتها بأنها تعني أن أبلغها بوفاة والدي، وإلا فلن تأتي.

بدأت الحرارة ترتفع بشكلٍ متقطّع، وتزحف بين الحين والآخر إلى ما فوق الطقس الجليدي. الجو ضبابي مع أمطار متفرّقة، إلا أن الحرارة تبقى ما دون الصفر في معظم اليوم. هناك طبقة من الماء على الجليد، غير أن الأطراف الصفراويّة ـ البيضاء في القنوات تستمرّ في الوقت نفسه في التوسّع. السديم غريب ويحمل معه توقّعاً بالهواء الدافئ. وقد وضعت مزلاجيّ جانباً وبات عليّ أن أنسى أمر حلبة

«موننيكندام ـ ووترغنغ». الحماران باقيان في الداخل، والدجاجات بالكاد تبيض، وقشرة الجليد زحلت عن نافذة غرفة نوم والدي، وأضحت بقعة من الماء على حافة النافذة. أما هو فقد أكل التفاحة، لا أعرف كيف تمكّن من ذلك، لا بدّ وأنه أصيب بجوعٍ شديد.

وأنا، بوجود عشرين بقرة، وحظيرةٍ خشبيّةٍ تعود إلى ما قبل الحرب، وبضعة عجولٍ وعددٍ من الرضّع، وثلاثٍ وعشرين نعجة، لا بل عشرين، لم أبلغ حتى مصاف أصحاب الحيازات الصغيرة.غير أن الطلاء في حالةٍ جيّدةٍ والقرميد على السطح مستقيم.

*

وصل سائق الصهريج الشاب في فترة بعد الظهر. لم أوافِه إلى غرفة الحليب، واكتفيت بمراقبته عبر النافذة المستديرة التي نُقلت عند بناء غرفة الحليب من الجدار الخارجي إلى ذلك الواقع بين هذه الغرفة وملحق المطبخ. ويُظلم ملحق المطبخ لدى إقفال الأبواب المؤدية إلى الزريبة والبهو وغرفة الحليب، لأن الضوء الوحيد الذي يدخله يأتي عبر هذه النافذة المستديرة نفسها. بدا السديم كأنه يتدفّق على جانبي الصهريج الضخم وإلى داخل المبنى. وواصل السائق الابتسام بالرغم من كمّية الحليب البائسة التي تنساب إلى صهريجه عبر الخرطوم الموصول بخزّاني. نسيت اسمه من جديد وكلّما جهدت في تذكّره زاغ منّي. وجلّ ما أعرفه أنه يحتوي على حرف الواو. دسّ إصبعه الصغير في أنفه؛ وشعرت بالفعل بالحاجة إلى إشاحة النظر. لا يبدو أنه ينتظرني، ولا يبدو أنه يبالي سواء جئت للدردشة معه أم لا.

هل يكفي أن يكون الطلاء في حالة جيّدة وقرميد السقف مستقيماً؟ وأن تُشذّب الصفصافات كما يجب، ويقبع الحماران في زريبتهما دافئين ويتغذّيان جيّداً؟

وبالطبع، انتابني كذلك الفضول في شأن «رايت». الأكيد هو أنني أريد لأمر ما أن يحصل. أريد أن أعرف ما آلت إليه الفتاة الجميلة ذات الشعر الأشقر، الشابة

التي كانت ستتزوّج من أخي. أريد سماع ما لديها من قول، وأريد أن أرى النظرة في عينيها. انتظرتُ حتى قفز السائق صاعداً إلى كابينته، برشاقته المعهودة، ودخلت إلى غرفة الحليب لأنظف الخزّان بالماء. أبعدت المياه الساخنة إلى الخارج.

توجّهتُ بعد الحلب إلى حديقة الخضار لالتقاط بعض الكرنب الذي شبع جليداً. انتصبت ونظرت عبر نافذة المطبخ إلى داخل منزلي. الأنوار مضاءة في المطبخ وفي غرفة الجلوس. وبدا السرير في البعيد – تمكّنت من رؤيته لأن الأبواب كلّها مفتوحة – أشبه بعرشٍ في قصر. إنها ليلة عيد الميلاد، والسنة الجديدة تبدأ بعد سبعة أيّام.

II

١٨

«لا يوجد شيء اسمه مُزارع خنازير».

«ماذا تقصد؟»

«مربّو خنازير، ربّما، لكن لا يمكن تسميتهم مزارعين».

«ولمَ لا؟»

«كم من الفدادين؟»

«القليل بين الزرائب، والقليل حول الجانب».

«هذا ما أعنيه. فللمزارع أرض، وهو يفعل شيئاً بهذه الأرض. أما مربّو الخنازير فيبقون خنازيرهم في الزرائب للذبح. وليس للأمر أي علاقة بالزراعة.»..

«يوجد حبل للغسيل على أحد الجزءين الصغيرين من الأرض ومشبك للعلف على الآخر».

«... للأمر كلّه علاقة بالمال». وها أنا أقف في البهو أنظر عبر نافذة المطبخ. إنها تمطر. وذوبان الجليد المحتوم قد حصل، وما تبقّى منه في القنوات آخذ في التبخّر. ومن الغريب أن الشمس أشرقت طوال نهار أمس، ومع ذلك هبطت الحرارة ليلاً من جديد إلى ما دون الصفر. لا أمتلك أي فكرة عمّا تسعى إليه «رايت».

والمكالمة الهاتفية لا تسير على ما يرام. فـ«رايت» (التي أجابت مستخدمة اسم زوجها المتوفّي) أشارت إلى مزارعي الخنازير ولم أستطع كبح نفسي. وأخذتُ أشعر بالحاجة إلى إقفال الخط.

«هيّا، يا هلمر، فلنغيّر الموضوع».

«نعم» قلت.

«أمن المناسب أن أمرّ للزيارة؟»

«هذا ما أتّصل في شأنه».

«كيف... هل إن والدك.»..

«متوفّ». قلتُ، على أن أعالج ذلك لاحقاً.

«آه،» قالت «رايت» كما لو انها أصيبت فجأة بالأسف الشديد.

«هذا ليس بالأمر المهم».

عمّ الصمت للحظة، هناك في «برابن». «هل استمتعتَ بعيد الميلاد؟»

«أجل».

«وماذا عن الليلة الماضية؟»

«أشعلت نار رأس السنة في العراء».

«كما في الأيام الخوالي!»

«هذا صحيح. جاء صبيّا الجيران للفرجة، وللمساعدة بالطبع».

«لا بد أن ذلك كان ممتعاً».

«هذا صحيح. لكن صغيرهما رونالد، أحرق يده».

«آه»..

«ليس بشكلٍ خطير. بل إن الأمر أضحكه، وأعتقَدَ أنه شيء رائع. ومن حسن الحظ أن والدته كانت موجودة أيضاً».

«متى أستطيع المجيء؟ يمكنني ذلك في أي وقت».

يمكنني في أي وقت. ففي خلال نصف حياتي لم أفكّر في شيء. حلبت البقرات، اليوم تلو الآخر. وأنا من جهة ألعن تلك البقرات، لكنها أيضاً ودّية وساكنة عندما تسند جبهتك على خواصرها لتعليق جهاز الحلب على ضروعها. ولا يوجد شيء مهدّئ ومصون أكثر من زريبة ملأى بالأبقار التي تتنفّس بشكلٍ وقور في أمسية شتائيّة. يوماً بعد يوم، صيفاً وخريفاً وشتاءً وربيعاً.

قالت «رايت»: «يمكنني في أي وقت» وتلك الكلمات الأربع قلبت الأمور كلّها رأساً على عقب. لاحظت فراغها، وفراغها أظهر لي فراغي.

ووالدي هو من ألعنه بالطبع، وليس للأبقار ذنب، وبخاصة ليست الأبقار التي لدينا الآن.

«هلمر؟»

«نعم، أنا هنا».

«متى يمكنني المجيء؟»

«متى شئتِ».

جلست بعد الظهر لفترة طويلة مع الحمارين، وأطعمتهما قطعاً من الشمندر الأصفر. لا يزال الجو داكناً بالرغم من توقّف المطر. النور مضاء في زريبة الحمارين. وأنا قد ميّزت صوتها.

مساء أمس، وقفنا، «آدا»، «تون»، «رونالد» وأنا عند الحمارين لفترةٍ قبل أن أصبّ المازوت على كومة الخشب. تلألأت النجوم الذهبية فوق الزريبة. لم يأت زوج «آدا»، لأنه أراد إبقاء عينه على إحدى البقرات التي توشك أن تضع، إضافة

إلى كونه، بحسب «آدا»، لا يحب «موسم الأعياد». صنعتُ الزلابية، وهي مهمّة أخذتها على نفسي في كلّ سنة منذ وفاة والدتي. جلس الوالد لبرهة وجيزة جدّاً في مكانه القديم إلى طاولة المطبخ، وعمل جاهداً للاعتدال في جلسته مستنداً إلى مرفقيه وتناول قطعتين من الزلابية. جلستُ في مكان والدتي القديم وحدّقت إليه وهو يتحادث مع «آدا». وتشارك «تون» و«رونالد» الكرسي الآخر في المطبخ. بدا «رونالد»،الذي أبقى عينه على والدي، خائفاً بعض الشيء، ووجد صعوبةً في الابتلاع. وأبلغ الوالد «آدا» ما لا يقلّ عن ثلاث مرّات بأنه يريد رؤية الطبيب. ولما رمقتني، بعد المرّة الثالثة، بنظرةٍ متسائلة، رفعت حاجبيّ بطريقة ذات مغزى.

قالت وأنا أحمله خارجاً من المطبخ: «آمل في أن تتعافى سريعاً يا سيّد فان فونديرن».

وبعودتي إلى تحت سألتني بصوتٍ قلق: «هل من وسيلةٍ للتدفئة فوق؟»

«كلاّ» أجبت. «لكنه شيخ عجوز صلب. من المؤسف أنه لم يعد على هذا القدر من التماسك. إنه يتدهور بسرعة».

«هل انه يُحتضَر؟» سأل «رونالد» وهو يأكل قطعةً من الزلابية بسرعة قصوى بما أنه لم يعد هناك ما يمنعه من ذلك.

«رونالد!» قالت «آدا».

وسأل «تون»: «متى سنشرع في إشعال النار؟»

وتعاقبت الأمور من الحمارين، ومن بعدهما نار رأس السنة في العراء، ثم سقوط اللوح المحترق (من سريري القديم) على يد «رونالد» الذي تحمّس أكثر من اللازم قليلاً وهو يحرّك النار بغصن سميك.

«انتهيت!» صاح والدي. وغرغرت دفقة المياه بخفوت كما لو أن الغطاء مُقفل.

مضى عليّ وقت طويل وأنا واقف في الرواق قبالة باب الحمّام. لقد حرّكت

الزلابية أمعاءه. ضيّقتُ فتحتي أنفي، وفتحت الباب وحملته. رفعَ سروال بيجامته بنفسه. وقلت له: «اغسل يديك».

حمل لوح الصابون عن المغسلة وفتحتُ له الصنبور.

سألته، وأنا أنقله إلى الأعلى: «هل تعرف اليوم الذي نحن فيه؟»

«الميلاد؟» قال.

«بل رأس السنة الجديدة. لم يعد ذهنك على ما يرام».

«لا؟»

«لا».

«أنتَ من ذهنك ليس على ما يرام. فأنا لست مجنوناً».

«ليكن ما تشاء» قلت وأنا أمدّده على السرير.

قال: «كانت آدا هنا الليلة الماضية».

«نعم».

جلستُ على الكرسي قبالة النافذة. ربّما عليّ في النهاية شراء دفّاية تعمل على الكهرباء فالمكان رطب هنا، وسيصاب سريعاً بكل أنواع الخَمَج الفطريّ الرهيب. أرحتُ مرفقيّ على ذراعيّ الكرسي وفركت يديّ.يشكّل الجدار الذي يحمل الصور والمطرّزتين واللوحات مستطيلاً كبيراً في داخله مستطيلات صغيرة ومربعات. لم أتمكّن من رؤية أي تفصيل، فنهضت وأشعلت النور. سرت ببطء شديد للغاية على امتداد الجدار، ويداي خلف ظهري كأنني في صالة عرض، قبل أن أعاود الجلوس. «لماذا صَنَعَتْ والدتك مطرّزتين بدلاً من واحدة؟»

«سيتوجّب عليك سؤالها» قال والدي على مضض.

«لا أستطيع».

«كلا، لا تستطيع» قال وهو يتنهّد.

«هل اعتقدَتْ أن أحدنا لن ينجو؟»

«لا أدري».

«هل فعلت ذلك لتتمكّن من رمي إحداهما؟»

«ألا يفترض بك أن تقوم بالحلب؟»

«قريباً. فالبقرات لن تذهب إلى أي مكان».

«هممم.»..

قلتُ: «قامت بالاقتصاد. لا ليس بالاقتصاد، بل بأمرٍ عمليّ».

«نعم، عمليّ» قال الوالد.

«لكن يبقى أنه عندما يتوفّى المرء في التاسعة عشرة لا تُرفع مُطرّزته عن الجدار».

«لا». تحدّثتُ، لكنّني بالكاد سمعت ما أقوله. فالمكالمة الهاتفية مع «رايت» تشغل بالي.وهذا ما أردت التحدّث في شأنه ومضايقته به، وها أنا بدلاً من ذلك أضايقه بمطرّزتينا. وما كنت، حتى خمس دقائق مضت، لأتوقّف وأفكّر بالسبب الذي دفع بالجدّة «فان فونديرن» إلى صنع مطرّزتين منفصلتين. فمطرّزة واحدة تشكّل في ذاتها عملاً كبيراً. فهل عرفت أمّي في الواقع أنها ستُرزق بتوأم؟ تنهّدتُ وفتحتُ عينيّ. فأنا لست فعلاً في مزاجٍ لمضايقة والدي. إنه يوم رأس السنة.

سألني: «ما القضيّة؟»

فتحت عينيّ: «لا شيء». ونهضت وسرت إلى الباب. رفعت أثقال البندول، «أتريد الكرنب الليلة؟»

«شهيّ» قال الوالد. بدا سعيداً، وهذا لا يُطاق.

«أأترك النور مضاء؟»

«نعم».

«والستائر مغلقة؟»

«نعم».

سرت عائداً إلى النافذة وأسدلت الستارة. ووجدت مصباح عمود الإنارة قبالة المزرعة مضاءً، وقد تم إصلاحه، ولم يعد في وسع أحد التحديق من دون أن يُرى.

ألقت اللمبة في ملحق المطبخ وهجاً خافتاً على الدرج وبسطته. باب الغرفة الجديدة مفتوح، كما لو أنه يوجّه إليّ الدعوة: تعالَ واملأني. تطلّعت إلى المفتاح في قفل غرفة النوم. نظرت إليه لكنني لم أدرْه، وأسرعت نزولاً إلى الأسفل.

اتصلت هاتفيّاً بـ«آدا» للسؤال عن يد «رونالد».

«إنها بخير» قالت. «الأمر ليس على هذا القدر من السوء».

سُررت لسماعي ذلك، فناري هي السبب.

١٩

لم تتّصف أمّي بالبشاعة السافرة فحسب، بل أيضاً بطيبة القلب المطلقة. تبقى عيناها رطبتين بشكلٍ دائم، ودامعتين بعض الشيء، ربّما بسبب بعض الجحوظ فيهما. ويوجد خطبٍ ما في غدّتها الدرقيّة، وأدّت هاتان العينان الرطبتان إلى تطرية نظرتها إلى العالم. فالوالد يضرب ويعنّف، أما الوالدة فتكتفي بالنظر إليّ وإلى «هنك» لتعود الأمور إلى الأفضل من جديد. وقد نظرتْ إلينا كثيراً.

كان «هنك» فتى الوالد؛ ولم أكن فتى أمّي. فهي لم تفرّق بيننا بالرغم من أنني لاحظت، في الفترة التي أصبحت فيها «رايت» تشاركنا المائدة، أنها نظرت

إليّ في أكثر الأحيان أكثر مما نظرت إلى «هنك». وهي ليست نظرة مواساة، بل نظرة تشجيع، أشبه بيدٍ على ظهري تدفع بي إلى الأمام. وقد اتفقت الوالدة جيّداً مع «رايت» رغم أن وجودها وضع الوالدة في مأزق: فابناها لم يعودا متساويين ولو ان الخطأ في ذلك ليس خطأها. أما الوالد فلم يمتلك مثل هذا التورّع، إذ سبق له منذ وقتٍ طويلٍ أن اتخذ موقفاً منحازاً.

وبوفاتها (ليس جراء الإفراط في نشاط الغدّة الدرقيّة بل نتيجة ذبحة قلبيّة) لم يعد بإمكان والدي أن يجعل ملعقته تقفز في كوب قهوته بالطريقة التي فعلها «هنك»، ففي النهاية لم يعد يوجد من يستجيب لطلبه. صحيح أنني موجود، إلا أنه ليس على ما يكفي من التهوّر لاستفزازي بهذه الطريقة. توقّفنا وحسب عن شرب القهوة، أو أخذنا نشربها كلّ على حدة. ولم تكن «آدا»، التي لم تتعرّف بأمّي أبداً، قد انتقلت بعد إلى الجوار.

أصيبت بالذبحة القلبية وهي تستحم، ما يعني أن ذلك حصل في يوم سبت. لم أكن في المنزل، ولم يخطر لوالدي أن يعود ويتحقّق من الأمر بالرغم من بقائها في الحمّام لفترة أطول كثيراً من المعتاد. فبعض الناس يصابون بالأزمة القلبية ويبقون على قيد الحياة، وبعضهم الآخر ينهار ولا تقوم له قائمة من بعد. ولم تقم لوالدتي قائمة من بعد.

لم أَلُمْها أبداً على عدم المجاهرة برأيها في اليوم الذي طرد فيه والدي «رايت» وأبلغني أنه لم يعد لديّ ما أفعله «هناك في أمستردام». فماذا لو أنها، بدلاً من البكاء، قالت ما يمكن أن يعفيني من قضاء بقيّة حياتي أحلب البقرات؟ فهل كنت لألتقط الفرصة؟ لا أعتقد ذلك. فقد كنت في التاسعة عشرة، وأضحيت رجلاً، وأمكنني أن أهبّ للدفاع عن نفسي. غير انني لم أفعل، والتزمتُ الصمت على غرار أمي. واستدرتُ، بعد وقتٍ طويلٍ على اختفاء «رايت» وراء إطار النافذة (من المؤكّد أنها قد أصبحت حينها عند السدّ، وامتلكتُ فائضاً من الوقت لأودع في الذاكرة مكاناً قد أعثر فيه على عش يحتوي على بيض الهزار). وشاهدتُ عند يسار ظهر الوالد

طبقاً نصف فارغ وقد وُضعت أدوات المائدة عند جانبيه بانتظام. وجلست والدتي على يمين ظهر والدي وهي تنظر إليّ بعينين أكثر رطوبةً من السابق. وعند هذا الحد أُبرم التحالف بيننا. لم يمكنني القول بالضبط عمّا يشتمل عليه هذا التحالف لكنه تضمّن بالتأكيد نوعاً من «سنتجاوز – الأمر – معاً». عاودت الجلوس إلى الطاولة وأنهينا وجبتنا بصمت. وفي اليوم التالي حلبنا، والدي وأنا، البقرات معاً. وقمت، بعد الحلب، بوضع كتبي الدراسيّة في صندوقة من الكرتون في خزانة ثياب «هنك» المبنيّة في الجدار. وتلّقيت بعدها بأسابيع رسالةً من مدرّسي يسأل عن مكاني وإذا كنت أخطّط للعودة. وضعت الرسالة التي لم أجبْ عليها مع الكتب، وتجاهلت من يومها صندوقة الكرتون.

استمرّ التحالف حتى وفاتها. وهو تحالف نظرات لا كلمات. كنّا، والدتي وأنا، ننظر إلى بعضنا في كلّ مرّة يختفي فيها في غرفة النوم بعدما يدعوها «بالروح الرومانسيّة»؛ أو عندما يتذمّر وهو يقطع الغضروف من قطعة اللحم المطهوّة؛ وعندما يرغي ويزبد عبر الحقول وهو ينقل صغار الحيوانات أو الخراف من حقلة إلى أخرى؛ وعندما يأوي إلى السرير في الساعة العاشرة ليلة رأس السنة؛ وعندما ينبح في وجهي وهو يكلّفني بمهام الغد (كما لو أنني فتى في الخامسة عشرة وليس رجلاً في الأربعين)؛ وعندما يقول «لن أقارب الأمر لا من قريبٍ ولا من بعيد» في النقاشات المتعلّقة بأي شيء على الإطلاق قبل أن يتوجّه ليجلس في كرسيه في غرفة الجلوس أشبه بكتلةٍ من الصخور.

تفادت، في مناسبات نادرة جدّاً، النظر إليّ، ويحصل ذلك بشكلٍ شبه دائم عندما يسألني الوالد هل حان الوقت للشروع في التفتيش عن عروسٍ لي. وهو ما فسّرتُه بأنه يعني، ولمرّة، أنها توافق معه.

لم يتبقّ لي على الإطلاق، بعد وفاتها، من أنظر إليه، أو أنظر معه، وذلك أسوأ ما في الأمر. تم فكّ التحالف من جانبٍ واحد. وقد وجدت، وأجد الآن، أنه يصعب عليّ جدّاً ان أنظر في عيني الوالد مباشرة. فلطالما شاهدتُ في عيني أمّي ظلّ «هنك»

وافترضتُ أنها تشاهد الأمر نفسه في عينيّ. (وهي، بالطبع، شاهدت «هنك» في جسدي كلّه، ورأته في عينيَّ بشكل مضاعف.) أما عينا والدي فلم تفصحا أبداً عن أي شيء –بل إن ظلّ أمّي حتى بعد وفاتها كان غائباً.

٢٠

قمتُ باستثناء من أجل «رايت» وتوجّهت بالسيّارة جنوباً. بل إلى الجنوب الغربي على وجه التحديد، إلى المعدية في شمال أمستردام. اتفقنا على توقيتٍ محدّد وها أنا جئت مبكراً جدّاً، أركن السيارة أمام كشك لبيع رقّاقات البطاطا على نهر «إيج». تعبر المعديّات ذات الطابع المستقبلي جيئة وذهاباً كأطباق الزبدة الانسيابية باللونين الأزرق والأبيض، ولا تشبه في شيء مراكب ١٩٦٧ الخضراء الشاحبة، وكانت لا تزال يومها تنقل السيّارات وكأنها تسير على أوتوستراد سريع. شاهدتُ أمامي «المعديّة البلدية رقم ١٥»، بأجزائها الضيّقة والمسقوفة المخصّصة للدراجات الهوائية والناريّة. وهي على سطح السفينة المطليّة باللون الأخضر الشاحب من الداخل، أما من الخارج فبالأبيض الفاحش. غاب ذلك كلّه عن ذاكرتي.

حاولت التفكير في طريقي في المدينة. لم استعد وجوه وأسماء زملائي الطلاّب بل إنه لم يمكنني تصوّر المبنى الذي تابعت فيه المحاضرات. ضاعت كلّها هناك في المقلب الآخر من المياه.

أعطيتها وصفاً للـ «أوبل كاديت»، ولكن القلق راودني في مواجهة سيل المشاة والدرّاجين. فمن سيعثر على من؟ هل يتوجّب عليّ ملازمة السيّارة أو الخروج منها والوقوف بجانبها؟

في وقتٍ سابقٍ هذا الصباح، حملت والدي بين ذراعيّ، ولمّا أصبحت في وسط

الحقل، وسألني عبر أسنانه المصطكّة وشفاهه المرتجفة إلى أين أذهب به، قرّرت إعادته إلى غرفة نومه. أردت وضعه في علّية زريبة صغار الحيوانات، لكن سؤاله، والنظرة المتسائلة من الحمارين (وقد شرع أحدهما ينهق بصخبٍ موقظاً الدجاجات من غفوتها الصباحيّة) كانا كافيين لدفعي إلى التخلّي عن مخطّطي. وكيف سأتمكّن، في أي حال، من رفعه على السلّم؟ تمّت رحلة العودة بسلاسة فكل الأبواب مشرّعة على مصاريعها. أعدت تمديده على السرير (الذي لا يزال دافئاً) وهممت بمغادرة الغرفة من دون التفوّه بكلمة. ولكن، ما إن بلغت الباب حتّى بدّلت رأيي.

قلت: «أنا ذاهب لجلب رايت».

نظر إليّ بتعبير فارغ.

«من المعدية في أمستردام. فهي آتية للزيارة».

«رايت؟» خرج الاسم كالنعيب وأصابه بعض الشحوب.

«نعم، رايت. وأنت ميت».

«ميت؟»

«قلت لها أنك ميت».

«لماذا؟»

وها أنا أحاول أن أنظر إليه نظرةً فارغة. «وهل تحتاج إلى السؤال؟»

فكّر في الأمر.

«لو أنني مكانك للزمت الهدوء» قلت متوعّداً «وإلاّ فإنه يوجد احتمال بأن تأتي إلى فوق».

«لأي سبب؟»

«الثأر».

«آه»..

«وأنت غير موجود أصلاً، أتذكر؟»

«آه»..

«أنا ذاهب الآن».

فكّرت وأنا على الدرج: فليحصل ما يحصل حسب أغنية دوريس داي (Que sera, sera).

فكّرت وأنا في ملحق المطبخ بأنني مسنّ.

تصل واحدة من المعديات مرّة كلّ ست دقائق، ومرت خمس معديات منذ أن ركنت السيّارة هنا، خرج منها الكثير من النساء الخمسينيّات. ومن حسن حظّي أنه يمكنني استبعاد اللواتي يمتلكن درّاجات، وجميعهن يرتدين معاطف سميكة وأوشحة. مرّ زمن طويل على رؤيتي شتاءً كهذا: تراجعت الحرارة من جديد إلى ما دون الصفر، وتراكم الثلج على الأرض. اقتربت المعدية السادسة من رصيف الميناء، وتحقّقت من ساعتي، إنها المعدية التي ستأتي بها إليّ. إلى أين يذهب جميع هؤلاء الناس في يوم عادي من أيام الاسبوع؟ كانت «رايت» آخر من خرج من المعدية. شعرتُ ببعض من الدوار، إذ توقّعت شخصاً يشبه «آدا» (ولا أعلم السبب في ذلك)، لكنها «رايت» تماماً كما ركبت دراجتها مبتعدة منذ ثلاثين عاماً، ولكن ينقصها الشعر الأشقر، وقد امتلأ جسمها بعض الشيء، واختلفت طريقة مشيها. جلستُ متسمّراً وراء المقود وقد أمسكته لا شعوريّاً بيدَيّ الاثنتين، وتوجّهتْ مباشرة إلى السيّارة. شعرتُ بالحاجة إلى السقوط على أحد جانبيّ والزحف تحت لوحة القيادة لوضع جهاز السرعات في وضعية الرجوع والاختفاء إلى الوراء في نهر «إيج»، حتى لو تطلّب المرور مباشرة عبر كشك رقّاقات البطاطا. فربّما ستحاول إنقاذي.

توقّفتْ أمام السيّارة ونظرتْ إلى الداخل عبر الزجاج الأمامي. انتظرتُ للحظة ثم فتحت الباب. اقتربتْ مني وقد بسطت ذراعيها.

«مرحى هلمر».

«مرحى رايت»

ثار في داخلي حنق شديد قديم جدّاً، حنق لا أذكر أنني امتلكته أو شككت حتى بوجوده. لكنني رأيت «رايت» غير منزعجة، بل متأثّرة ومرتبكة، وهو ما يصيبها بالاضطراب. وأنا، كلّما مرّ وقت على وفاة «هنك» أصبحت أكثر شبهاً به، لا لشيء إلاّ لأنه لم يعد هناك من مجال للمقارنة.

كلاّ، فكلمة حنق شديد كبيرة جدّاً، والأقرب هي استياء.

كيف تبدو إقامة علاقة مع توأم؟ من أين لي أن أعرف إذ لم يسبق لي– في ما عدا بعض التصرفات الصبيانية غير اللائقة في المدرسة الابتدائية –أن تورّطت في أمرٍ من هذا النوع. وقد أعقب عشيّة الميلاد تلك عيدُ ميلاد ملأه «هنك» بدندنات شاردة الذهن لم تتوقّف حتى خلال وجبات الطعام. وأجاب، على طبقٍ من لحم البقر المشوي والقرنبيط بالجبن، على كل أسئلة أجدادنا بتفصيلٍ جعل الوالد ينظر متفاجئاً، وأمّي تتطلّع إليّ بتعبير لن يصبح عاديّاً إلا لاحقاً في سياق تحالفنا. بقي في المنزل ليلة رأس السنة، لكن ما إن انقضت دقيقتان على السنة الجديدة حتى اختفى من دون أن يخبرني بمكان ذهابه. رأيتهما في وقت متأخّر من الليل وأنا أعبر جسراً قريباً من «الوايهاوس» مع مجموعة من صبية المزارع الذين شكّلنا كلانا جزءاً منهم حتى الأسبوع الذي سبق. جلسا ممسكين بأيدي بعضهما على مقعد تحت الرذاذ. وحاولت الاختباء وراء صبي المزرعة الأكثر سمرةً ووقعت عيناي على شيء صوب جهة سيري– وهي سيّارة «فولكسفاغن بيتل» بلون المخاط على بعد خطوة أو خطوتين منّي – قد يمكنني بلوغه دون أن يراني أحد. إلا أن صبي المزرعة الأكثر سمرةً كان أيضاً الأكثر إسرافاً في الشرب، فشق طريقه عبر الآخرين للتحدّث إلى «هنك» وتركني مكشوفاً. ولا يزال في إمكاني أن أتخيّل تماماً الـ«بيتل» ذات اللون المخاطي، لكنني لا أمتلك أي فكرة عمّا قيل. ويوجد أمران آخران لم أنسهما.

أولهما أن «هنك» رآني هناك – خلف المجموعة وهو يتحدّث مع الفتى السكران ويده تمسك بحزم بيد «رايت» – ولم يتمكّن من وضع عينه في عيني، وهو أمر لم يسبق له أن حصل من قبل. وثانيهما، أن «رايت» لاحظت هي الأخرى، بعد فترةٍ قليلةٍ لاحقة، وجودي وأدركتُ أنني آخر شخص تريد رؤيتي، أرادت أن تنسى وجود شخصٍ آخر يسير في الجوار ويشبه «هنك» شبهاً تاماً. انفصلتُ عن المجموعة وتحوّلت إلى مسرب خلف الـ«بيتل»، ومن حسن الحظ أن «مونّيكندام» تعجّ بالمسارب. وبعد ذلك بنحو مئة متر، وضعت إحدى يدي على جدار رطب، وانحنيت وأفرغت كل البيرة والزلابية من جوفي. مضيت بعد ذلك أبحث عن درّاجتي لأعثر عليها أخيراً حيث بدأنا جولتنا على الحانات. وقد فرقع أحدهم الألعاب النارية بين قضبان الدولاب الخلفي. رفعت الدراجة إلى أحد كتفيّ وعدت سيراً إلى المنزل وأنا أنقلها بين الكتف اليمنى والكتف اليسرى. لعقتُ قطرات الماء عن الجرس لانتزاع الطعم الكريه من فمي. وتبدّل الوقت المتأخر من الليل إلى وقتٍ مبكرٍ من الصباح. ورذاذ المطر ليس أكثر من سديمٍ مصابٍ بوهم العظمة، غير أنه بقي مشبعاً مع بلوغي المنزل.

مضت أشهر قبل أن يأتي «هنك» أخيراً بـ«رايت» معه إلى المنزل. ارتدت مزرعتنا أجمل حلّة لزيارتها الأولى. إنه ذلك الوقت من السنة الذي تلاحق فيه الخراف المتلهّفة النعاج في الحقل المجاور للمزرعة، وتنادي طيور الهزار والرهيز على أسمائها وهي تدافع عن أعشاشها، وأخذت أشجار الصفصاف تبرعم، ويكاد الدردار المتقوّس في الحديقة الأماميّة يورق. إنه ربيع باللون الأخضر الفاتح تكاد تبدو معه كومة الروث نضرة. بقي الوالد متباعداً فيما رحّبت الوالدة بـ«رايت» بعينين رطبتين وذراعين مفتوحين.

التقيتها بضع مرّات منذ رأس السنة وشعرت في صحبتها بأنني أخرق وغير واثق. وهي بدورها ارتبكت في صحبتي والتزمت الصمت. أما وإنها ستصبح الآن في منزلنا فإنني لا أملك أي فكرة عن طريقة تصرّفي. وفي هذه المرّة الأولى بالذات أخذها

«هنك» إلى طاحونة «بوسمان» الهوائية، طاحونتنا. عادا ومعهما بيضة هزار، ولم تستوِ الأمور إثر ذلك أبداً بيني وبين «رايت».

والأسوأ أن الأمور بيني وبين «هنك» لم تستوِ هي الأخرى بعد ذلك أبداً.

ولاحقاً أمضت «رايت» أوّل ليلة لها في منزلنا. لا بد وأن ذلك حصل في وقتٍ ما من شهر آب/أغسطس.

أعلنت الوالدة في إحدى الليالي، ونحن حول طاولة المطبخ: «يجب الفصل بين الفحول والمهور». وهي الليلة السابقة لمبيت «رايت» المتوقّع.

«ماذا؟» قال «هنك».

«الفصل بين الفحول والمهور».

تطلّب الأمر من «هنك» التفكير لبرهة. «أولستما فحلاً ومهرةً أيضاً؟» قال بكل ما أمكنه استجماعه من براءة، مشيراً إلى الوالد.

زمجر الوالد.

نامت «رايت» في غرفة «هنك» وهو نام في غرفتي، على فراشٍ على الأرض. لم يمكنني التفكير في أي شيء أقوله، وواجهت صعوبة في التنفّس وهو أمر أرجعته إلى الحرّ الخانق. وقد فُتحت النوافذ على مصراعيها، وأزيحت الستائر، وسطع نور البدر في الغرفة مباشرة. غطّى «هنك» نصفه بالشرشف وجذعه عار ومائل إلى الأزرق. انقضى صمت طويل كاد يكون خانقاً كالحرارة، همس بعده بشيء لم استطع تمييزه.

«ماذا؟» قلت.

«صه!»

وهمست: «ماذا قلت؟»

«أنا ذاهب إلى الغرفة المجاورة».

وقلت بخدر: «إلى رايت؟»

«وإلى أين إذاً؟» وجلس مستقيماً، وضغط على ركبتيه ووقف. كان يرتدي سروالاً تحتيّاً كبيراً أبيض. سار إلى الباب كما لو أنه يمشي على بيض وفتحه رويداً رويداً. تطلّب الأمر وقتاً طويلاً ليغادر جسمه غرفة نومي ويعيد إقفال الباب من جديد.

من يومها وأنا أكره الليالي المقمرة. فالضوء المائل إلى الأزرق، الذي يدخل غرف النوم عبر الستائر القماشية أو المعدنيّة ولا يمكن إبقاؤه خارجاً، بارد حتى في الصيف.

لا، آتوني بطيور الماء، فهي ما أحب سماعه ليلاً. فلَغْوُها يطرد الفراغ، وهي ستلغو من جديد في السنة المقبلة، ولو أنها ليست نفسها، وستبقى تلغو بعد عشر سنوات من الآن، لأنه في الإمكان الاعتماد على طيور الماء.

٢١

جلست «رايت» إلى طاولة المطبخ، في بقعة «هنك» القديمة. ولا يمكنني القول من تعابير وجهها هل إنها تقصّدت الجلوس هناك. وأخذت تحدّق في الصفحة الأولى من الصحيفة إلى صورة لمجموعة من الأحصنة البولندية الصغيرة تقف على بقعة من الأرض محاطة بمياه الـ «فال»، في طقس جليدي ومطر يهطل عبر الحدود وقد غطّت المياه في كل مكانٍ مسارب الفيضانات والضفاف.

«أحصنة بولنديّة؟» قالت موجّهة كلامها للصحيفة.

قلت: «أتريدين القهوة؟»

عندها فقط رفعت نظرها. «من فضلك، نعم».

الشمس مشرقة، منخفضة وباردة، ولكن باللون الأصفر الدافئ. لم يسبق لي أن ذهبت إلى النمسا أو سويسرا، غير أنني أتخيّل الشمس على هذا النحو على منحدرات التزلّج. ألقت الشمس بكامل أشعّتها على آلة صنع القهوة ووجدت أنها تحتاج إلى أن أمسحها بقطعة قماش رطبة. أخذت وقتي، إذ ليس عليّ، وأنا أدير ظهري لـ«رايت»، أن أقلق على التعبير المرتسم على وجهي. رأيت من طرف عيني شيئاً يعبر أمام النافذة الأمامية.

صاحت «رايت» متعجّبة: «غراب أبقع!»

استدرتُ. لقد رجع الآن إلى غصنه القديم في الدردارة وهو يعيد ترتيب ريشه. رأيت مفاصل أصابع يدي القابضة على مسكة ركوة القهوة تصبح بيضاء. إنه وقت الضجيج الذي يصدر من الطابق العلوي. إلا أنه حافظ على الهدوء.

سألتها، وأنا أثير ضجيجاً أكثر مما ينبغي خلال تمريري ركوة القهوة تحت الفلتر: «هل سبق أن رأيتِ غراباً أبقع من قبل؟»

«مراراً كثيرة، بالتأكيد. في الدنمارك. فهناك كل الغربان تقريباً هي من النوع الأبقع».

«هل ذهبتِ إلى الدنمارك؟»

«بضع مرّات، في العطل». وفكّرتْ لبعض الوقت وقالت: «أربع مرّات».

«وكيف هي؟»

«لا أعرف كيف هي، بل فقط كيف كانت. لا بد أن ثمانية أعوام مرّت على آخر رحلة لنا إلى هناك. لم ترافقنا الفتاتان لأنهما شرعتا منذ سنوات في قضاء العطل وحدهما. كنا نحن ثلاثتنا فقط».

جلستُ، وكتفتُ ذراعيّ وتركتها تأخذ وقتها.

تطلّعت «رايت» إلى الخارج وقالت: «هل تذكر أعمدة الكهرباء الخشبية التي اعتدتم وجودها هنا؟»

«نعم، بالتأكيد». وشعرتُ بالحكاك المزعج في ساعديّ.

«لا تزال موجودة هناك ولكنها من الباطون. إنهم متأخرون عنّا بعض الشيء». واستمرّت في التحديق إلى الخارج، من دون أن ترى شيئاً. وأخذت المياه تفرقع في آلة صنع القهوة. «ذهبنا إلى هناك بالسيّارة في آب/أغسطس. أشعل المزارعون النار في أكوام القش، وكانت طيور السنونو على الأسلاك الكهربائية».

«السنونو».

«نعم. ولم يستوعب فيان الأمر. من ياترى يحرق القش! يا للخسارة!».

«لديه وجهة نظر».

«لا أعرف في هذا الشأن. اعتقدت وحسب أن السنونو على درجةٍ كبيرةٍ من الجمال. وقد تدلّت أسلاك الكهرباء إلى مستوى منخفض جدّاً». وشرعتْ في البكاء بصمت.

«ما الأمر؟»

«آه، إنني أكتفي بالثرثرة وأشعر بالغرابة هنا». وخبّأت وجهها بيديها.

«استرخي. ولنشرب بعض القهوة أوّلاً». نهضتُ وأتيت بأفضل فنجانين من خزانة المطبخ. ليس كوبين بل فنجانان، وهو ما كانت أمّي لتفعله. وسبق لي، في وقتٍ باكرٍ هذا الصباح، أن وضعت إبريق الحليب ووعاء السكر المتطابقين على الطاولة. سكبتُ القهوة في الفنجانين ووضعتُ ملعقةً من الفضة على كلّ من الصحفتين. رتّبتُ بعض البسكويت على طبق، ووضعت القهوة والبسكويت على الطاولة. ولولا الصقيع في الخارج لفتحتُ النافذة، فالغبار يطفو في أنحاء المطبخ.

«وأنا أشعر بالغرابة أيضاً» قلتُ وأنا أعاود الجلوس.

ابتسمتْ «رايت» وقالت: «كلانا يشعر بالغرابة».

شعرتُ بالدوار وبالوهم. خذوا الوالد على سبيل المثال، فلطالما كان كما هو الآن تماماً. رأيته في كل يوم من أيّام حياتي. وأخذ كل يوم يتقدّم في السن، سوى أن الأمر تم بالتدرّج لأننا تقدَّمنا بالسن معاً. وعندما أرى صورة لوالدي وهو شاب – كالصورة المعلّقة على جدار غرفة النوم فوق – أعرف أنه هو، لكنه مختلف عن الوالد الذي لي الآن. وأنا لم أعرفه حقّ المعرفة وهو شاب لأنني كنت عندها أصغر بكثير. كبر كلانا من دون أن نلاحظ ذلك. ولم أرَ «رايت» منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وهذا مريع، كما لو أنني أشاهد حلماً مزعجاً.

هذا ما أفكّر فيه، فما الذي تفكّر هي فيه؟ أشعر بالحاجة إلى محاكاتها وتورية وجهي بين يديّ. سألتها: «من الذي ترينه عندما تنظرين إليّ؟»

«هنك».

«أنا هلمر».

«أعرف. لكنني لا أزال أرى هنك».

سبق، قبل دخولنا إلى المطبخ، أن أريتها غرفة الجلوس الجديدة، فلم تحبّها. قالت: «إنها فارغة جدّاً.. ماذا حلّ بكل الصور؟» وكان الباب المؤدّي إلى غرفة النوم مقفلاً ولم أنوِ فتحه لها. «وماذا حلّ بالستائر وبالخوان وبكتب أمّك؟» ونظرتْ إلى نفسها في المرآة الكبيرة فوق رف الموقد واستخدمت كلتا يديها لتسوية شعرها بعض الشيء.

«آه، الأبقار». قالت ونحن نعبر إلى الزريبة. ارتدت الجينز. ولا يزال شعرها أشقر، ولم يمكنني القول، حتى تحت ضوء الشمس في المطبخ، إذا كانت تصبغه أم لا. وهو ليس مجعّداً على غرار معظم النساء اللواتي بلغن أواسط الخمسين. وهي

تسير ببعض التصلّب. واستحال عليّ كلّياً تصوّرها ربّة هذا المنزل: تصنع مكببات اللحم، وتركض وراء الخراف أو البقرات الصغيرة، وتحتضن «هنك» ليلاً في السرير، ويأتي أولادها للزيارة صباح أيام السبت، وأحد الاحفاد يتسلّق شجرة الدردار في الحديقة الأماميّة.

«كسرتُ ساقي منذ فترة طويلة،» قالت عندما لاحظتني أنظر إلى طريقتها في المشي «وهي تتصلّب في الطقس البارد».

أكانت تتزلّج؟ أهو حادث درّاجة؟ أو أرضيّة رطبة في زريبة الخنازير؟

«كنت أنظّف سقف المطبخ وزحل السلّم النقّال».

دخلت أشعّة الشمس عبر النوافذ المربعة، وهمهمت إحدى البقرات وقفزت قطّة جرباء هاربة. وهي قطّة لا أذكر أنه سبق لي أن رأيتها من قبل. أهي واحدة نجت من الإعدام بالسيّارة في الربيع الماضي؟

سألتها: «أي نوع من الحيوانات هي تلك الخنازير؟»

«ليست أبقاراً، بالتأكيد». وأسندت يدها على رزم خيوط البالات المعلّقة على مسمار ضخم. «الخنانيص لطيفة، لكنّها كلّما كبرت أصبحت أكثر قذارة».

«وتصبح عندها جاهزة للذبح».

«نعم، عندها تصبح جاهزة للذبح».

«وزوجك؟»

«ماذا تقصد؟»

«أيّ نوع من الرجال كان؟»

أطرقت للحظة. «كان محترماً. كان رجلاً محترماً».

«محترم؟»

«نعم».

سرنا إلى الباحة. وأحكمتْ «رايت» رفع ياقة معطفها. «ابنتاي امرأتان محترمتان. وربّما تُظهر برابنت ذلك في الناس، الاحترام».

«وابنك؟»

«ماذا لديك هناك!» صاحت «رايت» فجأةً وقد التقطت عيناها زريبة الحمارين. «لم يسبق لها أن كانت هنا. أليس كذلك؟»

«لا» قلت. «الحماران جديدان».

«حماران!»

سمعانا ووقفا بفضول عند السياج ورأساهما مرفوعان. ولمّا شاهدانا أخذت الحمارة في تحريك رأسها. وقد بقي النور مضاء طوال الليل.

سألتها، «هل تودّين إطعامهما؟»

«نعم، رجاء».

تناولتُ من الصندوق الموضوع على بالة التبن بعضاً من الجزر الشتوي وناولته لـ«رايت». أقحمت جزرتين دفعةً واحدةً عبر العوارض، فاختفتا سريعاً في فَمَيْ الحمارين. حككتُ آذانهما. وللحظة أحسّ الجميع بالسعادة. فقد رسّخَت أمراً فيه ما يريح، ويشعر كلاً منّا بأنه غريب.

سارت «رايت» من زريبة الحمارين إلى خم الدجاج. لوّحت بيدها إلى الصفصافات، ببعض من فارغ الصبر، ربما لتدعني أعرف بأن وسعها رؤية أنها شُذِّبت حديثاً. وبأن «هنك» هو من كان سيشذّبها لو سارت الأمور بشكلٍ مختلف. قالت، وهي تنعم النظر عبر الشريط: «اعتدتم هنا اقتناء دجاجٍ بنّي اللون».

«هذا صحيح، من فصيلة بارنفلدر».

«وهذه؟»

«هذه من فصيلة لاكنفلدر».

«انها جميلة. هل تبيض جيّداً؟»

«لا بأس بها، لكنها ليست بجودة البارنفلدر».

يؤدّي خمّ الدجاج حتماً إلى بوّابة الجسر. أسندتْ ساعديها إليها وحدّقت صوب الحقول المضاءة بشكلٍ لا يُعقل بسبب قشرة الثلج الرقيقة على العشب. والمياه تتبخّر من القنوات. وهمستْ: «طاحونة الهواء».

لستُ على الإطلاق في مزاج لذلك. استدرتُ وشرعت في السير صوب قاعة الحليب. فتبعتني بعد ذلك بقليل، وسمعتُ وقع قدميها غير المنتظم على الباحة المتصلّبة من الجليد. وأشرتُ الآن، بذراعي اليسرى، إلى حقلة الحمارين وقلت «يخرجان إليها في الطقس الجيّد». عبرنا قاعة الحليب إلى ملحق المطبخ. قطعتُ الطريق مباشرة إلى باب البهو، وتوقّفتْ «رايت» عند باب بيت الدرج.

سألتها «استأتين؟»

لم تُجب.

قلت محاولاً: «فكّرتُ في أنه يمكننا تناول غداء مبكر لنتمكّن بعدها من السير إلى المقبرة».

لم تُجب.

واستمرّيت في المحاولة، «ويمكنني بعدها إيصالك على الموعد إلى المعدية، قبل الحلب».

لم تُجب.

سألتها: «ما الأمر».

«أريد الصعود إلى فوق».

«إلى غرفة هنك؟»

«نعم».

فتحتُ الباب وسبقتها صعوداً، ثم فتحتُ باب غرفة «هنك». دخلتْ «رايت» إليها على غير توقّع. بقيتُ عند المدخل، فالمكان مكتظ في الداخل بحيث لا يوجد متسّع إلا لواحد منّا. جابت المكان بنظرها وجلست لبرهة على السرير.

وعند هذا الحدّ لم يعد في وسعي رؤيتها، فقد اختفت كلّياً تحت «هنك» وأفسح نور شمس كانون الثاني/يناير المجال لضوء قمر آب/أغسطس. علق سروال «هنك» التحتي عند ركبتيه وجسده يعلو ويهبط في حركة لا تبدو مناسبة لمن في سنّه. كدت أشمّ رائحته. إنه يحبس أنفاسه والنُقرة فوق شقّ مؤخّرته رطبة، ويدفع بها بشكل أعمق فأعمق على الفراش القديم، وتشكّل أوتار أخيل جزءاً من عمليّة الصعود والهبوط كما لو أن الحركة كناية عن موجة تأخذ بدايتها عند أصابع قدميه.

«... سريره؟»

«ماذا؟»

«أهو السرير الذي نام عليه هنك؟»

طرفت عيناي مرّات عدّة، فالعودة من ليلة آب/أغسطس الدافئة إلى صباحيّة كانون الثاني/يناير تستغرق وقتاً. «نعم».

«لم أعرفه. يوجد هنا الكثير من الخردة». بسطت يداها عند جانبيها على الشرشف – كما لو أنها لا تريد الوقوف أبداً من جديد – وتطلّعت عبر النافذة وقالت: «لا يزال هذا الغراب الأبقع هنا».

قلتُ: «هيّا بنا».

وقفتْ وغادرت غرفة النوم.

«غرفتي القديمة» قلت في شكل عابر وعلى درجة كافية من القوّة ونحن نتجاوز الباب الثاني. لاحظتُ المفتاح وحاولت أن أتذكرَ إذا كنت قد أقفلت الباب. «وهي الأخرى ملأى بالخردة». وأسرعت الخطى إلى الغرفة الجديدة وبابها مفتوح على مصراعيه، وتبعتني «رايت».

استندتْ إلى أحد الجدران وركبتاها متقوّستان قليلاً وسترتها مضمومة حول كتفيها. قالت: «وجهه في تلك المياه الباردة. وشعره يطفو جيئة وذهاباً أشبه بطحالب البحر».

٢٢

قالت: «لم يتغيّر شيء هنا على الإطلاق».

«البناء ممنوع».

«ولِمَ لا؟»

«لأن المنطقة تراثيّة».

ها نحن نسير عبر القرية إلى المقبرة. وصدف، قبل ذلك بعشر دقائق، أن روت «آدا» النباتات على حافة النافذة. وقد عبرت الشمس للتو أعلى نقطة لها، لكن ظلّينا لا يزالان يمتدّان أمامنا. قلت: «عليكِ العودة في أواخر الصيف. فهناك نوع من المسابقة التي تجري هنا منذ سنين».

«ماذا تقصد؟»

«من يمتلك العدد الأكبر من أزهار «الأورتنسيا» (كوب الماء) في حديقته

الأماميّة. ومن الأفضل أن تتلوّن بأكبر عددٍ ممكنٍ من الألوان. وهي في كل مكان، سياج من الأورتنسيا على امتداد نصف ميل. فالمرء لا ينتمي إلى هذا المكان إذا لم يمتلك أزهار الأورتنسيا».

«لا أحب الأورتنسيا».

تقع الكنيسة البيضاء في البعيد عند الطرف الغربي للقرية. شعرت بأنني تفوّهت بما يكفي، وأكملنا سيرنا بصمت. وبوصولنا، تجاهلتْ «رايت» الكنيسة وسارت وسط شجر الحور إلى الضفة «أ».

قالت: «تزلّجنا هنا في شتاء ١٩٦٦».

«١٩٦٧» قلتُ. «كانون الثاني/يناير ١٩٦٧».

«ذلك الشتاء، في الحالتين. فالشتاء يستمرّ دوماً من سنة إلى أخرى».

هي محقّة في ذلك. فالشتاء فصل لا يحدّ نفسه بالتقويم السنوي، بل إنه يمتطي السنين. ولم يتبقّ الآن أي جليد على الإطلاق ما عدا طبقة رقيقة منه ما بين القصب. تسابقت بطتان صوبنا، وقفزتا إلى الضفة أشبه بالبطريق. راقبتْ «رايت» البطّتين ببرودة وأعرضت عنهما. وعبرتْ الشارع وشدّت ببوابة المقبرة. واستمرّت في الشدّ إلى أن أصبحتُ بقربها، وسحبتُ المزلاج من وراء البوابة وفتحتها لها. ودخلتْ إلى المقبرة من دون أن تنبس ببنت شفة.

قلت، بوصولنا إلى القبر: «أعتقد أنّك ممتنّة للوالد الآن».

«ولماذا أفعل، بحق الله؟»

«لأنه من يجدّد الحقوق بالقبر كل عشر سنوات».

«هممم».

بدت لي «رايت» مثل ذلك النوع من الأشخاص الذين يمرّرون أصابعهم من فوق الأحرف. لكنها ليست كذلك. وجلست، بدلاً من ذلك، على مقعدٍ أخضر عند

الممر المجاور للكنيسة. أما أنا فتراجعت بضع خطوات إلى الوراء، ووقفت وظهري إلى الجدار البارد. ودسست يديّ في جيبيّ.

«لم أكن غاضبة من والدك،» قالت. «شعرت بالمهانة. أما لاحقاً، فشعرت بالتأكيد بالغضب واستمرّيت غاضبة».

نحن في ظل الكنيسة. وعندها فقط شعرتُ بأن الشمس تعطي الدفء.

قالت: «كان لطيفاً جدّا، يا هلمر».

أجبت: «أعرف ذلك».

«وجميل. كان شاباً وسيماً».

ستُعتبر موافقتي على ذلك قلّة تواضع منّي.

تطلّعتْ «رايت» إليّ ورأت «هنك». وقالت: «أنت رجل وسيم».

«آه».

«هذا صحيح. خذها منّي».

«أنت تقولين ذلك».

دُفنت أمّي مع «هنك». وشعرتُ بالفضول الشديد حيال ما سأراه. ولم أرَ شيئاً، بل مجرّد لوحة بيضاء، لوح خشبي على ما يبدو في قعر قبر ازداد عمقاً. تدفّق المطر خلال المأتم، وابل غيمة صيف، وتطاير الماء عالياً من فوق النعش، وتهدّلت الأزهار.

يدفنون الناس على ثلاثة أعماق في المقبرة، ولا يزال المكان يتسّع بالتالي لواحدٍ بعد. وتساءلتُ من الذي تراه «رايت» وسيماً، أنا أم الشاب الذي تراه فيّ. كما تساءلتُ هل إنها لاحظت أي أمر غريب في شأن شاهد القبر.

«ما الذي كنتما تتحدّثان في شأنه في السيّارة؟»

«قال هنك تمهّلي لمّا شاهد سيّارة آتية في الاتجاه المقابل. فتمهّلت ولكن

قليلاً. كان مدرّبي على القيادة ذكوريّاً حقيقيّاً وأبلغني أن عليّ إجبار من يقود في الجهة المقابلة على إفساح المجال. قال: عليكِ أن تفرضي مشيئتك من خلال الطريقة التي تتصرفين بها والنظرة في عينيك». وأخذتْ تزحل إلى الأمام وإلى الوراء على المقعد الخشبي.

«ما آخر ما قاله؟»

«ويحي، يا ويحي».

«ويحي، يا ويحي؟»

«نعم. الأمر أشبه بالقول، يا للحمقاء التي حازت للتو على رخصتها».

أمكنني سماعه يقول ذلك، فهذا يتناسب تماماً مع نمط «هنك وهلمر».

«حاول معلّم السواقة كذلك فرض إرادته عليّ أيضاً من خلال الطريقة التي نظر بها إليّ. ارتدى شعراً مستعاراً. وأنا بالطبع لم أجاره بالأمر».

وقلتُ: «بالتأكيد لا».

«هل تسخر منّي؟»

«كلاّ».

«دفعتْ شركة التأمين لوالدك لقاء السيمكا، أليس كذلك؟»

«نعم».

«حسن».

استندتُ إلى جدار الكنيسة البارد، لكنّني رأيت نفسي على جسر «شنينغوود»، لأنني شعرت بأنني منسي. كما شعرت عندها بأنني منسي أيضاً. فـ«رايت» كادت تكون الزوجة، وما أنا إلاّ الشقيق. وهي التي تتذكّر الأمور الآن وتروي قصّتها. ولم يسألني أحد شيئاً.

أخذت البطتان اللتان قفزتا من الماء تبطبطان مبتعدتين عند الجانب الآخر من الكنيسة، ربّما أمام البوّابة المغلقة. وقد غاب الخوف كلّياً عن طيور البط بسبب العدد الكبير من الناس الذين يجلسون في الصيف على العشب تحت أشجار الحور: درّاجون من أمستردام، مجذّفو القوارب، وأولاد من مدرسة الملاحة في «بروك». وهي تفعل أي شيء من أجل كسرة من الخبز. تعبر سيّارة بين الحين والآخروبدا كأن أحدهم استخدم الكابح، ثم انطلق مبتعداً من جديد.

سألتني «رايت»: «أتأتي في الغالب إلى هنا؟»

«أربع مرّات في السنة، في عيدي ميلادهما وذكرى وفاتهما».

«يمكنني، بالطبع، المجيء أيضاً. لم أفعل في البداية لأنني أُبعدت واعتقدت في قرارة نفسي أنكم لا تحتاجون إلى رؤيتي من جديد. وهذا تفكير صبياني. ولم آتِ لاحقاً إذ أصبح لدي فيان وأولادي، ولم أرغب بما يذكّرني بتلك الأيّام. أردت أن أصبح إنسانة جديدة».

«لا يمكن للمرء أبداً أن يصبح إنساناً جديداً».

«بالطبع يستطيع».

وها إن الحكاك يصيبني بين كتفيّ وكدت أدلّك نفسي على جدار الكنيسة أشبه بخروف عجوز يتآكله القمل في فصل الصيف.

هل تريد شيئاً؟ وما الذي تريده؟ هل تريدني أن اقبّلها؟ هل عليّ أن أتصرّف وكأنني «هنك»؟ أتريدني أن أقول لها إنها لا تزال امرأةً جميلة؟ أيفترض بي أن أطلب الزواج منها؟ أتريدني أن أسامحها؟

لا تزال جميلة، وليست واحدةً من مئات آلاف النساء المتقدّمات في السن اللواتي يتجوّلن بالقميص نفسه والسروال الذي يصل إلى الركبة والشعر المعالج كيماويّاً، والاحديداب المبكر، والأعين الغائرة، ويعبرن صيفاً على دراجاتهن من أمام

المزرعة مع أزواجهن، ويتمايلن على دراجاتهن المتينة والموثوقة ولو أنها رخيصة. وبغض النظر عن الاختلافات في قمصانهن وستراتهن فإنها تبقى دوماً القمصان والسترات نفسها.

تكاد قامة «رايت» تبزّني طولاً، ووجهها نسخة أقل صلابةً وأكثر ترهّلاً من وجهها وهي فتاة. ويمكنني أن أرى فيه بوضوح شديد «رايت»، التي كانت منذ فترةٍ طويلةٍ جدّاً نصف محتجبة وراء رأس «هنك» في الحانة في «مونّيكندام»، والتي ربما فكرت في ذلك الحين أن لحبيبها شقيقاً توأماً يشبهه تماماً، وكيف يفترض بها أن تتعامل مع ذلك؟ وهي لم تتعامل مع الأمر في الأشهر الثمانية عشرة التي سبقت موت «هنك». احتفظتْ، في ارتباكها، بمسافةٍ صامتة، وتحاشت النظر إليّ وتأكّدت من عدم وجودنا نحن الاثنين أبداً لوحدنا معاً.

ترافقت هديّتها لي، في الخامس من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦ في عيد القديس نقولا، بالقصيدة التقليدية، لكنها كتبت شيئاً مبتذلاً وغير شخصي بحيث وجدتُ صعوبةً في كبح دموع الإشفاق على الذات التي انتفخت في عيني. وقمت، أشبه بطفلٍ منزعجٍ، بقراءتها على الآخرين بصوتٍ مرتفعٍ والرزمة في حضني. لاحظ الوالد – بما أنه يرى في عيد القديس نقولا مثل هذه المناسبة اللطيفة ـ وشدّد على الأمر بعض الشيء بغمز «رايت» وقوله لها إنني متعوّد على أمور أفخم وإنني، «هناك في أمستردام»، أتعلّم كيفية كتابة قصائد ملأى بالكلمات الطويلة والصعبة. وهو لم يحظ أبداً بأي إدراك في هذا الشأن.

ونظرت «رايت» إلى قدميها وقالت: «بدأت أشعر بالبرد».

«فلنذهب إذاً إلى المنزل».

نظرَت مرّةً أخرى إلى شاهد القبر، ورأيت على وجهها السؤال الذي توقّعت سماعه في وقت أبكر بكثير. «أين دُفن والدك؟»

أصاب الهواء الجليدي وجهي بالصقيع فقلت: «أحرقناه، ونثرنا رماده».

لا توجد سوى بطّةٍ واحدةٍ فقط تقف عند البوّابة. فقد تعرّضت الأخرى للدهس، ولا يزال البخار يتصاعد من بدنها الدافئ. هكذا تسير الأمور، تكون في لحظةٍ حيّاً تُرزق وتشتهي كسرة من الخبز، وتصبح في اللحظة التالية ميتاً. ارتعشتْ «رايت» وهي تعبر من فوق البطة النافقة التي دفعتُها برجلي إلى طرف الطريق. وتهادى ما تبقى من البطّ إلى الماء وهو يوقوق بصوت مرتفع. وبمرورنا في طريق العودة بالمدرسة، كان أحد الصفوف يغنّي. خمسة عشر، أو ما يقارب ذلك من التلامذة يغنون وقد استداروا بتركيز تام إلى المعلّمة. لا أعرف الأغنية التي كانوا ينشدونها فتوقّفتُ برهةً للاستماع. وتابعتْ «رايت» سيرها من دون أن تلقي أي نظرة، فكدت اضطرّ إلى الركض للحاق بها قبل منعطف الطريق.

تعوّدنا، عندما تبقى «رايت» على العشاء، أن نأتي بكرسي من غرفة نوم الوالد والوالدة، نضعه بجانب كرسي والدتي عند الجهة الطويلة من طاولة المطبخ. وها إن «رايت، سواء عن قصد أو عن غير قصد، قد أزاحت كرسيها بعض الشيء صوب أحد الجوانب، إلى زاوية الطاولة تقريباً، قبل أن تجلس عليها. دقّت ساعة المطبخ، وقالت: «المكان هادئ للغاية هنا».

أخذنا نرتشف الشاي، وكاد يحين موعد إعادتها. فهل تتخيّل مشاهد حيّة؟ أولاداً أو أحفاداً؟ كراسي مرتفعة، ورق جدران مختلف، مطبخاً حديثاً؟

سألتني: «كنتَ الأكبر سنّاً، أليس كذلك؟»

«نعم».

«لم أتساءل عن السبب إلا لاحقاً، عندما مات ورحلتُ بعيداً..».

«نعم؟»

«لماذا وقع اختياري على هنك. أقصد ما الذي يجعل الأمور تحصل بالطريقة التي تحصل بها؟»

«هنك هو الذي اختارك». ها هي تضايقني من جديد. ومن المؤكّد الآن، بعد ذلك بأربعين عاماً، أنها لن تدّعي بأنها كانت مسيطرة على كل الأمور؟

نظرتْ إلي ورفعت كوب شايها. وهو كوب محترم من الخزف الصيني. «كما إنني فكّرت كذلك لاحقاً، لماذا أصبح هنك المزارع ما دمت أنت الأكبر سنّاً؟»

«ذهبتُ للتزلّج مع أمي وعامل المزرعة، واهتم هنك بالحيوانات الصغيرة».

«ماه؟»

«كثيراً أخذ هنك، بطريقة من الطرائق، زمام المبادرة. فهو أسرع منّي، ولدي فكرة بأنه كان أفضل منّي مع الحيوانات، بالرغم من أننا قمنا دوماً بالعمل معاً. رأى الوالد ذلك وأصبح هنك، منذ البداية تقريباً، فتاه».

«لكن، ألم تشأ أن تصبحَ مزارعاً؟»

«لا أدري. لطالما تركتُ الأمور تحدث». لاحظتُ الآن، وقد سألتْني في النهاية عن أمر ما، كم أنني محجم عن الجواب. وأجبرت نفسي على المتابعة. «وأنا من جهتي لم أقل أبداً شيئاً. ولم اشتكِ أبداً».

«ولم يعد لديك بعد مماته من خيار».

«كلاّ، لم أمتلك أي خيار».

«وكان العامل عندها قد غادر؟»

«نعم، قبل ذلك بستّة أشهر».

«و؟»

«ماذا؟»

«هل أحببت الأمر؟»

يا إلهي، كما لو أنها سألتني عن مجرى حياتي. تطالبني بتقديم بيانٍ عن الحياة

التي افترضت أن تكون لها مع «هنك». وستطلب لاحقاً الاطلاع على الحسابات. وليس أي من هذا من شأنها، وبخاصة ليس كيفيّة شعوري حيال الأمور. لماذا هي هنا؟ ما الذي تأمل في إيجاده؟ «نعم،» ردّيت بعنف.

وضعَتْ كوب الشاي بهدوء على الصحفة. وقالت، «هذا حسن». وامتلأت عيناها ببطء جديد بالدموع وأشاحت بوجهها. تطلّعتْ لفترة طويلة من جانب النافذة إلى مزرعة «آدا» و«ويم». وتنهّدتْ من ثمّ بعمق ووقفت. يبدو أن الزيارة انتهت.

هممنا بالدخول إلى الـ«أوبل كاديت» عندما جاء «رونالد» مهرولاً إلى الفناء. وصاح، «انتظرا!»

وانتظرنا.

قال، من دون أن ينظر إلى «رايت»، «جئت لأريك يدي».

قلت: «أرنيها، إذاً».

«ألا يمكنك رؤيتها؟»

«أريد رؤيتها على قرب».

كاد «رونالد» يدفع يده في وجهي. والجلد الجانبي تحت الخنصر وردي وباهت ومشدود.

«هل ما زالت تؤلمك؟»

هزّ كتفيه وقال: «لا. لقد انتزعنا الضمّادة لأن البرد جيّد لها».

«هل قالت أمّك ذلك؟»

«نعم». ونظر للحظة من ورائي إلى الجانب الآخر من السيّارة حيث تقف «رايت» منتظرةً. وسأل: «من هي؟»

«إنها رايت».

«من أين هي؟»

«برابنت».

«برابند؟»

«برابنت. على مسافةٍ بعيدةٍ من هنا».

« ولماذا هي هنا؟»

«اسألها، فلن تعضّ».

نظر إليّ ببراءة.

«اعتدتُ المجيء كثيراً إلى هنا» قالت «رايت». «وقد جئت الآن لإلقاء نظرة على المكان».

«أوه،» قال «رونالد» وهو يحدّق في بطني.

«كنت سأتزوج من شقيق السيّد فان فونديرن».

«هاه؟»

قلتُ: «هذا أنا».

«ألديك شقيق؟» سأل وقد أخذته الدهشة.

«كلاّ، لم يعد لديّ أخ».

«أوه».

«لكنني الآن عائدة إلى المنزل، بالقطار».

«هل ستوصلها؟»

«نعم، إلى المعدية في أمستردام».

«وهل ستعاود المجيء في وقتٍ آخر؟»

«لا أدري. هل ستعاودين المجيء في وقتٍ آخر؟»

«ربّما» قالت «رايت»، وركبت في السيّارة وأغلقت الباب.

«نحن ذاهبان» قلت لـ«رونالد».

«حسناً» قال. واستدار وسار مبتعداً. وما كاد يبلغ الجسر حتى استدار من جديد. سيقوم بمحاكاة «تون»، وأدركتُ أن الأمر سيحصل. صرخ: «أين والدك؟»

«فوق» قلت مشيراً بأحد أصابعي إلى السماء.

٢٣

«فوق» قالت «رايت» بعدما ركنّا السيّارة قبالة كشك رقّاقات البطاطا.

قلت: «نعم».

«يا لمتعة كون المرء طفلاً».

«نعم».

«لا بدّ أنه مات منذ فترة قريبة».

«نعم، ليس من وقت بعيد».

مضى بعض الوقت ونحن متوقفان أمام كشك رقّاقات البطاطا. لم تغب الشمس بعد، لكنّها أوشكت على المغيب، ولا يمكنني رؤيتها إذ تحول محطة القطار دون ذلك. الاكتظاظ أكبر مما كان عليه هذا الصباح، فالناس يعودون إلى منازلهم في الاتجاهين. ولولا عمل المعديات ولولا إبحار بوارج نهر الراين ومراكب النزهة

لحافظت مياه «الإيج» على سكونها التام. شاهدتُ في البعيد المباني المرتفعة في مكانٍ أذكره خالياً. أصابني الجانب الآخر بالخوف. والجانب هنا يخيفني بدرجة أقلّ لأنني أعرف تمام المعرفة الطرق التي عليّ أن أسلكها للابتعاد بأسرع ما يمكن. لم تُظهر «رايت» أي دلائل إلى أنها تنتظر للخروج. فحتى الحقيبة على حضنها ليست نموذجيّة لامرأةٍ في سنّها، على عكس طريقة حملها لها بقبضتيها.

قالت «رايت»: «يشكّل هنك نوعاً من المشكلة».

«يشكّل؟»

«لا يفعل شيئاً. مضى عليه ستّة أشهر الآن وهو قابع في المنزل. وليس لديه حتى أي أصدقاء».

«يفعل؟ ليس لديه»؟

«يكتفي أحياناً بالتمدّد في السرير ومن ثم يرحل فجأة. ولا أملك أي فكرة عمّا ينوي فعله».

«رايت، ما الذي تتحدّثين عنه؟»

«هنك».

«أي هنك؟»

«ابني».

«هل اسم ابنك هنك؟»

«نعم. ألا تعرف؟»

«وكيف لي أن أعرف؟»

«ما يزعجني أكثر ما يكون هو تمدّده على ذلك الشكل في السرير».

«هنك؟ سمّيتِ ابنكِ هنك؟»

«ولِمَ لا؟»

«وما كان رأي زوجك في الأمر؟»

«لا شيء. اعتقد فيان أنه اسم جيّد. يوجد هنك في عائلته أيضاً. قال إنه اسم قصير وسريع».

صدم درّاج عابر المرآة الجانبية، واستدار قليلاً رافعاً يده علامة الاعتذار.

«كنت أفكّر، هل يمكنه المجيء والبقاء معك لبعض الوقت؟ أقصد العمل معك».

«أهذا ما أرادت طلبه منّي؟ معي؟»

«نعم. لديك حيوانات، أبقار ونعاج ودجاج. أعتقد أن الحيوانات ستعود عليه بالفائدة. وأنت وحدك، ربما أمكنك استخدام أحدهم كعاملٍ في المزرعة».

كعاملٍ في المزرعة. نسيَتْ أن تشير إلى الحمارين.

«سيعود عليه ذلك بالنفع. العمل، النهوض باكراً، والإيواء إلى السرير باكراً، الانتظام. وكذلك الهواء المنعش بالرغم من أنه يحصل، بالتأكيد، على كفايته منه في المنزل».

«حقّاً؟» قلت. «مع كل تلك الخنازير؟»

«هذا صحيح» قالت «رايت». «الرائحة أفضل هنا».

«وما رأيه بالأمر؟»

«إنه لا يعرف به».

«ومتى فكّرتِ في الموضوع؟»

«آه، منذ حوالى الشهر».

لم يعد هناك أي انعكاس ظاهر لنور الشمس في أي مكان، ليس على المياه ولا

على نوافذ المباني المرتفعة. يحل الظلام سريعاً والسماء فوق محطّة القطار تتحوّل إلى البرتقالي. أفلتت «رايت» حقيبتها لتفتح بابها.

سألتني: «هل ستفكّر في الموضوع؟»

أجبت: «بالتأكيد».

نظرتْ من فوق كتفها للتأكّد من عدم وجود مشاة، وفتحت الباب. تردّدت. «لقد خسرته» قالت. «يبدو، عندما ينظر إليّ، كأنه يتطلّع إلى شخصٍ غريب». انحنت صوب اليمين استعداداً للخروج من السيّارة التي دخلت إليها موجات من الهواء البارد. ثم عادت ومالت إلى اليسار وقبّلتني على خدّي. وقالت: «شكراً».

راقبتها ترحل. وقد شعرتُ، من الاستجواب الذي أخضعها له «رونالد» من خلالي، أنني سأراها مرّاتٍ أكثر. وها أنا أظن أنني لن أراها أبداً من جديد. جرّت ساقها بعض الشيء، من دون النظر إلى الوراء، واختفت وسط المشاة والدرّاجين. إنها تعبر المرفأ، وسرعان ما ستصبح في الجانب الآخر مع مئات الأشخاص الذين سيسافرون جميعهم في شتّى الاتجاهات، ومع الألوف الذين سيستقلّون قطارات مختلفة تنقلهم إلى كل أرجاء البلاد. لا يُمكن رؤية شيء في الخارج بسبب الظلام الذي عمّ. فما الذي ستفعله؟ هل تقرأ؟ أو تجلس هناك بهدوء وتفكّر؟ أو تتحدّث إلى الأناس الجالسين قبالتها؟ لا أعرف. وقبل إشعال محرّك السيّارة، مرّرت يدي على خدّي ونظرت إلى أصابعي.

أرخيت رأسي أكثر من العادة على خواصر البقر وأنا أحلبها حتى بعدما أصبحت كؤوس الحلب في أماكنها وشرع الحليب يتدفّق بسلاسة في الأنابيب بإيقاع هادئ. لن أقف أبداً في حفرة حلب مبلّطة بالأبيض مرتدياً مئزراً بلاستيكيّاً فيما يتم حلب عشر أو اثنتي عشرة بقرة معاً؛ ولن أحظى أبداً بحظيرة صغيرة حرّة أنشر فيها نشارة الخشب بدلاً من القش؛ وسيتسمرّ منظّف البواليع هنا في العمل كالمكّوك ذهاباً وإياباً وستستمر كومة الروث في النمو كل يوم إلى أن أنشر السماد بمفرشة القمامة

المتداعية؛ لن تعمل امرأة مطلقاً في هذا المطبخ في كل يوم، أو تعلّق مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع الغسيل على المنشر عند شريط العشب على مقربة من حديقة الخضار. وهنا أخذ رأسي يتحرّك بتناغم مع تنفّس الأبقار، وهو ما يشعرني بالطمأنينة والأمان، ولكن أيضاً بالفراغ.

فكّرت في أسلاك الكهرباء المتدلّية حتى علوّ منخفضٍ تحت وزن مئات طيور السنونو. وفكّرت في عامل المزرعة الذي شاهد طيور السنونو في الدنمارك.

«خردة قديمة» قال الوالد بسخطٍ عندما أخذت له، بعد الحلب، ما يأكله.

«أتُجادل في الأمر؟» سألته وأنا أشير إلى البندول وإلى الصور على الجدار وإليه.

«عاد ذلك الغراب إلى شجرة الدردار».

«رأيته».

«كيف كان الأمر؟»

«لا أعرف بعد».

«لا تعرف بعد؟»

«لا».

«ماذا كنتما تفعلان في الغرفة الجديدة؟»

«نتحدّث».

«بأي خصوص؟»

«ألم يمكنك سماعنا؟»

«لا».

مرّ زمن طويل منذ أن طرَحَ هذا الكمّ الكبير من الأسئلة. «رايت» في باله، ولا بدّ

أنه قضى النهار بأكمله يفكّر في الأيام الخوالي. تخيّلته ممدّداً هنا صامتاً كالفأر، لا يتنفّس إلا عند الشروع في الحديث في الجانب الآخر من هذا الباب، ومرهفاً أذنيه عندما نبتعد ونحن نتحدّث. هل يشعر بالوحدة؟ هززت رأسي فأنا لا أريد التفكير في أمورٍ كهذه. ورغم ذلك، بدا هذا النهار أشبه بمباراة يختبئ أحد لاعبيها: «رايت» في مواجهة آل «فان فونديرن».

أغلقت الستائر. «آه، هناك أمر آخر» قلت عرضاً، على قدر ما أمكنني الأمر، «لقد أُحرقتَ ونُثر رمادك».

ضحك مُرغماً. «ذهبتما إلى المقبرة».

«نعم، وكان اسمك غائباً». هل سبق وتمازحتُ معه بهذا الشكل من قبل؟ حدّقت بنمط الرسوم على الستائر، وأنا عاجز عن تذكّر أي مناسبات.

عاد فجأة إلى جدّيته. «أنا متّسخ».

«ربّما أنت كذلك».

«أين نثر رمادي؟»

«لا أدري. في الحقول، وراء خم الدجاج، تحت شجرة الدردار».

أفلتُّ طيّات الستائر واستدرت. لا تزال عيناه دامعتين من الضحك، أو اعتقدت ذلك. وهو يحتاج بشدّة إلى الحلاقة، وقد تحوّل غطاء الوسادة الأبيض إلى الرمادي.

«ما السبب الذي دفعها إلى المجيء؟»

«هكذا». وسرت نحو الباب. ولما أطفأت النور خطر لي جواب أفضل. «كلا، ليس هكذا. جاءت لمقابلة عمل».

ونزلت الدرج وأنا أبتسم.

٢٤

أنا آخر آل «فان فونديرن». يوجد الكثيرون غيري طبعاً، ولكن من فروع غير فرعنا. تعوّدت رؤية اسم لاعب كرة القدم «كيز فان فونديرن» في صفحات الرياضة. وهو، على ما أظن، في نادي «فيينورد»، وقد نشرت مرّة إحدى صوره. اعتقدت أنني أشبهه، بالرغم من أنه يصغرني بثلاثين عاماً على الأقل. كان لجدّي «فان فونديرن» أربع شقيقات، تزوجّن جميعهن ورُزِقن بالأولاد. ولوالدي، أو كان له، عدد من العمّات. ولديّ، أو كان لديّ، العدد نفسه من عمّات الوالد، بل وعدد أكبر من أولادهن الأنسباء، ولم يُدع أي منهم «فان فونديرن». وأنا لا أعرفهم، فوالدي وُلِد وحيداً. و«هنك» – الذي دُعي على اسم جدّي «فان فونديرن» – قد مات. وأنا لست متزوّجاً، وستنقرض العائلة من بعدي.

إنها تمطر، والجليد الثاني لم يعمّر طويلاً، وقرأت في الصحيفة أن ثلاثة متزلّجين على الأقل قد غرقوا. سرت إلى البحيرة الكبيرة ومزلاجيّ بيدي لاكتشف أنها شبه مجلّدة. لم أجرّب الجليد، ولا أريد أن ننقرض. منذ يومين وعين سائق الصهريج الشاب اليسرى مغطّاة بضمّادة مستديرة. دخلت شظيّة في عينه وهو يصقل إطار إحدى النوافذ بورق الزجاج تمهيداً لأعمال الطلي التي يقوم بها في المنزل. بقيت الابتسامة تعلو وجهه، ولو كانت ملتوية بعض الشيء. غادرتُ قاعة الحليب بأسرع مما أنوي؛ وأثارت رؤيته على هذا الشكل غصّة في حلقي وخشيت أن يسمعها لو استمرّيت في الكلام. والبارحة قاد تاجر المواشي شاحنته إلى الساحة. وقف في المطبخ يفرك لبعض الوقت رجلاً فوق رجل، ثم غادر من دون القيام بأي تجارة. وجاء البيطري لمعاينة بقرة صغيرة، وأفرغ حقنتين ضخمتين في كفلها وقال إنها ستتحسّن، وقمت بفصلها عن غيرها.

مضت عليّ بضعة أيّام وأنا أنظر في أنحاء المطبخ متسائلاً هل يجب أن أقوم

بأعمال الطلاء هنا أيضاً. وينتهي مسحي في كلّ مرّة عند الغراب الأبقع في شجرة الدردار، وأعود بأفكاري إلى عامل المزرعة. شرعت في التفكير فيه بوصفه «هنك الصغير»، واتصلتْ «رايت» هاتفيّاً تسألني إذا كنت فكّرت في الموضوع. «نعم،» أجبتها «ولكن ليس كفاية». لم يسبق لي أن حصلت على عاملٍ في المزرعة، فأنا أيضاً كنت عاملاً لدى والدي. يطير الغراب، بين الحين والآخر، إلى مكانٍ ما، وينقض دوماً بعض الشيء صوب الأسفل (كما لو أنه يختبر جناحيه)، قبل أن يشرع في الطيران.

لم تظهر «آدا» مرّةً إلا اليوم في مطبخي، بعد خمسة أيام على زيارة «رايت». إنه يوم سبت، و«تون» و«رونالد» يلعبان كرة القدم، وقد انتهت عطلة شتاء فرق الصغار.

«هلمر! يا للروعة! كيف كان الأمر؟»

«كان غريباً» قلت.

«ما هذا الجواب؟ امرأة أخيك!»

«كلا. من كانت ستصبح امرأة اخي».

«وإن يكن». تتصرّف «آدا» كما لو أن «رونالد» لم يخبرها بشيء عن «رايت». «شاهدتكما تسيران، وقلت في نفسي، يا لها من امرأةٍ جميلة».

«نعم، لا تزال جميلة».

«هل تحمّس والدك للأمر أيضاً؟»

«تحمّس جدّاً».

«وما رأيه في ذلك؟»

«ليس كثيراً».

«آه، لا تستهن بالأمر إلى هذا الحد. يمكنني القول من أساريرك إنك استمتعت به!»

قلت: «وضعتْ بسمة على وجهه». وضعتُ عيني في عين «آدا» فأشاحت بوجهها بعد بضع ثوان. إنها أكثر تحفّزاً من العادة، ومثارة.

«ما الأمور التي تحدّثتما فيها؟»

«ما من شيء خاص، الأيام الغابرة، وزوجها الذي توفّى العام الماضي، ابنتاها، والحبيب الذي كانه «هنك»، والحماران والدجاج».

«هل ستعاود المجيء في وقتٍ من الأوقات؟» تبدّل صوتها أيضاً، وارتعش. وكان يمكنني رؤية علامات التعجّب.

«ربما. هذا ما قالته لرونالد قبل أن تستقلّ السيّارة».

احمرّ وجه «آدا». هذان ليسا بخدّين أحمرين جراء الانشغال وعمليات التنظيف التي تقوم بها في الربيع. قالت: «رائع».

توجد ساعة قديمة تعمل على الكهرباء بين النافذة الجانبية وخزانة المطبخ. ميناؤها بنّي وصندوقها برتقالي وعقاربها بيضاء. أزّت الساعة بهدوء، بصوت لا يكاد يُسمع، في ذلك اليوم الذي جاءت فيه «رايت» إلى هنا، وقد سمعتها تئزّ. ولا أذكر أبداً أنني سمعتها من قبل. وها هي تئزّ الآن بصوتٍ أقوى من أي وقتٍ مضى. ربما شارفت على نهايتها.

قلت: «لم تأتِ إلى هنا من أجل نفسها».

«ماذا؟»

«ما إن بلغنا المعدية، حتى شرعت في الحديث عن ابنها بدلاً من الترجّل من السيّارة».

«ابنها؟»

«ابنها هنك، وهل يمكن أن يأتي ويعمل عندي».

«لماذا؟» وعاد اللون الطبيعي إلى وجهها، وأشرقت.

«لا يفعل شيئاً في المنزل. ليس لديه عمل، ويمضي الكثير من الوقت في السرير، ويختفي أحياناً».

«لماذا؟»

«لست أدري. سألتني رايت إذا كان في وسعي استخدامه عاملاً في المزرعة».

«رائع!» صاحت «آدا».

«رائع؟»

«نعم! فقد اضطررتَ إلى القيام بكل شيء بنفسك منذ اعتلال والدك».

«يمكنني القيام بذلك بسهولة، ولا عمل له هنا».

«أَوَليس من المؤكّد أن عملكما معاً سيجلب الكثير من التسلية؟ هناك بالتأكيد عمل له. خذ حظيرة العجول مثلاً، فقد حان وقت طلائها من جديد بمادة حفظ الأخشاب. شخصان للحلب، وأنت ستنشغل بعد بضعة أشهر بالنعاج».

«لدي عشرون نعجة».

«وإن يكن. ستقدّم في الوقت نفسه مساعدة للفتى. ولرايت؟»

لفظتْ اسمها وكأنها تعرفها من سنين.

قلت: «همممم».

«هل ستقوم بذلك؟»

«سأعطي الأمر مزيداً من التفكير».

«هل هي تريد أن تأتي أيضاً وتقيم هنا؟» بذلت جهدها لتبدو عفويّة.

«بالطبع لا» قلت.

«أنا أسألك».

«لا، لا أعتقد ذلك، لم تقل شيئاً في هذا الخصوص».

استدارت «آدا» للتحقّق من الساعة، ووقفت. «يجب أن أقلّ الصبيين من ملعب كرة القدم».

«هل خسرا بطلهما؟»

رمقتني بنظرةٍ متحيّرة.

«جارنو كوبر؟ هل رحل؟»

«آه، جارنو كوبر، لقد رحل، نعم».

رافقتها عبر ملحق المطبخ.

«لا بد وأنها أحبّت شقيقك حبّاً عميقاً» قالت «آدا» وهي تفتح الباب المؤدي إلى قاعة الحليب.

«كي تسمّي ابنها هنك؟»

«نعم».

«إنه اسم شائع إلى حدّ ما».

«الوداع يا هلمر. بلّغ تحياتي لوالدك عنّي، هل تفعل؟»

«سأفعل».

راقبتها تتجاوز الخزّان وتخرج من قاعة الحليب. يوجد أمر يتعلق بالكهولة في الطريقة التي تمسك بها بظهرها، أمر لم يسبق لي ملاحظته من قبل.

أول ما فعلتُه لدى دخولي غرفة نوم والدي هو تبليغه تحيّات «آدا»، ثمّ ساعدته

في قضاء أموره. أجلسته على المرحاض وسألته إذا كان يريد الحلاقة قبل حمّامه أو بعده. قبله، قال، وهو يريد القيام بذلك بنفسه. انتزعتُ المرآة الصغيرة عن جدار البهو ووضعتها على المغسلة بحيث يستطيع رؤية نفسه وهو جالس على المقعد البلاستيكي. استغرق الأمر دهراً: يداه ترتجفان ويجد صعوبة في تسوية التجعّدات في عنقه واستخدام الموسى معاً. غسلت جسمه وعمدت إلى دفق كمّية كبيرة من الشامبو على شعره. وسألته، بعدما نظف، إذا كان بإمكانه البقاء جالساً على المقعد. وهو يستطيع ذلك طالما يشبك يديه بقوة على ركبتيه ويحني ظهره على الجدار المبلّط. صعدت إلى غرفته وعرّيت السرير وأعدت فرشه ببياضات نظيفة وبغطاءين للوسادتين. ضبطت نفسي أصفّر وأنا أقوم بذلك. سرت، قبل نزولي إليه، إلى النافذة ونظرت إلى الغراب الأبقع. وقلت له بعدما رأيته يتابعني بعينه، «نعم، أتمنّى لك حظّاً طيّباً». وبعد فترةٍ قصيرةٍ كان والدي قد عاد إلى السرير بشعر مسرّحٍ ذي رائحة منعشة.

قال: «أريد بعض الخبز المحمّص الطازج».

«أتستدير في فراشك أحياناً؟»

«استدير؟ ولمَ أفعل؟»

«إذا استمرّيت في الاستلقاء على ظهرك ستصاب بالخُشار وتضطرّ عندها للانتقال إلى المستشفى، وما إن تصبح هناك حتى ينتهي الأمر، ولن تعود منه».

«هكذا؟»

«نعم»

«في بروميرند؟»

«ماذا في بروميرند؟»

«المستشفى».

«إذا شئت».

«هراء،» قال وهو يغمض عينيه.

لكني سمعت، قبل أن أردّ الباب، حفيف الأغطية الجديدة.

٢٥

غريب ما أثرته من ضجّة حول كوني آخر آل «فان فونديرن». فأنا من دون زوجة أو أولاد، ومع والدٍ عاجزٍ لا يهدر أبداً كلمة واحدة عن العائلة في حضوري، ولا أتوقّع من نفسي أن أشعر بالعاطفة حيال من هم من لحمي ودمي. أهي المزرعة؟ مزرعتنا؟ مجموعة من المباني والحيوانات والأرض، لم أشأ ان تربطني أي علاقة بها، كيان فُرض عليّ لكنه أصبح في شكل تدريجي جزءاً منّي؟

وُجد بجانب حقلة الحمارين كوخ ريفي صغير كان سيصبح منزل «هنك» و«رايت» بعد زواجهما. توجّب في البداية رحيل عامل المزرعة، على أن يرزق «هنك» و«رايت» لاحقاً بالأولاد مؤلّفين عائلةً ستصبح أكبر من الكوخ وينتهي بهم الأمر بالانتقال إلى بيت المزرعة. تم التخطيط المسبق لكل شيء: وفرشت والدتي الكوخ بالفعل في ذهنها. تم تأجيره، بعد رحيل العامل، إلى أناس من أمستردام يقصدونه فقط في الأعياد ونهايات الأسبوع. ولمّا أصبحتُ في الثلاثين، قرّر والدي بيعه، فعارضت أمّي: «من يعرف،» قالت مع نظرة جانبيّة في اتجاهي. احترق الكوخ ليلة يوم سبت من خريف ١٩٨٧ بعدما جاء إليه الأمسترداميّون لقضاء عطلة الأسبوع، وذلك قبل نحو ثمانية أشهر على وفاة والدتي. ولا يزال من الغريب رؤية شجرة

المغنوليا الكثيرة العقد تزهر كل ربيع في الحديقة المغطّاة بالنبات. ولا يزال أحد الجدران الجانبيّة واقفاً لكنه لن يستمرّ طويلاً هو الآخر، إذ تريد مصلحة الغابات شراء الأرض.

أسفتُ لرمي سريري في نار رأس السنة. «أتريد سريراً آخر؟» سأل المساعد المرح في المتجر عندما ذهبت بحثاً عن سرير رخيص من خشب الصنوبر. «نعم» قلت، «سرير آخر». وهل أريد معه فراشاً؟ كلاّ، لا أحتاج إلى فراش. ولم تخدمني في المتجر الآخر الشابة ذات الضفيرتين السوداوين، بل امرأة أكبر سنّاً تبدو متعبة. اشتريت لحافاً ريشيّاً مفرداً وملحفتين وملاءتين متلائمتين بيضاوين، وكلّها في التنزيلات. لم أعطِ بالاً للألوان أو الأنماط. وابتعت، بعدما رضيت بمشترياتي، رطلاً من الأنقليس من معمل التدخين. أخرجت أطراف السرير الطويلة من زجاج السائق الأمامي وزجاج المقعد الخلفي لجهة اليسار وحاولت بلوغ المنزل بسرعة متساوية من دون أن أسرع أو أتوقّف بقوّة.

فتحت النافذة قبل الشروع في العمل وفرشت الصحف على السجّادة الزرقاء. جلبت جهاز الترانزيستور من المطبخ إلى فوق، لأن العمل في الطلاء بينما الراديو يشتغل أمر لطيف. وعندما أطلي في الخارج صيفاً أشعل الراديو دوماً على إذاعة سباق فرنسا للدراجات. ولا يهمّني من يربح أو يخسر، فالتعليقات هي المهمّة. بدأت العمل بالسقف، وهو في الأساس أبيض ويكفيه بالتالي وجه واحد. أما ورق الجدران فمنقوش بأنماط من الستّينيات. انقلب صهريج على مقربة من «ريوفيك» ويعمل أربعة رجال بالبذّات الصفراء على تنظيف روبة الجير. نُصح من يقيمون في الجوار المباشر بإبقاء كل أبوابهم ونوافذهم مغلقة. الطلاء يجفّ سريعاً وتأخذ النقوش مع جفافه بالاختفاء شيئاً فشيئاً. خطّطت فقط لطلاء الجدران والسقف، لكني وقد بدأت، شرعت أنزعج من إطار النافذة المدهون بالورنيش. يشرح «توم دي غراف» من «ديمقراطيي ٦٦» منافع الانتخاب المباشر لرؤساء الحكومات. وسأله أحد المراسلين، «هل سيأتينا هذا برئيس وزارة ذي أرداف جميلة (أي بامرأة)؟» لم يربك

السؤال «دي غراف» الذي قال إن «الصحافيين هم الوحيدون الذين يتحدّثون دائماً عن الأرداف الجميلة». نظرت إلى الراديو وأنا غير مصدّق بأنني أسمع ما أسمعه. الباب باللون الأبيض اللامع. وما إن انتهيت من وجه الطلاء الأول حتى توجّهت إلى الحظيرة لجلب الأساس الأزرق الرمادي من خزانة السموم. أمكنني القول، برفعي الصفيحة، أنه تبقّى فيها ما يكفي لطلاء الباب والنافذة. عدت بالأساس وبطلحية من ورق الزجاج وبالفرشاة واعتنيت في صقل الخشب. لا يزال الطلاء رطباً. قد لا يمتلك الإندونيسيّون كلمة للتزلّج على الجليد، سوى أن الناس يتزلّجون في أحد مراكز التسوّق الكبرى في جاكارتا على حلبة داخليّة. لا توجد مؤشّرات إلى أزمة اقتصاديّة في إندونيسيا، إلا أن شعبها اكتفى من الرئيسة «ميغاواتي». وبانتهائي من الأساس، طليت الجدران بوجه آخر من الطلاء. عاودتِ النقوش الظهور تحت الفرشاة الأسطوانيّة، وعليّ التحقّق الليلة للتأكّد من أن الطبقة الثانية قد أخفتها فعلاً. زخّات المطر تنهمر الآن في شكل متفرّق في أنحاء البلاد، وسيأتي المطر لاحقاً من الغرب. الطقس غداً سيتلبّد بالغيوم مع انفراجات خفيفة في سياق النهار.

أشعلتُ النور في غرفة «هنك» وأزحت بعض الخردة القديمة من الطريق لأتمكّن من بلوغ طاولة السرير. حملتها ونقلتها إلى الغرفة الجديدة حيث طليتها بطبقةٍ سريعةٍ من الأساس. ثم أطلّيت على والدي.

تشمّم وقال: «أتقوم بالطلاء؟»

«نعم».

«وماذا تطلي هذه المرّة؟»

«الغرفة الجديدة».

«لماذا؟»

«لعامل المزرعة».

«عامل المزرعة؟»

«نعم، ألم أخبرك؟»

«استلقي هنا وحسب، ولا يخبرني أحد شيئاً».

«بل قلت لك، ولعلّك نسيت».

«لا أنسى أي شيء».

«كما تشاء. اشتريت بعض الأنقليس أتودّ بعضاً منه لاحقاً؟»

«لذيذ» قال مبتسماً. لا يزال الأمر لا يُطاق، لكنه ليس سيّئاً كالعادة.

قضيت مساءً وقتاً طويلاً تحت مرذاذ الحمّام. أردت أن أكون رطباً: دافئاً ورطباً. لا أريد التفكير حتّى في تجفيف نفسي. انتهى العمل بجدران الغرفة الجديدة واختفت نقوش الستّينيات كلّياً. وغداً صباحاً دور نافذة الجدار المائل والباب وطاولة السرير. وغداً مساء سأجمع السرير، وأرمي عليه بفراشي القديم وأضع الطاولة بجانبه. أقفلتُ الصنبور بعدما رأيت أناملي وقد بدأت تتجعّد. جفّفت نفسي بسرعة وهرعت عبر ملحق المطبخ. سرّحت شعري أمام المرآة الكبيرة فوق رفّ الموقد، وتوهّج دفء النار على ساقي وأسفل بطني. أدرت المقبض مخفّفاً النار من (٤) إلى (١) وسرت نحو باب غرفة نومي.

سمعت من الخارج صوت «قاااء». ثم عاودت سماعه أربع مرّات أخرى. تركت باب غرفة النوم مفتوحاً ولاحظت وأنا اتسلّق السرير أن الساق التي لا أزال واقفاً عليها ترتجف بعض الشيء. تمدّدت على ظهري واستمعت، لكنني وجدت نفسي أجهد لسماع الصمت وحسب. واكتفى الغراب الأبقع بخمسة نداءات.

٢٦

إنها العاشرة والنصف صباحاً. المطر ينهمر من الغيوم المنخفضة. نور المطبخ مضاء. الدردارة الملتوية تتوهّج، والغراب الأبقع محدودب على غصنها، ينفش بين الحين والآخر ريشه من دون أن يبسط جناحيه، فيبدو كسنونوة تستحم في بركة ماء صغيرة في الباحة، سنونوة عملاقة. انتظرتُ. الصحيفة ملقاة أمامي على الطاولة، لكنني لا أستطيع القراءة. جلست وحدّقت من خلال النافذة. الساعة تئزّ؛ المكان هادئ فوق، ولا يزال كوب قهوتي يحتوي على بضع جرعات. لا يقتصر الهدوء على فوق بل إنه في كلّ مكان، والمطر يطرق بخفوت على حافة النافذة، والطريق رطب وخال. أنا لوحدي وليس لدي من أتدلّل عليه.

في شباط/فبراير ١٩٦٣ قاد الوالد السيّارة في دوائر في بحيرة «غوسي» وجلسنا، «هنك» وأنا، في المقعد الخلفي. ضحك ضحكة مكتومة وقال «هذا أمر يحدث مرّةً واحدةً في الحياة». جلسنا «هنك» وأنا بعيدين كل البعد عن بعضنا والتصق كلّ منّا بنافذته. بقيت الوالدة في «مونّيكندام» وقد أصابها الخوف الشديد. ووجدناها بعودتنا إلى الميناء لا تزال جالسة في مكانها نفسه تماماً وقد غطّت ندف الثلج رموشها.في اللفة الثالثة أو الرابعة، انعطف والدي إلى اليمين بدلاً من اليسار عند نهاية السدّ. واستخدم الكابح بعد نحو خمسين متراً. والسد أشبه بالحاجز الممتد من «ماركن» إلى «فولندام» وقد نسي البناؤون إكماله ما ترك الجزيرة والمدينة منفصلتين، إحداهما عن الأخرى، إلى الأبد. انحنى الوالد على المقود وحدّق إلى نهاية السدّ، إلى بوابة بحيرة «إيسل»، وتنهّد. الشمس مشرقة كما لو أنها أشرقت طوال ذلك الشتاء الطويل. وانجرف الثلج فوق الجليد كالرمال على شاطئ رطب. أدركنا، «هنك» وأنا، من دون أن ننظر، واحدنا إلى الآخر، ما يوشك الوالد على القيام به، وزحلنا على المقعد الخلفي مقتربين من بعضنا. كنا في الخامسة عشرة.

شاهدنا في مرآة الرؤية الخلفية سيّارة أخرى تتجاوزنا من دون أن نسمعها. تنهّد الوالد من جديد. أخبره أحدهم في المرفأ أن «الجليد بسماكة قدمين ونصف على أقل تقدير».. وهذه سماكة لا يمكن تخيّلها. قاسها والدي في شكل تقريبي بيديه واستجمع شجاعته. عمّ ما هو أكثر من الهدوء، وبات الصمت مخيفاً. لم يعرف الوالد مدى سماكة الجليد في ما وراء السد. وفيما هو يجلس مكانه متنهّداً، زحفنا أكثر واحدنا في اتجاه الآخر على المقعد الخلفي إلى أن أصبحنا أشبه بتوأمين سياميين ملتصقين من قدميهما إلى كتفيهما. وإذا امتلك الوالد ما يكفي من الشجاعة للمغامرة الكبرى، فسنواجهها كرجلٍ واحدٍ بصمت ومن دون خوف. شغّل الوالد السيّارة التي لم تدر إلا عند المحاولة الرابعة أو الخامسة. لم أعد أمتلك أي شعور في جلدي، في عضلاتي، وفي عظامي. أمكنه وضع السرعة الأولى، لكنه وضع بدلاً منها السرعة الخلفية، ببطء شديد، كما لو أنه يأخذ الوقت الكافي لتغيير رأيه. رأينا، «هنك» وأنا، كوَمات الثلج الأربع التي ارتفعت عند الإطارات وهي تتضاءل ببطء. وعندها قام الوالد بدورة رابعة أو خامسة بأقصى سرعة، فيما أخذت السيّارة تنزلق بين الحين والآخر، لفترةٍ وجيزة، ممزّقةً وحدتنا السياميّة. ولم نفلت بعضنا ونعود «هنك» و«هلمر» من جديد، إلا عندما وجدنا أن في وسع والدتنا رؤيتنا قبل لحظة من اجتياز الوالد بالسيّارة منحدر المراكب في الميناء. لم تستطع الوالدة أن تنبس ببنت شفة، وقد رفض ذقنها الانخفاض وباتت شفتاها قطعتين من اللحم المتجمّد.

قمت قبل المغادرة بأمور أمكنني وحسب القيام بها لاحقاً. أعدت العِجلة المريضة، التي لم تعد مريضة، إلى العجول الأخرى. رفعت غطاء سطل الطعام في خم الدجاج وملأته بكيس من العلف. وحصل الحماران على بضع حفنات من التبن بالرغم من أنني أطعمتهما هذا الصباح الشمندر الأصفر المفروم. لا يزال الجو غائماً لكن المطر توقّف. ولما اجتزت «زاندردورب» امتدّت المدينة أمامي أشبه بسهل من كتل العمارات الرمادية.

٢٧

اللقاء أمام كشك رقاقات البطاطا، المكان الذي نعرفه «رايت» وأنا. لكنني وجدت، بوصولي بالسيارة، أن الكشك قد اختفى وشغلت سيّارة أخرى المكان قبالته وهي من طرازٍ فارهٍ مرتفع الثمن، وقد جلس رجلان على مقعديها الأماميين، فركنتُ الـ«الـ»أوبل كاديت» وراءها.

بدت «رايت» عمليّة جدّاً خلال المحادثة الهاتفية، كما لو أن ردّي بالإيجاب لم يفاجئها على الإطلاق. وعرف «هنك» بالأمر هو الآخر وقال نعم. أما هي، فكلاّ، لن تأتي معه لأنه «لن يتفهّم أن توصله أمّه إلى حيث يبيت». وأبلغتني، ردّاً على سؤالي حول كيفيّة تعرّفي إليه، أن أبحث عن أذنيه، وقالت أنها ستعطيه أوصافي. وقبل أن تقفل الخط كانت أكثر تحديداً في شأن «نَعَمه»: فقد قال بالضبط «وأي فارقٍ في ذلك؟»

خرجتُ من السيّارة وبعد قليل على قيامي بالمشي في الجوار وصلت المعدية وظهر معها اسم الشركة الذي يعود لأواخر الستينيّات: «معدية النسر». شرع الرجلان في السيّارة الفارهة في التدخين، وهما يرتديان بذّتين رسميّتين. انه نوع السيارات والرجال الذي لا تراه إلا في المدينة. بدأ المطر ينهمر من جديد وتساءلتُ عن نوع السلوك الذي يتماشى مع «وأي فارق في ذلك».

«قالت أمّي إنك سترتدي هذا الصدار».

صافحني المراهق القصير الشعر والكبير الأذنين. عثر عليّ وأنا أراقب الفتى الذي خرج وراءه من المعدية وانحرف إلى إحدى الجهات. وقد ارتديت صداري الجيّد، الأزرق المخطّط بالأسود الذي ارتديته أيضاً خلال زيارة «رايت»، في ليلة رأس السنة، وفي مأتم سائق الصهريج الكبير السن. الفتى الذي خرج وراءه من

المعدية يشبه «رايت»، له لون الشعر نفسه وأخذ يتطلّع من حوله باستحياء. كنت متأكّداً من أنه «هنك» بحيث خطوت جانبيّاً لأتطلّع إلى ما وراء الشخص الذي يعترض سبيلي، والذي سألني:

«أنت السيّد فان فوندين؟»

«نعم؟ قلت من دون أن أنظر إليه.

«أنا هنا». ومدّ يده فصافحته. «قالت أمّي أنك سترتدي هذا الصدار».

قلت: «إصعد».

«أين يجب عليّ أن..».

«ضعها على المقعد الخلفي».

أخذ في رفع حقيبة ظهره، فيما راقبت الفتى الذي يشبه «رايت» كثيراً. فقد قفز إلى رفّ وضع أغراض إحدى الدراجات وطوّق ذراعيه بإحكام حول خصر الفتاة التي تدوّس، بل انه أسند رأسه على ظهرها.

«اصعد» قلت من جديد.

فتحنا بابينا في الوقت نفسه، وقبل ان يستقرّ كما يجب كنت قد بدأت تشغيل السيّارة. وتجاوزتُ بعد فترة قصيرة الفتاة على الدرّاجة. كان الفتى يتحدّث إلى ظهرها ونظر إليّ لبرهة. تطلّع إليّ كما يتطلّع الناس إلى بعضهم في شكلٍ عابر: بإيجازٍ ولا مبالاةٍ وذهنهم مشغول بأمور أخرى. ومع ذلك استمرّيت في التفكير: لماذا، يا «هنك»، لم تصعد معي بالسيّارة؟

اكملتُ طريقي ولم استدر يمنة عند «زوندردورب». وفي «فولغرميبولدر» أخذت الآليّات الثقيلة في اقتلاع الأشجار المعقّدة الصغيرة. فقد تم الشروع أخيراً

في تنظيف الأرض الملوّثة. وفي الطريق المستقيمة جدّاً التي تمرّ بـ«بلمرمير»، تفوّه الشاب الجالس بقربي بشيء.

«يا للطقس الكريه».

استرقت النظر إليه، والطريق ضيّق وسيّارة آتية في الاتجاه المعاكس. فكّرت وأنا أتنحّى جانباً أنه لا بد يشبه «فيان». ولا يتناسب صوته الفاتر حقيقة مع شعره القصير الأصهب. ربّما أرسلته «رايت» بالأمس إلى الحلاّق، وقال لما رأى الأخير يمسك بالمقص والمشط، «لا، استخدم المقراض وحسب،» أملاً منه في أن يصيبها بذعرٍ حقيقي لدى عودته إلى المنزل. ولا يزال يتملّكني شعور غريب بوجود خطأ في مكانٍ ما.

لم تسعفني عودتي إلى المنزل. فالعودة غريبة دائماً بعد وجودك في مكانٍ مختلف جداً. ألأنّ كل ما في المنزل لا يزال تماماً كما تركته، فيما اختبَرْتَ أموراً، مهما كانت تافهة، وتقدّمت في السن ولو بزوجٍ من الساعات؟ رأيت المزرعة من خلال عينيه: مبنى رطب في محيط رطب مع أشجار عارية يتقطّر منها الماء، وعشب قرصه الصقيع، وسُويقات هزيلة من الكرنب، وحقول خاوية، وضوء في غرفة علويّة. فهل إنني أشعلت النور، أم إن الوالد تدبّر القيام بذلك بنفسه؟

«ها نحن» قلت.

«آه ـ هه» قال «هنك».

ركنت السيّارة في الحظيرة في منأى عن المطر. فرفع حقيبته عن المقعد الخلفي من دون أن يتطلّع إلى المكان.

وسألته: «أهي ثياب؟»

قال: «نعم».

«جلبت لك جزمة وبزّات عمل».

بقي مكانه على مقربة من السيّارة، وحقيبة ظهره معلّقة على إحدى كتفيه.

لم يسبق لي أن جعلت أحداً، غيري أنا، يعمل. الوالد جعلني أعمل. وكيف يقوم المرء بأمر كهذا؟ عليه بداية أن يسير في المقدّمة. ولو شرعت في السير فمن المؤكّد أنه سيتبعني. وها أنا أرى الداخل من خلال عينيه تماماً كما رأيت الخارج. أكياس من العلف المكثّف، تبن وقش في الأماكن المرتفعة الظليلة، المِسلفة، أدوات معلّقة، رفوش، مذارٍ، مجارف، خزّان الديزل على قاعدته، طاولة العمل التي تعمّها الفوضى (مفكّات براغٍ، وأزاميل ومطارق مبعثرة على سطحها واللوح الخشبي الفارغ بمساميره ورسومه البيانيّة بالقلم)، خزانة السموم ذات اللون الفضي الرمادي، ودرّاجة والدي معلّقة على الجدار بجانب طاولة العمل. إطاراتها فارغة من الهواء والواقي الخلفي من الوحول مفكوك، والسلسة صدئة. شبكات العنكبوت قديمة ورماديّة، ومياه الشتاء تقطر على الدراجة عبر إطار النافذة.

سألته: «ألديك إجازة سوق؟»

«كلاّ» أجاب «هنك».

إذاً، فالعمل الأول هو الدراجة.

لا بُدّ وأن قوّة اللمبة في السقف تبلغ ٧٥ شمعة على الأقل. حقيبة ظهر «هنك» موضوعة على السجادة الزرقاء الداكنة تحت النافذة. المطر يطقطق على الزجاج. و«هنك» يجلس على السرير. ولو وُجد ما يُنظر إليه فلربما أخذ في التطلّع من حوله. ولم ألاحظ إلا الآن كم أن الملحفة طفوليّة وهي مزخرفة بالحيوانات. حيوانات أفريقيّة: أسود، وحيدو القرن، زرافات وغيرها مما لا أعرفها. الجدران من حولنا باللون الأبيض الباهر، وسطح طاولة السرير الرخامي فارغ. أردت أن أقول شيئاً ولم أعرف ماذا، وربما يريد «هنك» هو الآخر أن يقول شيئاً. الجو بارد في الغرفة

الجديدة. ولماذا توجب على طقس يوم، من بين كلّ الأيام، أن يكون سيّئاً؟ لديه ندبة فوق أذنه اليسرى، وهو قطْع بطول إنشٍ واحدٍ خال من الشعر.

«أتقرأ؟» سألته. «هل تريد مصباحاً للقراءة على طاولة السرير؟»

قال: «جلبت معي كتاباً».

«سأرى هل سأتمكّن من العثور على مصباح للقراءة».

«سيكون ذلك جيّداً» قال «هنك».

«لكن علينا أوّلاً أن نأكل شيئاً».

خرجت إلى بسطة الدرج. تبعني وهو يحكم إقفال باب غرفة نومه وراءه. وصدرت عن غرفة نوم والدي التكّات المتوانية للبندول.

٢٨

غرفت الحليب من الخزّان بوعاء القياس؛ فقد أراد «هنك» تناول كوب منه مع ساندويتشه. وأنا نفسي أكاد لا أشرب الحليب أبداً. صحيح أنه مورد رزقي لكنني لا استخدمه أبداً إلا في صنع العصيدة. الباب المؤدي إلى قاعة الحليب مفتوح، ورائحة الربيع تعبق في الخارج. وفجأة أحدثت فكرة أن تتحوّل الأشجار إلى الأخضر من جديد ويعاود النرجس البرّي الازهرار حول جذوعها تمخّضاً في معدتي. واستنزفت صورة النعاج تحت سماء الربيع الباهتة القوة من ذراعيّ، ووجدت لبرهة صعوبة في حمل غطاء الخزّان. بيد أنه ربيع ككل فصول الربيع السابقة. لا أعتقد ذلك، بل أشعر به. توقّفت، قبل أن أسير عائداً إلى المطبخ، للنظر عبر الباب المفتوح إلى الأشجار

المحيطة بالباحة. إنها عارية ورطبة. ويستمر المطر في الهطول. نحن في أواخر كانون الثاني/يناير، ولا يزال من الممكن أن يحمل شباط/فبراير معه صقيعاً قارساً.

عدت ولا يزال «هنك» قابعاً في المكان نفسه تماماً، أي في موقعي القديم، وظهره إلى الباب. توجد قطعة من الخبز في صحنه، من دون زبدة أو أي شيء آخر عليها. تناولت كوباً من خزانة المطبخ وملأته بالحليب ووضعته بجانب صحنه.

«شكراً لك» قال «هنك».

قلت: «أهلاً وسهلاً».

جلستُ. وأدركت أنه لا توجد خزانة في غرفته، فأين يُفترض به توضيب ثيابه بعد إخراجها من حقيبة ظهره؟ وسألته: «أولست جائعاً؟»

«بعض الشيء». وغرز سكّينه في الزبدة وبسط طبقة رقيقة منها على خبزه. ثم وضعه مكانه بحثاً عمّا يوجد غير ذلك على الطاولة: الجبنة، زبدة الفستق، المربى، السلامي، ولحم الخنزير. وقرّ رأيه على المربّى.

قلت: «هذا من صنع جارتي».

«أوه».

«مربى التوت البرّي».

عبّ ملء فمه حليباً قبل أن يبدأ بالأكل.

«و؟»

«ماذا؟»

«كيف طعمه؟ حليب البقر الطازج؟»

تناول رشفة كبيرة أخرى وقال «معدني».

أذناه، بعد البحث، ليستا كبيرتين، بل ناتئتان بعض الشيء، وهو ما يجعلهما تبدوان كبيرتين. وعندما يمضغ تتحرّكان صعوداً ونزولاً.

«أحلب عشرين بقرة، ويصعب أن يكون هذا بالشيء الكثير».

قال «هنك»: «الرائحة جيدة هنا».

«أتعتقد ذلك؟»

«نعم».

«ليس كالخنازير؟»

لم يجب، بل اكتفى بالنظر إليّ. تركته يدخل أوّلاً من باب الزريبة المفتوح. وهو لا يفوقني طولاً بكثير، لكنه أكبر حجماً في شكلٍ ظاهر. وأكثر اسمراراً. سأقف على المقطورة أكوّم بالات التبن، على أن يقوم بإلقائها إليّ، فيما يدحرجها «تون» و«رونالد» إلى المقطورة. ولا يزعجني التفكير في الصيف المبكر: لا تمخّض في معدتي ولا ضعف في ساقيّ.

«العجول هنا».

نَفَخَتْ ورفعتْ رؤوسها ونحن ندخل.

قلت: «جل ما تفعله هو الأكل والنوم والتغوّط».

«أليس لديكم هنا منظّف للبواليع؟»

طرح سؤالاً، وهذا تطوّر. وأجبته، «كلاّ».

«كيف تفعلون والحالة هذه؟»

«لا شيء خاصاً: رفش وعجلة يد».

«أوه».

خرجتُ ودرت حول الزاوية. وأشرتُ، قبل أن أفتح الباب الجانبي، إلى كومة

الروث. «أنظر إلى ذلك اللوح الخشبي، فستجرّ العربة عليه إلى هناك».

وقال «هنك»: «إنه ضيّق بعض الشيء».

توجّهنا إلى زريبة الخراف. القرميد والخشب مشبعان برائحة الخراف والروث الجاف. وتستمر الرائحة تعبق حتى لو تركت الباب والنوافذ كلّها مفتوحة لأشهر. يخلو المكان في معظم السنة، فالخراف تستطيع تحمّل كلّ شيء: الجفاف والمطر والثلج، بالرغم من أنها تتجه إلى الإصابة بالوهن في خلال فصول الخريف والشتاء الرطبة للغاية.

«سنجلب النعاج إلى الداخل في غضون شهر أو شهرين». تحدّثتُ بصيغة نحن، إذ يبدو أن الجولة في المزرعة –في زريبة البقر وزريبة العجول وزريبة الخراف برفقة «هنك» – قد حوّلتنا إلى مزارع وعامل مزرعة.

«لماذا؟» سأل.

«لأنها ستبدأ في الوضع».

«ماذا؟»

«الوضع. الولادة».

«آه، الولادة».

«وماذا تسمّون ولادة الخنزير؟»

نظر إليّ كما لو أنني لست على ما يرام.

«تخنيص».

لم يهتم لأمر الحمارين، لكنه سأل من باب التهذيب عن اسميهما. فأخبرته أنهما من دون اسم. وقد رفعا رأسيهما بحماسةٍ من فوق السياج. لكن «هنك» تجاهلهما محدّقاً بقوّة إلى الرفّ الذي يحتوي على عدّة البيطرة. وغادر زريبة الحمارين لمّا

أعربت عن أملي في تحوّل الطقس إلى الجفاف ليتمكّنا مجدّداً من الخروج. وهو الوحيد، من بين جميع الناس الذين جاؤوا إلى المزرعة، ولم يلمس الحمارين. فحّتى تاجر المواشي الكتوم يتمشى من وقت إلى آخر صوب حقلتهما ويحكّ رأسيهما حتى ولو لم يكن لديّ شيء له.

«و؟» سألت.

«ماذا تعني؟»

«ما رأيك في الأمر؟»

تطلّع من حواليه بنظرةٍ متفحّصة. «كلّ شيء عارٍ بعض الشيء».

سألته ونحن في الحظيرة. «أتريد الشروع في العمل؟»

فأجاب: «طبعاً».

أشرت إلى الدرّاجة. «إنها لوالدي، لكن مرّت دهور على تمكّنه من امتطاء درّاجة. إنها لك إذا تمكّنت من إصلاحها».

سار «هنك» إلى الدرّاجة وأزال شبكات العنكبوت عن الإطار. «كم عمر هذا الشيء؟»

«آه. نحو عشرين عاماً».

وقال: «يا إلهي».

تطلّع من حوله، «أيوجد منفخ للدراجة؟»

جئت بالمنفخ، الذي بلغ هو الآخر العشرين ربّما، من تحت طاولة العمل ووضعت لمبة الفلورسنت في القابس. «هيّا» قلت. «سأعطيك بعض بذّات العمل».

همس الوالد: «ماذا أفعل؟»

قلت: «ما من شيء خاص».

«نعم، ولكن..».

«ماذا؟»

«أنا ميت، أولستُ كذلك؟»

«لا، ليس بعد الآن».

«والدة ذلك الفتى..». وهو لا يستطيع حمل نفسه على قول اسمها.

«نعم؟»

«تعتقد أنني ميت».

«كان لذلك أسبابه». وشعرت بالأسى عليه. وأنا لا أريد ذلك– لا أريد أي شيء وأنا في غرفة نومه – لكنه شعور يتملّكني.

«أين هو؟»

«في الحظيرة يصلح درّاجتك».

يتناول الوالد سندويشاً من الجبنة عن طبقٍ يحاول إبقاءه تحت ذقنه بيده المرتجفة. سبق لي أن أشعلت النور وقد شارفت الساعة على الثالثة لكن الغيوم ترفض الانقشاع. ما الذي ظننته عندما نقلته إلى فوق؟وسرت نحو البندول وفتحت بابه وشغّلت الأثقال.

تخيّلتُ «رايت» تحضّر الطعام في المطبخ؛ وقد أشعلتِ الضوء بالفعل. وهناك ما يحصل في كل مكان: الوالد ممدّد هنا؛ وللحظة لم أعد واثقاً من مكان وجودي؛ و»هنك» في الحظيرة يعمل، في الضوء أيضاً؛ الأبقار تقف هادئة وساكنة في حظيرتها؛ والحماران في زريبتهما يأكلان الجزر الشتوي من أيدي «تون» و«رونالد»؛ والنعاج العشرون مستلقية على مقربة من طاحونة «بوسمان»؛ تأتي «آدا» وترتشف القوة مع «رايت» وتسألها إذا كانت تودّ زياتها في الغد لرؤية مقعدها الذي أنجزته من أغصان الصفصاف؛ وأخذ أزيز الساعة الكهربائيّة في المطبخ يصبح أقل وأقل

حدّة؛ وأنا أعرف، بالطبع، مكان وجودي: أصلح الدراجة مع «هنك»، و«رايت» أمّ أكثر منها زوجة.

«تلك السيّارة القديمة» قال الوالد.

«نعم، ولكنها لم تبلَ بعد».

«كيف هو؟»

«لا أعرف بعد».

«هذا ما قلته في المرّة الماضية».

«أيّاً يكن» قلت. وأخذت الطبق من يده وسرت إلى الباب.

«أتريد إبقاء النور؟»

«النور» قال الوالد.

« سأبعث به إليك لبرهة عند المساء».

«لا أدري..».

«أتعتقد أنه يسهل علينا التصرّف كما لو أنك لست موجوداً؟»

«لا».

الدرّاجة أمام طاولة العمل رأساً على عقب، و»هنك» يجلس القرفصاء قبالتها، يرتدي واحدة من بذّات عمل والدي القديمة، ذات اللون الأخضر الذي بهت مع رقعتين كبيرتين عند الركبتين، والياقة مرفوعة. وقد نقع السلسلة في وعاء على مقربة من الدراجة، في المازوت على ما يبدو. نفخ الهواء في الإطارين. رفع نظره إليّ وأنا اقترب. توجد لطخة سوداء على فكّه. ووجدت، وهو الآن منخفض، أن له ثغر أمّه.

قال: «تحتاج إلى واقٍ خلفي من الوحول».

أجبت: «يمكنني شراء واحد».

«والإطاران يكادان يلفظان أنفاسهما».

«يمكنني أيضاً شراء إطارين جديدين إذا توفّرا».

«السلسلة منقوعة بالمازوت».

«هل سحبته من الخزّان؟»

«نعم».

لم يطرح عليّ ولا مرّة أي سؤال. فماذا يعني هذا في شأنه؟ لست أدري.

٢٩

أكلنا الكرنب مع النقانق المدخّنة والثريد. وقد شرعت في تناول الكرنب مرتين على الأقل في الأسبوع منذ بدأت قطافه. ويستمر مخزون حديقة الخضار منه حتى وقتٍ طويلٍ من الشتاء. اعتادت والدتي أن تضع دوماً مكعباً من مرق البقر مع البطاطا، أما أنا فأستخدم الخضار. أشتري النقانق المدخنة من الجزّار. ولدي الكثير من الأغراض المحفوظة في الثلاّجة على درجة حرارة منخفضة جدّا، ولكن ليس لحم الخنزير.

«سيّد فان فونديرن؟»

«نعم؟»

«ألديك نبيذ يتماشى مع هذه؟»

«نبيذ؟»

«نبيذ أحمر، فهو طيّب مع الكرنب».

«لا، لا يوجد عندي أي نبيذ، بل مشروبات روحيّة وحسب».

غَرَف بالملعقة كمّيةً كبيرةً من الخردل من الإناء. وبعدما عبّأ شوكته بالثريد والكرنب بسط عليها بسكّينه طبقة من الخردل. لكنّه شكّ النقانق من دون خردل.

«اسمع، يا هنك..». وعبأت فمي بالطعام قبل أن أتابع. شكّل التلفّظ باسمه عائقاً.

«نعم؟»

«هل يمكنك التوقّف عن مناداتي بالسيّد فان فونديرن؟»

«حسناً».

«الاسم هلمر».

«هلمر» وعبّ ملء فمه ماء، ثم قال: «صعب».

«ما الصعب فيه؟»

«اسم غير معتاد. يبدو شاباً».

«واسم هنك صعب عليّ».

«لماذا؟»

«شقيقي كان يُدعى هنك».

«آه، نعم».

«وأنت دُعيت على اسمه».

«كلاّ لم يحصل».

«كلاّ؟»

«دُعيت على اسم أحد أعمام أبي، ولكن من جيل مضى».

«عمّ أكبر».

«أهو عمّ أكبر؟»

«نعم، من قال لك ذلك؟»

«والدي».

«أكنت تعرف أن شقيقي دُعي هنك أيضاً؟»

«نعم، أخبرتني والدتي عنه بعض الشيء. لكن ليس وأنا صغير، بل في وقت لاحق جدّاً». وفكّر للحظة. «أعتقد أن ذلك لم يحصل إلا في السنة الماضية».

«المزيد من النقانق؟»

«من فضلك، نعم».

قصصت قطعة من النقانق ووضعتها في صحنه. وعبرت إحدى السيّارات.

«لماذا الستائر غير مقفلة؟»

«ومن سينظر إلى هنا؟»

نظر «هنك» أمامه مباشرة عبر النافذة الجانبيّة. ورأيته يتطلّع إلى انعكاسه.

«يمكنني، بواسطة تلسكوب، أن أنظر مباشرة إلى داخل المنزل الموجود هناك».

«الجارة التي صنعت المربّى تقيم هناك».

«ألديها تلسكوب؟»

«يُحتمل».

تناولنا الطعام بصمتٍ لبعض الوقت.

ثم قال، «يأكلون الحمير في روسيا».

«ماذا؟»

«الحمير. يأكلونها في روسيا».

«وكيف لك أن تعرف؟»

«لا أدري. قرأت ذلك في مكانٍ ما».

«الروس برابرة».

«هممم». وضع أدوات المائدة على صحنه ودفعه بعيداً. كتّف ذراعيه ونظر إلى نفسه في النافذة. التقطت الصحون ووضعتها على المجلى. وأخرجت حوض الجلي من الخزانة الموجودة تحت المجلى وملأته بالماء الساخن.

قال «هنك»: «يوجد طعام متبقٍّ».

«إنه لوالدي». ووقفت وظهري له، ولم يقل شيئاً. وضعت الصحنين وأدوات المائدة في حوض الجلي. والهدوء مستمر من ورائي، واستدرت. لم يعد مكتوف اليدين وهو يجلس على الكرسي في وضعٍ أكثر استقامة، ويحدّق إليّ. ولولا وجوده هنا لما كنت بعد قد ملأت حوض الجلي بالماء الساخن.

«والدي» كرّرت القول.

«أيوجد أحد آخر في المنزل؟»

«نعم».

«والدك. اعتقدت..».

«ماذا؟»

«عندما قلتَ إنه لن يتمكّن من ركوب الدرّاجة بعد الآن..».

«نعم؟»

«وإن الدراجة على هذا القدر من القِدَم. اعتقدت..».

«ما الذي اعتقدته؟»

«اعتقدت أنه مات منذ زمن».

«لا».

«يا إلهي. وأين هو إذاً؟»

«فوق».

«حيث كان النور مضاء لما وصلنا بالسيّارة؟»

«نعم».

«وهل أصابه مكروه؟»

«إنه كبير في السن. وساقاه لم تعودا تسعفانه».

«ما مدى تقدّمه في السن؟»

«في الثمانين. كما إنه بدأ في التراجع ذهنيّاً أيضاً».

«يا إلهي».

تصوّرت «رايت» و«هنك» في القرية في «برابنت». يعيشان معاً، غير أنه استحال عليّ تخيّلهما في غرفة واحدة. فكلّما يدخل أحدهما إلى مكان يخرج الآخر، وأبواب تُفتح وتُغلق معاً، وبالكاد يتبادلان الكلام. وهذا جيّد بالنسبة إليّ إذ لا يجبرني على تقديم الكثير من الشرح.

قلت: «لنأخذ إليه طعامه قبل أن يبرد».

«ماذا؟ أنا أيضاً؟»

«أنت أيضاً».

نظر إليّ كما لو أنني طلبت منه تكفين شخصٍ ميت.

«أرني يديك».

على «هنك» الآن الاقتراب أكثر من السرير. وقد أبقى، منذ لحظة دخوله إلى الغرفة، عينيه على الأشياء المعلّقة على الجدران ليلاحظ في النهاية البندقية المسندة إلى جانب الساعة. وقد مضى عليه وقت وهو يحدّق إليها. فتح ذراعيه وظَهْر يديه إلى أعلى كما لو أنه يتحسّب للغطس.

«لا، الكفّين».

أدار يديه.

«هممم،» قال الوالد.

قلت: «تم إصلاح درّاجتك».

«نعم درّاجتي. انتبه لها،» قال لـ«هنك».

أجاب الأخير، «نعم، يا سيّد فان فونديرن».

وضع والدي الطبق الذي يحتوي على الكرنب والثريد والنقانق على طاولة السرير. «ألديك أي خبرة في البقر؟»

«كلاّ» قال «هنك».

وقلت: «امتلك والده الخنازير».

«خنازير!»

«نعم،» قال «هنك» وجرّ قدميه مبتعداً في شكل لا يكاد يُلحظ عن السرير.

«لا مجال للتشبيه!» قال الوالد. وهزّ برأسه، وتابع بهدوء: «خنازير».

قلت: «يأتي هنك من برابنت».

«افترض أن هذا هو سبب تحدّثه بلكنة برابنت».

عليّ أن أعترف بأن الأمر أثار إعجابي. فبدلاً من أن يستلقي والدي مثل طاعنٍ في السن عاجزٍ، أدّى دور ملاّكٍ كبيرٍ طرحته إصابته بالإنفلونزا في الفراش. وسبق له في عام ١٩٦٦ أن طرد عامل المزرعة. وكنّا، «هنك» وأنا، في الثامنة عشرة، وأخذت «رايت» تبدو جزءاً لا يتجزّأ من المكان. وأمهل العامل ستة أشهر لإيجاد مكان للإقامة. وهذا معروف كبير من الوالد نظراً للطريقة التي عامله بها بخلاف ذلك.

«أنا الرئيس اللعين هنا! وعليك اتّباع تعليماتي».

وقف الوالد والعامل في زريبة البقر، أحدهما في مواجهة الآخر. ووقفت جانباً وراء والدي وأنا مرتبك، ولمّا تجرّأت على إلقاء نظرة سريعة على العامل رأيت أنه، على غراري، يبقي رأسه منحنياً. وأذكر أنني تفاجأت بعبارة «اتّبِعْ تعليماتي». لا يتحدّث الوالد في العادة على هذا النحو. ولم أمتلك أي فكرة عن الخطأ الذي ارتكبه العامل.

«من الرئيس هنا؟»

«أنت » قال العامل من دون أن ينظر، ولكنه كان يغلي من الداخل. «أنت الرئيس».

كنت فتيّاً، على قدر من الفتوّة يسمح للدموع بأن تترقرق في عيني. لم أطق والدي، وأردت الانتصار للرجل الذي علّمني كيف أتزلّج. لكنني كنت صغيراً ولا أمتلك أي فكرة عن سبب الخلاف، لكن ليس أصغر من ملاحظة العضلات المرتجفة في عنق عامل المزرعة. وهو، بطريقةٍ ما، ارتجاف حَرون واستفزازي. عاد بعد إذعانه إلى الانتصاب، لكنه لم ينظر إلى الوالد، بل نظر إليّ وعيناه لا تزالان تشتعلان.

وها إن والدي يحاول الآن استئناف دوره القديم. بل إنه ربّما لا يحاول ذلك، وربّما ان علاقة السيّد بالمستخدم تأتي بشكلٍ طبيعي.

«ارحلا من هنا» قال، «لأتمكّن من تناول الطعام بهدوء».

بلغ «هنك» الباب قبل أن أفعل، وهبط الدرج مسرعاً أمامي.

«يا إلهي» قال وهو يسير إلى ملحق المطبخ.

أراد «هنك» مشاهدة التلفاز.

فقلت: «لا نملك تلفازاً هنا».

«ماذا؟ وماذا تفعل في المساء؟»

«أقرأ الصحيفة، أقوم بالعمل المكتبي، أتفقّد الحيوانات».

«عمل مكتبي؟»

«آه، هه. سجلات النيترات، وسجلات الصحة للطبيب البيطري، سجلات التحقّق من جودة الألبان..».

«فهمت. وماذا يُفترض بي أن أفعل في غضون ذلك؟»

لا أعلم كيف أجيبه على ذلك.

«أتعرف أنك تفتقد كلّ أنواع الأمور بعدم حصولك على تلفاز».

«صحيح؟» ها نحن جالسان في المطبخ، وليس لدى «هنك» أي شيء آخر يقوله. نهضت وفتحت خزانة البياضات.

«هنا توجد المناشف. تعالَ معي». سرت في المقدّمة إلى ملحق المطبخ. «الغسّالة هنا، وفي وسعك رمي ملابسك المتسخة في السلّة». فتحت الباب إلى الحمام، وقلت «وهذا هو الحمّام. الماء الساخن يأتي من الغلاّية. وهي غلاية كبيرة، لكنها لا تستمر إلى الأبد». سرنا عائدين إلى المطبخ وسألته، «أتعرف أن تطبخ؟»

«يمكنني صنع طبق من الباستا».

«جيّد».

توجّه مباشرة إلى خزانة البياضات، وسحب منشفة من الكومة واختفى في البهو، كما لو أنه يتّبع التعليمات. سمعته يصعد الدرج، ثم عمّ الهدوء لبرهة. عاد ونزل. وسمعت، بعد وقت وجيز، المياه تنساب في الحمّام. بعد ذلك بعشر دقائق أقفل صنبور المياه. ولم أفعل شيئاً من اللحظة التي غادر فيها المطبخ، واكتفيت بالجلوس إلى الطاولة مكتوف اليدين. فُتح باب ملحق المطبخ. وصاح، «سأتوجّه إلى السرير».

رددت عليه صائحاً: «ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة». صعد الدرج من جديد. وهدأت الأمور فوق.

احتلّ نصف الرفّ الذي تحت المرآة: أدوات الحلاقة، فرشاة الأسنان ومساويك، «جل» الحمّام، شامبو ومزيل للرائحة يبدو غالي الثمن. علّق منشفته المبلّلة على سكّة ستارة الحمّام. مسحتُ البخار عن المرآة، وتمتمت «الكثير من الشَعر». شعر أسود، حتى الآن.

إنني منهك، ومع ذلك لا يمكنني النوم. وفي مكانٍ لا يبعد كثيراً تسبح مجموعة من طيور الزُقّة في القناة. الغراب الأبقع ساكن والمطر لا يطبّل على حوافي النوافذ. هل إنني نوع من الأب الآن؟ ماذا أنا؟ هل سيمكنه النوم في تلك الغرفة فوق؟ فهي لا تفتقر وحسب إلى خزانة للثياب، بل حتى ليس فيها كرسيّ. في وسعه صنع الباستا، ويمكنني أن أرى والدي سعيداً جدّاً بذلك. بماذا يفكّر الوالد؟ ها قد دبّت الحياة فجأة فوق. وشعرت، للمرة الأولى منذ الاستيلاء على غرفة نوم الوالد، بدرجةٍ ما من الأسف على هذه الخطوة. وقبل أن يأتيني النوم تماماً، حين أخذت أفكاري كلّها في الإفلات منّي، شاهدت الفتى الشاب الذي يشبه «رايت» على خلفية تلك الدرّاجة، وذراعاه تلتفّان بقوّة حول الفتاة.

٣٠

توجّهتُ إلى الباحة عبر باب الزريبة، وصفعني الهواء الشمالي البارد على وجهي. أمن المؤكّد أنها لن تبدأ بالثلج؟ أخذ الجو يتحوّل رماديّاً بالفعل عند الجانب الأقصى للمزرعة. وأنا أعلف دوماً العجول الصغيرة بعد الحلب. ولو أن «هنك» كان مستيقظاً لقام بذلك عنّي. النور مضاء في زريبة الحمارين اللذين يقفان وعجزاهما صوب المدخل. يعرفان أنني سآتي لاحقاً، فالحمير ليست غبيّة. قدّمت العلف للعجول الصغيرة أوّلاً. واستغلّيت فرصة التهائها بذلك لكشط الروث من تحتها ووضع بعض القشّ الجديد، لأقدّم لها بعد ذلك التبن. والعجول أقلّ صبراً بكثير من البقر، وهي تنخر وتشد على قيودها إلى أن تُعلف. تشرع في بعض الصباحات ثلاثة أو أربعة منها معاً في الخوار وعندها لا يتوقّف الأمر إلا عندما تحصل جميعها على التبن. أنقلُ من ثم الروث بالعجلة من المجرى الصغير وأكنس ارضيّة الزريبة. لم يستيقظ «هنك» لأنني تركته على حاله. صعدت منذ ساعتين على الدرج إلى فوق لكنني بدّلت رأيي قبل أربع درجات من بلوغ البسطة. لا بد أن الوالد سمعني لأنه ناداني. فهرعت عائداً إلى تحت.

المكنسة جديدة بعض الشيء، ولا تزال فرشاتها المصنوعة من النايلون الأحمر قاسية وتقرع على أرضيّة الباطون. انتهت عمليّة الكنس بأسرع مما أريد بالرغم من تباطئي الشديد.

بعودتي، ساد الهدوء المنزل. إنها الثامنة والنصف. خفضت صوت الراديو قبل أن أشعله، وجهّزت إبريقاً من الشاي وأعددت المائدة. السماء فوق الحقول شاحبة، وتحمل معها الثلج. نقرت بأصابعي على وجه الطاولة. تأخّر الأمر كثيراً جدّاً فصعدت إلى فوق. وسرت على رؤوس أصابعي عبر بسطة الدرج إلى باب الغرفة الجديدة. لم أعرف، بوصولي إليه، ماذا أفعل. لم يسبق لي أبداً، طيلة حياتي كلّها، أن أيقظت أحداً

من النوم. دققت على الباب بأصابع رخوة، ثم انتظرت لبرهة. «هنك» قلت، ودققت بمفاصل أصابعي. «هنك!» لكن ما من حركة. وقفت أمام الباب لفترة طويلة جدّاً لا أفعل شيئاً ولا آتي بحركة. لم أتجرأ على الدخول إلى الغرفة في منزلي بحق السماء. عدت سائراً إلى الدرج وأنا أغلي استياء.

سمعت الوالد ينادي من غرفة نومه: «هلمر».

«نعم، نعم» تمتمت. «لست أناديك».

جلستُ إلى طاولة المطبخ وشرعت في تناول الطعام. ولم أدرك إلا بعد وقت أن الراديو يعمل.

توجّهت بالسيّارة إلى «مونّيكندام» وقصدت على التوالي متجر الدرّاجات ومتجر المصابيح ومتجر الأدوات الكهربائيّة. دفعت نقداً ثمن الواقي من الوحول ومصباح القراءة والتلفاز. أراد بائع التلفاز معرفة هل أريد أيضاً صحناً لاقطاً وجهاز استقبال. «أريد ماذا؟» سألت. هل إنني موصول إلى «الكابل»؟ فكّرت في الأمر وتراءى لي عمّال البلديّة يحفرون قنوات قبالة أعمدة الإنارة. رأيت أسلاكاً ملوّنة كما شاهدت في زاوية من زوايا غرفة الجلوس شخصاً بديناً جاثياً على ركبتيه مشغولاً في تركيب علبة صغيرة في الجدار الداخلي، وهي في الحقيقة أشبه بمأخذ كهربائي، بعدما حفر أوّلاً ثقباً في الجدار الخارجي. رأيت حزاماً ضيّقاً من الأعشاب المصفرّة في الحديقة الأماميّة. أراد بائع التلفاز معرفة الطريق الذي أقيم عليه، فأعلمته وتأكّد من أن «الكابل» تم وصله هناك منذ بضعة أعوام على سبيل التجربة. لم تمكنني رؤية الوالد، لا بدّ وأنه تقصّد تفادي المنزل في ذلك اليوم. أضاف البائع أنني محظوظ. سألته إذا أمكن وصل التلفاز الذي اشتريته للتو. نعم، استطيع ذلك، وما عليه إلا أن يأتيني بوَصلة «الكابل» من المستودع. وقال إن شركة «الكابل» ستعمد لاحقاً إلى إرسال الفاتورة في شكل تلقائي.

أخذ الثلج يتساقط وأنا متوجّه إلى السيّارة. وهو ليس كثيفاً جدّاً غير أنني شعرت

مع ذلك بالارتباك وأنا أحمل صندوقة الكرتون التي تحتوي على التلفاز. مررت بمتجر النبيذ، وأخذت التلفاز إلى السيّارة ووضعته على المقعد الخلفي، وعدت أدراجي. لا يلتصق الثلج على حذائي، لكنه لا يذوب على الفور أيضاً. ولما سألني مساعد صاحب المتجر عمّا أرغب، قلت بضع زجاجات من النبيذ الأحمر. وأي نوع من النبيذ بالتحديد؟ قلت بطريقة لاذعة «من النوع الطيّب المذاق». باعني ست زجاجات بسعر خمس.

عدت إلى المنزل وقد أصبحت الباحة بيضاء ولكنها غير خالية من آثار الاقدام. يتجه الأثر من قاعة الحلب إلى بوّابة الجسر المجاورة لخم الدجاج. و«هنك» جالس على البوّابة، يدخّن. ركنت السيّارة في الحظيرة، ورسمت آثار قدميّ إلى البوّابة حيث أخذ الثلج يدور كالدوّامة حول أذنيه الحمراوين.

سألني: «كم عليّ في الواقع البقاء هنا؟»

«هه؟»

«كم يتوجّب عليّ البقاء هنا؟»

قلت: «هذا ليس بسجن».

أخذ سحبة من سيجارته وعاد بعد برهة لينفث غيمة كبيرة من الدخان.

سألته: «هل تدخّن؟»

«تخلّيت عن التدخين يوم أمس الأول».

«وها أنت تعاوده من جديد».

«نعم».

قلت: «اشتريت تلفازاً، ومصباحاً للقراءة، وواقياً خلفيّاً من الوحل ونبيذاً».

«هل أتقاضى مالاً أيضاً؟»

«لقاء ماذا؟»

«ما أقوم به من عمل».

«وهل قمت بأي عمل بعد؟»

نظر إلى السيجارة التي أمسكها بين إبهامه وسبابته وهو يغمض عينيه الرماديّتين نصف إغماضة، ثم قذف بالسيجارة بعيداً.

«الطعام والسكن» قلت. «ومصروف جيبك طبعاً».

«كم؟»

«لا أدري». بدأت أشعر بالبرد، وسنضطر، إذا استمر الثلج في الهطول على هذا النحو،إلى نقل النعاج من الحقل المجاور لطاحونة الهواء إلى هنا، ومن ثم إلى إلقاء بعض التبن من فوق البوابة.

قفز «هنك» نازلاً وشرع في اقتفاء أثري.

سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«أعود إلى الفراش. أنا لا أحب الثلج».

«إلى الفراش؟»

«أين مصباح القراءة؟ فذلك الضوء الساطع يثير جنوني».

«جئت بلمبات بقوة أربعين شمعة».

«وخمسة وعشرين؟».

«هذه أيضاً». سرنا إلى الحظيرة. الـ «أوبل كاديت» تطقطق تحت غطاء المحرّك. فتحت الصندوق وأخرجت المصباح وسرت مبتعداً على الفور. اختفى في قاعة الحليب. وبقيت وحدي أنظر، وأنا غير مصدّق، إلى الواقي من الوحل الذي أحمله بيدي اليسرى.

تمدّد على جنبه ووجهه إلى الجدار، وقد تغطّى كلّياً باللحاف المزيّن برسوم الحيوانات الأفريقية. مصباح القراءة على طاولة السرير والقابس في المأخذ. هل أدرك وحسب أنه لا يحتوي على لمبة؟ لم يتحرّك «هنك» عند دخولي. لا أعرف ماذا عليّ أن أقوله، وبالتالي لم أقل شيئاً. وضعت الكرسي التي أخرجتها من غرفة «هنك» تحت ضوء السقف. وأمكنني، ببعض الصعوبة، فكّ الكرة الزجاجية المجلّدة. أخرجت لمبة الخمس وسبعين شمعة من مكانها واستبدلتها بأخرى بقوة خمسٍ وعشرين. يوجد كتاب على مقربة من مصباح القراءة، لم يسبق لي أبداً أن سمعتٌ بمؤلّفه. مضى زمن طويل لم أقرأ فيه أي كتاب. برزت قطعة ممزّقة من إحدى الصحف من بين الصفحات، ووضعتُ لمبة الأربعين شمعة في مصباح القراءة. بقي «هنك» ممدّداً في مكانه، ولم يمكّنني من تنفّسه معرفة هل هو نائم أم لا. فقد جلس في هذا الصباح على بوّابة السدّ يدخّن كرجل، وها هو مستلقٍ الآن في السرير كطفل. لاحظت، من الشكل تحت اللحاف، أنه مستلقٍ وقد جذب ساقيه إلى أعلى. أعدت الكرسي إلى الجدار بجانب الباب ووضعت ثيابه على مقعدها. وعمدت أيضاً، بعد برهة من التردّد، إلى رفع سرواله التحتي الأبيض والقيته فوق باقي ثيابه أشبه بتتويجة من الكريما. لا تزال حقيبة ظهره على الأرض تحت النافذة التي غطّت نصفها طبقة رقيقة من الثلج. أشعلت الضوء قبل خروجي إلى بسطة الدرج، وسطع نور ناعم على السرير مضيئاً الزرافات الصفراء.

جررت الأريكة الموجودة قبالة النار إلى الوراء بعض الشيء ثم أدرتها بزاوية تسعين درجة، بحيث باتت تعطي ظهرها لغرفة نومي. أدّى نقل الأريكة إلى تجريح الطلاء. وتحوّلت غرفة الجلوس من غرفة طويلة، إلى واحدة عريضة. جلبت، قبل وضع التلفاز في الزاوية، صندوقة للبطاطا من الحظيرة، ونظّفتها بفرشاة قاسية، ووضعت التلفاز عليها، ووصلت أحد طرفي السلك في الثقب الذي في خلفية الجهاز والآخر في المأخذ الذي في الجدار– في الرابط الذي كُتب فوقه «تلفاز»، إذ يوجد رابط آخر كُتب عليه «ر». أشعلت التلفاز وظهرت الصورة على الفور محدثة جلبة

جهنمية. أطفأت الجهاز على الفور لأنني لا أعرف كيف أخفّض صوته. أحضرت كتيّب التعليمات، وجلست على الأرضيّة الخشبيّة وقرأته من أوله إلى آخره. أصبحت أعرف، بعد ذلك بساعة، كيفيّة عمل جهاز التحكّم عن بعد، وبرمجت نحو عشرين قناة حتى أصاب الخدر عجزي. وطليت من بعدها البقع المتضرّرة على الأرضيّة.

جلست، في المساء، وحدي إلى طاولة المطبخ. لم أرَ «هنك» أو أسمعه منذ دخولي إلى غرفته بعد هذا الظهر. سأصعد، بعد قليل، بالعشاء للوالد وليس لـ«هنك» الذي سينزل عندما يجوع. بحثت، خلال العشاء، في الصحيفة عن أخبار الدنمارك. ولم أجد شيئاً. ولا شيء كذلك بالنسبة إلى السويد والنروج أو فنلندا. ففيما يخص الصحيفة فإن اسكندينافيا كلّها غير موجودة، كما لو أنها أرض غير مُكتشَفة. وها هي الصحيفة مفتوحة على صفحة برامج التلفاز، بالرغم من معرفتي بأنني لن أتفرّج عليه لوحدي. فالتلفاز لـ «هنك»، وإذا تفرّج فسأتفرّج معه أحياناً.

تبدو زريبة الحمارين جميلة. توقّف الثلج عن الهطول، وانقشعت السماء، والقمر يكاد يكتمل. بلغت سماكة الثلج على السطح حاولى ثلاثة إنشات وقد التفّ بإتقان عند الأطراف. الحرارة تحت الصفر تماماً ولا أعتقد ان الجليد سيستمر حتى الصباح. وضعتُ بعض التبن في المعلف وجلست على البالات. شاهدت في الضوء الصادر عن المصباح آثار قدميّ وأنا أتوجّه إلى هنا من زريبة البقر. ينفث الحماران سحاباً عبر قضبان المعلف. ولولا ضجيج علكهما لساد صمت قاتل، صمت الشتاء. اعتمل فيّ توق كدت أنساه للتدخين. كم يستغرق تدخين سيجارة من الوقت؟ أخمس دقائق» أم عشر؟ عشر دقائق من الشهيق والزفير، ومن التفكير في إيقاع التدخين فيما يمتزج دخان السيجارة مع سحاب تنفّس الحمار. وإذا لم يلازم «هنك» سريره في الغد فسأجعله يزيل روث زريبة الحمارين.

٣١

«بقي طوال يوم أمس الأول في السرير».

«أتصوّر ذلك».

«ماذا؟»

«يفعل ذلك، يستلقي وحسب في السرير. وأفترِض أنه لا يتفوّه بكلمةٍ أيضاً».

«أحياناً يتحدّث كثيراً، لكنه لا يقول شيئاً عندما يستلقي في السرير».

«كلاّ، وكأنه في نوعٍ من الغيبوبة».

«يمكنك تكرار ذلك».

«كما لو أنه يطفئ نفسه».

«بالأمس أطعم العجول الصغيرة ووضع واقياً جديداً من الوحل على درّاجة الوالد القديمة».

«جيّد».

«لكنّه رفض رفع الروث من زريبة الحمارين».

«أهذا ما فعله؟»

«نعم. قال إنه لا يريد أي علاقة له بالحمارين».

«يمكنني تفهّم ذلك».

«أنا لا أستطيع. الجميع يحبّون حماريّ».

«أما هو فيخاف».

«لماذا، بحق السماء؟ فابنا الجيران يتمدّدان تحتهما في الزريبة».

«تعرّض هنك لرفسة حمار وهو صغير».

«لا!»

«بلى. أحضر فيان حماراً صغير القامة هديّة للفتاتين، اعتدنا إبقاءه على العشب بين زرائب الخنازير. ولسببٍ من الاسباب دبّ هنك من حوله على الأربع، فهاجمه الحمار. وأصابه عند الجهة اليسرى من رأسه، وبقي أسبوعاً في المستشفى».

«أهذا هو سبب الندبة؟»

«نعم. كان في الرابعة أو الخامسة».

«وماذا عن الحمار؟»

«بيع في اليوم التالي. قال فيان للتاجر أن حوّله وحسب إلى وعاء كبير للصمغ». صمتت «رايت» لبرهة. «ما الذي يفعله الآن؟»

«لا أعرف، فهو في الخارج». وصمتُّ أنا الآخر. «يريد المال».

«ولماذا؟»

«لقاء العمل الذي يقوم به».

«هل تعلم أنني لم أفكّر بهذا قط؟»

«ولا أنا».

«لا تعطِه أي مال».

«ولِمَ لا؟ فهو يعمل، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكنك تطعمه وتؤمّن له سقفاً فوق رأسه. وأنت لا تعوم على المال، أليس كذلك؟»

«رايت، بالكاد أنفقتُ أي شيء طوال حياتي. وكذلك والدي».

«كلِّفه ببعض الطبخ أيضاً».

«صحيح؟»

«إنه طبّاخ محترم. ما هو في الواقع رأيك به؟»

«يبدو فتى لطيفاً، ولو أنه شديد الحساسيّة».

«نعم، شديد الحساسية، صحيح. لكن هل هو...عدواني؟»

«عدواني؟ لا على الإطلاق. لماذا تسألين؟»

«ما من سبب. هل آتي أنا أيضا عندما يستقر بعض الشيء؟ سيمكنني عندها القيام لفترةٍ ببعض الأعمال النسائية، كالطبخ والغسيل..».

حان الوقت لوضع حدّ لهذه المكالمة الهاتفية. حاولت أن أقول بالشكل الحاسم الممكن: «لا، سنتدبّر أمرنا». وقد مضى بعض الوقت الآن وأنا أحدّق بقلق إلى الصحيفة.

«سأتصل من جديد في الأسبوع المقبل».

«حسناً».

«الودا ع، يا هلمر».

«وداعاً، يا رايت». وأقفلت السماعة.

ذهبت مرّة إلى «هيلو»، إلى مزار «ماريان». أرادت والدتي زيارته بالرغم من أنها لا تملك عظمة كاثوليكيّة واحدة في جسمها. أخذتها إلى هناك بالسيارة في يوم من أيام الأسبوع، في أيار/مايو، منذ نحو ثلاثين عاماً. كُتب على الجدار الأماميّ بحروف كبيرة (بالفسيفساء، على ما اعتقد)، «إلى يسوع عبر مريم». ولماذا أذكر ذلك فجأة؟ «رايت» تحيّرني. توقّفتُ عن التحديق إلى الصحيفة

وسرت إلى المطبخ. إنه شباط/فبراير في الخارج: بَرَدٌ ومطر جليدي والقليل الغريب من الشمس.

٣٢

ركعت على سريري، بعدما حثّني «هنك» على الهدوء، وخرج من غرفة نومي على رؤوس أصابعه، بسرواله التحتي الأبيض الكبير، وشبكت ذراعيّ على حافة النافذة وأسندت عليهما ذقني وحدّقت إلى الخارج. فاحت رائحة مياه القناة الدافئة وقرميد السطح القديم الذي كوته الشمس. سطع القمر بنور قوي أمكنني معه رؤية أرنب في الحقل على الجانب الآخر من القناة. أرنب وحيد بدا أنه يبحث عن شيء ما، يروح جيئة وذهاباً ويقف بين الحين والآخر للاستماع، وقائمتاه الأماميتان متدليّتان. الحقل من وراء الأرنب خالٍ حتى السدّ. فلا بقرَ ولا خراف. وفكّرت بأنه تم فصل البقرات عن الثيران.

نافذة غرفة نوم «هنك» مفتوحة أيضاً. أخذا يهمسان بهدوءٍ شديدٍ فلم أتمكّن من تمييز أي كلمة. تخيّلت نفسي وأنا جاثم، حافي القدمين، على المزراب، وقد تمسّكت بقوة بالنافذة المفتوحة، ورأسي أقرب ما يكون إلى حافتها. استحال عليّ التمدّد من جديد، فسحبت الغطاء وخرجت من السرير وسرت إلى الباب وفتحته بحرص وانسللت إلى بسطة الدرج. انتظرت لبرهة حتى تعوّدت عيناي على الظلمة. خطوت بضع خطوات وركعت أمام باب غرفة نوم «هنك». لوحات أبوابنا قديمة مع ثقوب للمفاتيح من الحجم الأكبر من المعتاد. لم أر في البداية سوى حركة، غير أن الأشكال أخذت تبدو للعين أيضاً بعد برهة. لا يظهر من «رايت» شيء إلا أسفل ساقيها، فدسست يدي داخل سروالي التحتي. اعتدنا في تلك الأيام ارتداء سراويل

تحتية بيضاء كبيرة ذات مطّاط قوي. وهي دائماً نظيفة لأننا – على حد قول أمي – لا نعرف متى قد ينتهي بنا الأمر في المستشفى. ركّزتُ كثيراً على المراقبة بحيث فاجأني ارتعاش عضوي عند بطني. وشرعت أتابع حركات «هنك» بعينيّ وبيدي، إلى أن أصبت بتشنّج في ساقي المرفوعة واضطررت إلى الوقوف. نظرت، في خلال ذلك، إلى المنور الصغير عند نهاية بسطة الدرج وقد أتاح لي رؤية أشجار الحور التي أضاءها القمر، ورؤية نفسي وانا أنهض عند باب مقفل وإحدى يدي داخل سروالي التحتي. طويت أصابع قدمي للتخلّص من التشنّج في بطّة ساقي.

لم استطع، لسببٍ من الأسباب، العودة إلى غرفة نومي. ربما لأنه في وسعي سماعهما من هناك، ولمعرفتي أنه يمكنني رؤيتهما أمامي. توجهت على رؤوس أصابعي إلى باب الغرفة الجديدة المفتوح دوماً، دخلت إليها وتمدّدت على السجّادة الزرقاء تحت النافذة. غفوت واستيقظت باكراً في الصباح التالي. عندها فقط عدت إلى سريري. و«هنك» لم يعد بعد.

نحن في آب/أغسطس ١٩٦٦، أي منذ نحو أربعين عاماً. لا أفهم أحياناً كيف أمكنني أن أخطو بالعمر إلى هذه السن المتقدّمة. ولا يزال يمكنني، عندما أنظر في المرآة، أن أرى وراء سيمائي المسفوعة ابن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. ولا أزال أسأل نفسي من الذي كنت أراقبه في تلك الليلة.

٣٣

«من أين جئت؟» سأل «رونالد».

«برابنت». قال «هنك».

«هاي» قال «رونالد» وهو ينظر إليّ، «إنه المكان الذي جاءت منه تلك السيّدة».

«هذا صحيح» قلت. «تلك السيّدة والدة هنك».

«أتعمل هنا؟» سأله «تون».

«نعم».

«وأين تنام إذاً؟»

«فوق».

«هل تلك السيّدة هنا أيضاً؟»

أجبته: «لا، يا رونالد، هنك وحسب».

وسأل «تون» «هنك»: «أيمكننا إلقاء نظرة في وقتٍ من الأوقات؟»

«بالتأكيد».

قفز «تون» و«رونالد» على الفور. ولا أذكر أبداً أنهما صعدا إلى فوق من قبل. وهذه فرصتهما، حتى أن «رونالد» تخلّى عن نصف كعكته في سبيل ذلك.

«هيّا بنا» قال «هنك». وبدا فجأةً كبيراً جدّاً، أو أن «تون» و«رونالد» هما اللذان يبدوان صغيرين؟ خرجوا من المطبخ. وسمعت «رونالد» يصيح بعد برهة: «هذا الدرج شديد الانحدار!»

توجّهتُ إلى النافذة الجانبيّة وحاولت النظر إلى منزل «آدا». نافذة مطبخها بعيدة بعض الشيء. وفعلت أمراً لم أفعله أبداً من قبل. توجّهت إلى الدُرج وأخرجت المنظار. سمعت أصوات «هنك» و«تون» و«رونالد» من فوق، ولم استطع تمييز ما يقولونه. عدت إلى النافذة الجانبيّة، ومعي المنظار هذه المرّة، وعلى بعد أكثر من خمسمئة متر، عند نافذة مطبخ المزرعة المجاورة، كانت «آدا» تسترق النظر إليّ بمنظارها.

لا يوجد ما يريح في هذا الوضع، بغض النظر عن أن أمام عيني كلّ منّا ما يمنعنا من النظر مباشرة واحدنا إلى الآخر. لا أعرف ما العمل، و«آدا» كذلك لا تعرف ما العمل. كما لو أننا التحمنا معاً بقطعتين من البلاستيك وبعض العدسات. وأوّل من ينزل منظاره يخسر ويعرف أن الآخر سينظر إليه وهو ينسلّ خلسة. عندها رفعت «آدا» يدها ولوّحت بها بحذر. ردّيت بتلويحة فاترة من يدي. سمعت «هنك» يقول من على فسحة الدرج، «دعوني أمضي أوّلاً». فأنزلت المنظار، من دون أي تفكير في الربح أو الخسارة أو الانسلال خلسة، ووضعته في مكانه.

صاح «رونالد»: «سمح لي هنك بتجربة الووكمان خاصته!»

«و؟» سألت وأنا أدّعي التفتيش عن شيءٍ ما في الدُرج.

«قدّر تون أن هنك يحتاج إلى ملصقات على جدرانه».

قال «هنك»: «يعتقدان أنها عارية بعض الشيء».

«وسنذهب لصيد السمك،» قال «رونالد».

وجاوبه «هنك»: «عندما يحل الربيع».

«صحيح» قلتُ، «فالسمك كلّه يقبع الآن في الوحول».

قال الوالد، «كان الصبيّان فوق منذ دقيقة».

«نعم، أراهما هنك غرفته».

«لم يأتيا لرؤيتي».

«رونالد يخاف منك، ألم تلاحظ ذلك عشيّة رأس السنة؟»

«يخاف؟ لماذا؟»

«لأنّك رجل عجوز».

«لم يسبق له قط أن خاف منّي».

«عندما كنت قادراً على السير».

ها أنا استخدم غرفة نوم الوالد مكاناً للاختباء. لا يزال «هنك» و«تون» و«رونالد» في المطبخ، يشربون الشاي ويأكلون الكعكة. لا استطيع، بفعل توتّري الشديد، إنجاز أي أمر مهما كان كبيراً أو صغيراً. «آدا» ومنظارها، «هنك» والصبيّان معاً، المحادثة الهاتفية مع «رايت» قبل بضعة أيّام. توجّب عليّ الخروج من المطبخ، ولا يزال الوقت باكراً جداً على الذهاب والمباشرة بالحلب. فأنا، فوق، محاط بالأيام الغابرة، التكتكة المملّة للساعة، الصور، سرير الأهل. والوالد نفسه. جلست على الكرسي عند النافذة. الغراب الأبقع يغسل ريشه على غصن شجرة الدردار. فحتى الطير أصبح مألوفاً الآن.

«كيف تسير الأمور مع هنك خاصتك؟»

«جيّدة».

«لا أراه هو الآخر هنا أبداً».

«أيبدو لك ذلك مستغرباً؟»

«في الحقيقة..».

«سأجعله، قريباً، يساعدني في إعادة تسييج حقلة الحمارين».

يجلس الوالد مستنداً إلى لوح السرير وقد وضع وسادتين من خلفه. عيناه، اليوم، صافيتان. رفع الكوب عن طاولة السرير وارتشف ملء فمه ماء. بقي الكوب يرتجف إلى أن أسنده على شفتيه. أبقى عينيه عليّ منذ لحظة جلوسي على الكرسي. وقال: «لو أنه الربيع».

«لا تشرب الكثير. لو فعلت فستضطر إلى التبوّل».

«أدركُ أنني انتهيت».

«ولكن؟»

«أريد بعد ربيعاً آخر».

يضحك «تون» و«رونالد» في الجهة المقابلة لنا من تحت.

سألني: «لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ لماذا لا تستدعي الطبيب؟ لماذا قلت لآدا أنني أُصبت بالخرف؟»

لم يعد مخبأي يوفّر لي أي ملجأ. فحتى الآن أوحت تكتكة البندول البليدة بجوّ من الخلود، وإذا بها تتحوّل إلى نبض مشؤوم للوقت الآخذ في الاضمحلال. حدّقت بمائيات الفطريات الست وتساءلت عمّن جلبها إلى المنزل ومتى.

«ما الذي فعلتُه يا هلمر؟»

يسألني عمّا فعله ويناديني باسمي. تشوّشت نبتة الفطر، وعليّ أن أتماسك. ثم ارتفع صوت جديد من تحت.

«ها هي آدا» قال الوالد.

نظرتُ إليه. لا يزال يمسك الكوب الزجاجي بيده، ويده تستند إلى البطانية. نقّيت حنجرتي، وقلت «ما نحتاجه تماماً».

«أريد أن أعرف، يا هلمر».

«تلفاز!» صاحت «آدا»، بصوتٍ مرتفع جدا سمعناه ونحن فوق.

«تلفاز؟» سأل الوالد.

«نعم، يريد هنك مشاهدة التلفاز، فسيصاب من دونه بالملل ليلاً».

«يبدو أنك ستفعل أي شيء من أجله».

«آه..».

«أريد أن أعرف».

«ستعرف أما الآن فسأنزل إلى تحت».

«كنت لتقوم بأي شيء في سبيل شقيقك أيضاً. أي شيء على الإطلاق».

«وأنت أيضاً» قلت: «من أجل ابنك».

«نعم» قال. «وأنا أيضاً». ووضع أخيراً الكوب على طاولة السرير، فقعقع على اللوحة الرخاميّة.

«هنك» لوحده في المطبخ، يقف عند النافذة الأمامية. وذراعاه الطويلتان متدلّيتان على مقربة من جسمه.

«كيف تجد المكان هنا، يا هنك؟»

«لا بأس».

«هل ستهتم بالعجول الصغيرة قريباً؟»

«بالتأكيد».

«أين ذهب الجميع؟»

«ذهبت تلك المرأة ذات العَلَم (شقّ في الشفة العليا) للإتيان بسجّادة».

«سجّادة؟»

«نعم. تعتقد أن غرفة الجلوس فارغة».

«اسمها آدا».

«أعرف».

«فلنذهب إلى العمل».

«حسناً».

سحب كل منّا بذّة عمله من ملحق المطبخ. يمكنني القول كم تقلّص الوالد من الطريقة التي تتسع فيها بذّاته على «هنك». فهي تضيق عند ملتقى الساقين،

وأكمامها قصيرة جدّاً، وينقصها أحد الأزرار. يوجد شيء مستطيل في واحدة من جيوب الصدر؛ لا بدّ وأنها علبة السجائر. أرى أن سلّة الغسيل ممتلئة، وسأقوم هذا المساء بغسل قسم منها. دخلنا إلى قاعة الحلب معاً، فبقيت فيها فيما تابع «هنك» سيره إلى زريبة العجول.

جاءت «آدا» بعد ذلك بنصف ساعة تحمل تحت ذراعها سجّادة ملفوفة. لم أرها وأنا جالس بين البقرات إلا عندما نطقت باسمي. احمرّت خجلاً. وقالت: «جئتك بسجّادة».

وصلتُ الأنبوب بخط الحلب وخرجت من بين البقرات، وقلت: «ضعيها في ملحق المطبخ».

«حسناً» قالت وهي تقف في مكانها.

«انفضح الأمر».

«نعم، انفضح الأمر».

لا يوجد، عدا ذلك، ما يُذكر في شأنه. أمكنها القول إنها لم تقم بذلك من قبل (وهذا غير صحيح، على ما أظن)، وأمكنني قول الأمر نفسه (وهذه هي الحقيقة). أو أمكننا القول إننا لن نكرر ذلك. لكن ما الفارق؟

«فتى لطيف».

«هنك».

«شرع تون ورونالد بالفعل في لعب دور عاملي المزرعة».

«أراهما غرفته».

«أعطاني تون ملصقاً له. إنه في السجّادة».

«ضعيها في ملحق المطبخ».

تجاوزتني «آدا». وما كادت تبلغ الباب حتى استدارت: «هلمر؟»

«نعم؟»

«أنا..».

«نعم؟»

«دعك من الأمر». وغادرت قاعة الحلب ولم تعد. بعد قليل، وقد عدتُ إلى ما بين البقرات وتطلّعت من النافذة إلى الطريق، شاهدتها في الخارج. الطريق رطب وقد كتّفت ذراعيها ما جعل مشيتها تهتزّ بعض الشيء. خفف تلويحنا لبعضنا من سوء الأمر لكنه لم يمحه. رفعت البقرتان المجاورتان لي رأسيهما معاً، فجلجل رسناهما على القضبان المعدنيّة. إنهما تطالبانني بالخروج.

توجّهت إلى بوّابة الزريبة المفتوحة ووجدت «هنك» على تلّة الروث. عربة اليد انقلبت على جانبها على مقربة من اللوح الخشبي، وقد اندلقت محتوياتها. وهو يستخدم المذراة لكشط الروث عن الأرض ورميه على الكومة بأرجحة كبيرة من ذراعيه. حكّ رأسه لدى انتهائه، وأعاد العربة إلى وضعها ودفعها عائداً إلى زريبة العجول، ولم يلاحظني. تساءلت: ما الذي يفعله هنا، بحق الجحيم؟ وضعت يديّ في جيبتيّ الدافئتين ونظرت إلى السماء الغائمة وهي توشك أن تمطر، غير أن من الواضح أن النهارات أخذت تصبح أطول.

لاحقاً، توجّهت من جديد إلى باب الزريبة. وها هو يستند إلى الجدار في زريبة العجول، ووجهه صوب زريبة الخراف. رفع إحدى ساقيه وسوّى قدمه على الجدار. يدخّن سيجارة ويحدّق، إلى ما وراء كومة الروث، إلى زريبة الحمارين. بدا أشبه براعي البقر في دعاية قديمة للسجائر.

فلشتُ السجّادة، قبل العشاء، أمام الأريكة. وهي بلون المَغْرة الحمراء مع طرف يحتوي على أشكال باللون الأزرق الفاهي: دوائر ومربعات وصلبان. وفلش «هنك» ملصقه، وهو كناية عن فتاة عبوس ذات شعرٍ طويلٍ أشقر وقليلة الملابس.

سألتُ: «من هي؟»

ابتسم «هنك» وقال: «بريتني سبيرز».

«من؟»

«مغنّية».

«هذه هي إذاً فكرة تون عمّا تحتاجه غرفتك».

«يبدو كذلك».

«فتاة جميلة».

«هممم. طفوليّة».

«هل ستضعها على الجدار؟»

«سآخذها إلى فوق. ما هو عمر تون؟»

«تسعة؟ عشرة؟»

«ليس على أي حال من المعجبين ببريتني سبيرز».

«ولِمَ لا؟»

«لو أنه كذلك لوضع الملصق بنفسه».

عبرنا البهو إلى المطبخ. ردّ «هنك» ستارة النافذة الأمامية وأنا لا أزال أفكّر هل أردّها أم لا.

سألته، «لماذا فعلت ذلك؟»

«تصبح تلك النافذة، عندما تُظلم، أشبه بالمرآة».

«وبالتالي».

«لا رغبة لي في النظر باستمرار إلى نفسي وأنا أتناول الطعام».

«في غضون شهر سيكون هناك ضوء عندما نتناول الطعام».

«شهر؟»

«نعم».

«ذلك وقت طويل جدّاً».

نشاهد التلفاز، وأنا أجلس على الأريكة، و»هنك» ممدّد على جانبه على السجادة مستنداً إلى أحد مرفقيه. يحمل جهاز التحكّم ويقلب بسرعة بين القنوات. شعرت طول الوقت بالحاجة إلى الصراخ: «رويدك! توقّف!» كيف يمكن للمرء معرفة ما البرنامج إذا لم يمضِ عليه على الشاشة سوى ثانيتين؟ استسلمت ورحت أتفرّج على «هنك» يتفرّج على التلفاز. أخذ الأمر بعد فترة يصيبه بالملل. أخرج، قبل أن ينهض، بضع تنهدات عميقة. أعطاني جهاز التحكّم من دون أن ينبس ببنت شفة وخرج من الغرفة. أطفأت التلفاز وتوجّهت للوقوف أمام النار التي تهسهس بنعومة. تطلّعتْ إليّ والدتي، من صورتها المؤطّرة، بذلك التعبير الغريب المختلط، ولكن المغري والمتغطرس في آن. ورأيت أيضاً، للمرّة الأولى، درجة ما من درجات التيقّظ. فهي، من هناك، من على رف الموقد، تبقي نظرها على كل شيء. شاهدتُ بضع مرّات «هنك» وهو ينظر إلى الصورة، لكنه لم يسأل عن صاحبتها.

خرج «هنك» من الحمّام في الوقت الذي أخذت أعبّئ فيه الغسّالة. المنشفة ملفوفة حول خصره، وكتفاه لا يزالان رطبتين. وقال: «تكاد السجائر تفرغ منّي».

«سيتوجّب عليك المضي إلى مونّيكندام».

«أهي بعيدة».

«حوالى ثلاثة أميال. يمكننا الذهاب غداً بالسيارة».

«ربّما آخذ الدرّاجة» قال وسار متوجّها إلى باب الدرج، مخلّفاً على الأرضيّة الباردة الآثارالرطبة لقدميه.

«هل تحتاج هذه المنشفة إلى الغسيل؟»

استدار وسأل، «الآن؟»

«طبعاً، ولِمَ لا؟»

سحب المنشفة وانحنى لتجفيف قدميه، ثم رماها إليّ. أمسكت بها، والتفت القماشة الدافئة والرطبة حول ساعدي. توقّف في مكانه للحظة، فخوراً ومرتبكاً معاً. الندبة فوق أذنه اليسرى أكثر ظهوراً من العادة، ربّما بسبب المياه الساخنة. ثم فتح الباب واختفى في الطابق العلوي. ذكّرتني خطوته الأولى بالطريقة المرنة التي قفز فيها سائق الصهريج الشاب إلى كابينته.

٣٤

«هنك» و«هلمر». وُجدت في صفّنا في المدرسة الابتدائية هنا في القرية فتاتان توأمان. جلسنا «هنك» وأنا على طبقتين على مقربة من النافذة إلى جانب وعاء ضخم لنبتة ذات أوراق مغبّرة وقاسية. وجلست الفتاتان وراءنا. أصبحنا بالطبع صديقين وصديقتين، وهذا مُتوقّع. وهي علاقة أخذ يتبدّل فيها الشركاء، أي نحن، إذ لا تشبه الفتاتان، واحدتهما الأخرى، بالقدر الذي نشبه فيه، أحدنا الآخر.

كان «هنك» أسرع منّي؛ فردود فعلي بطيئة دوماً. وعندما أعود بالفكر إلى تلك الأيام، أجد «هنك» وهو يقوم دوماً بأمر ما – يستدير على الطريق على درّاجته «السكوتر» الصغيرة؛ ويقفز عن مقعده في الصف؛ ويجيب عن سؤال حين يقف مدير المدرسة منتظراً في معطفه الخردلي اللون وقد اسمرّت أصابعه من سجائر «كامل» من دون فلتر، عليّ أن أقول «إيه؟» قبل أن اتبعه. وأنا في الحقيقة لم أتماشَ مع

الأمر. أعيش أحلام اليقظة؛ وهو يتصرّف. وبعد فترةٍ أخذت الفتاتان التوأمان تدركان كلّما قمنا بالتبديل. لم تمانعا، ولم نمانع نحن أيضاً، فلدينا دور نعود إليه في الصفّ.

ارتدينا، «هنك» وأنا، الملابس نفسها، وقصصنا شعرنا، الواحد تلو الآخر، عند حلاّق القرية – الذي يقول في كلّ مرّة للوالدة أو لنا، «جميل وسهل» – واقتنى كلانا «سكوتر» صغيرة حمراء. ومع ذلك بقيت هناك فروقات. فعندما نرتدي القمصان، يُخرج «هنك» دائماً نصف قميصه خارج سرواله ويرفع ياقته إلى الأعلى. وشعره متفلّت أكثر من شعري (يتوقّف عن الابتلاع وهو يقص شعره. وقبل أن نخرج من الباب، يبصق على يده ويمرّرها على شعره. ولا يبالي إذا كان الحلاّق يراقبه) و»السكوتر» خاصته تسبق دوماً «السكوتر» خاصتي بعشر أقدام.

بدا – في نظرةٍ إلى الوراء، ودوماً في النظر إلى الوراء – أنه عرف ما يريده بالضبط، بينما لم أمتلك أي فكرة أبداً عن أي شيء على الاطلاق. ولا تزال تمكنني رؤية زجاجة محلول «البتولا» على مقربة من مرآة الحلاّق، وهي زجاجة ذات بخّاخ مطّاطي. اعتقد «هنك» أنها فاسدة، ولم أتأكّد من ذلك. ففيها شيء له رائحة.

لم أنتقل إلى غرفة النوم الخاصة (حيث يمضي الوالد الآن أيامه) إلا عندما أصبحت في الثامنة. لم أصمد وحدي إلا ثلاث ليال. تسلّلت بعدها في الليلة الرابعة عائداً إلى غرفة نومي الحقيقية وزحفت إلى تحت البطانيات مع «هنك». «ماذا تفعل؟» همس لمجرّد أن يقول شيئاً، ولم أجب. استدار على جنبه، واحتضنته دافعاً بساقيّ إلى ما بين ساقيه. وبالرغم من أنه مرّ أكثر من سبعة أعوام على فطامنا واختفت طبقة الشحم منذ وقتٍ طويلٍ عن أقدامنا، فمن الممكن أنني صغت في تلك الليلة الذاكرة التي لا يمكن أن تكون لي: فصل الصيف، وقدماي تشعران بقدمين أخريين، ورؤية وجه أمّي من تحت، من فوق انتفاخة لطيفة باهتة، وذقنها، والأهم من ذلك رؤية عينيها الجاحظتين قليلاً، غير موجّهتين إليّ بل إلى نقطةٍ في مكانٍ ما في البعيد: اللامكان، الحقول، وربّما السدّ.

لم يأتِ أبداً إلى غرفتي. فغرفتي وحيدة ومهجورة، وافتُرض بي الانتقال إلى تحت منذ زمن بعيد. لا يُدرك والدي وحدة تلك الغرفة. وقرابة نهاية المدرسة الابتدائية، عندما رحلت الفتاتان التوأمان ولم نعد مجبرين على أن نكون صديقين لأحد، توقّفتُ عن الذهاب في كل ليلةٍ إلى غرفة نوم «هنك». ولم يعد ذلك يحصل إلا مرّةً في الأسبوع، وأحياناً مرتين.

كنّا، عندما يغطّي الصقيع النوافذ، ننام ببيجامتينا تحت كومة من البطانيّات. وعندما يدفأ الطقس نتمدّد عاريين تحت شرشف واحد. قولب كلّ منّا جسمه على الآخر. ومعاً ركبنا درّاجتينا إلى مونّيكندام: «هنك» إلى المعهد الزراعي، وأنا إلى الثانوية. نفترق كلّ النهار، غير أننا نأتي في كل بعد ظهر نمتطي درّاجتينا من اتجاهين مختلفين، ونلتقي في وقتٍ واحدٍ وساعدانا على المقودين نتحدّى معاً الريح والمطر. احتفلنا بعيد ميلادنا معاً، وتشاركنا الأصدقاء، وبقينا حتى الرابعة عشرة نستحم معاً، حتى ليل ذلك السبت الذي فصلنا فيه الوالد عن بعضنا: وقال، «الأول بدايةً، ومن ثم الآخر». وقالت والدتنا لاحقاً لما قصدناها للشكوى: «هيّا، هيّا. لم تعودا صبيين صغيرين». ما هَم؟ فكّرنا، لكننا لم نقل ذلك. ولم يمكن لأجدادنا تفريق أحدنا عن الآخر من خلال صوتينا. وبقينا نرتدي الملابس نفسها، ولم نشعر بالحاجة إلى التمييز. نذهب إلى طبيب الأسنان معاً (رغم إنني أصبت دوماً بتسوّسات أكثر من «هنك»)، نسبح معاً في بحيرة «إيسل»، ويتم الإمساك بنا معاً بإحكام بمؤخّرة رأسينا عندما نخادع وندفع بعيداً بطبقي الهندباء المسلوقة. وفي ذلك اليوم الجليدي من شهر شباط/فبراير، عندما تجرّأ الوالد وتجاوز السدّ، لم نجد أي صعوبة في الاندماج كزوجٍ من التوائم السياميّة. حصل ذلك بتلقائيّة تامة. ولو أنه خاطر، ولم يتمكّن الجليد، بالرغم من سماكته، من حمل السيّارة، لغرقنا كشخصٍ واحد.

ذهبنا في الصيف إلى طاحونة «بوسمان» الهوائية. وتعلّقنا على الدعائم الحديدية، أحدنا في مواجهة الآخر، والنعاج تنظر إلينا. شَحْم، وبشرة لوّحتها الشمس، وعشب جاف، وعَرَق مالح. غيوم مرتفعة وقبّرات لا يمكننا رؤيتها مهما جهدنا في

المحاولة. فنحن ننتمي، أحدنا إلى الآخر، صبيّان في جسم واحد.

إلى أن جاءت «رايت». ولمّا ذهبتُ إلى غرفة نومه في كانون الثاني/يناير ١٩٦٦ وحاولت الصعود إلى سريره، أبعدني. «أغرب عن وجهي» قال. ولمّا سألته عن السبب أجاب: «أحمق». غادرت غرفة نومه وسمعته يتنهّد بازدراء، وسرت عائداً إلى سريري وأنا أرتعد. الطقس جليدي، وبدأت السنة الجديدة بدأت للتو. وفي اليوم التالي غطّت قشرة من الجليد النوافذ من أسفلها إلى أعلاها. أضحينا زوجين من التوائم بجسمين.

٣٥

كان عامل المزرعة بسيطاً كاسمه: «جاب». كبير اليدين، عريض الوجه، قصير الشعر أشقره، قويّ البنية، معقوف الأنف، وقد كُسرت إحدى أسنانه الأماميّة. ولطالما بدا عجوزاً بالنسبة إليّ. جاء للعمل عند الوالد، وكنّا «هنك» وأنا في حوالى الخامسة، ولا بدّ أنه بلغ الثلاثين في خريف ١٩٦٦ بعبارات أخرى، عجوز يومها، وشاب جدّاً اليوم.

فعلها «هنك» و«رايت» (وأنا قد رأيت)، وحُظرت عليّ غرفة نوم «هنك» لأكثر من ستّة أشهر، ولم أكن صبيّ الوالد (خصوصاً وإنني بتُّ الآن متروكاً وحدي وسأذهب قريباً إلى أمستردام لتعلّم «الكلمات العويصة»)، والوالدة في حالة ضياع تام (لم يبصر تحالفنا النور بعد، وهي تتفادى النظر إليّ)، وبقي شهر آب/أغسطس دافئاً باللون الأصفر الذهبي. إنه الطقس المناسب لارتداء السراويل القصيرة، لكن نصف جسمي مصاب بالبرد، ولا أعرف إلى أين أزحف.

كان «جاب» حاضراً دائماً، وهو ـ مثل البقرة والخروف والمِسْلفة أو خمّ الدجاج – جزء من المزرعة. «مرحى يا صبيّان» يقول عندما يرانا. وعندما نلتقي به، نكون دوماً معاً إلا وقت التزلّج. باعد بنفسه بلطف، ربّما لأننا ابنا المزارع، وربّما لأن ليس لديه ما يقوله لنا. وهو بالكاد يأتي إلى المنزل، بل يذهب إلى كوخ الفلاّح لشرب القهوة وتناول الطعام. كان عازباً لما أتى، وبقي عازباً. جاء في البداية أقارب له لزيارته، وتوقّفوا عن ذلك لاحقاً.

تمدّدتُ ليلاً على أرضيّة الغرفة الجديدة، ولم أتمكّن من النوم لأنني استمرّيت في سماع تلك الحركة، وتذكّرت الحادثة بين الوالد والعامل. عندها فقط أدركت أن «هنك» لم يكن موجوداً. وعرفت ـ وأنا نائم تحت النافذة، وثقب المفتاح أشبه برقعة سوداء أنثوية لا تزال موجودة وراء جفوني – أن وقوفي وحدي وراء الوالد هو السبب الذي جعل العامل ينظر إليّ.

كانت تلك المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى الكوخ منذ أن أقام فيه «جاب». لم أعرف ما سأقوله، ولم أخرج بسببٍ لذهابي إلى هناك. شعرت أن عليّ القيام به وحسب، وتمّ ذلك في مساء أحد أيام الأسبوع.

فتح الباب الأمامي، وقال: «مرحى هلمر،» كما لو أنني أزوره في كل يوم. ارتدى قميصاً ذا أكمام قصيرة وقسمه الأعلى غير مزرّر. اسمرّت يداه، وقد مرّت أربعة أشهر بالتمام منذ أُعطي الإنذار. لم أُفاجأ بمعرفته من أكون، وقد سُررت لذلك، فـ«هنك» لن يأتي طارقاً بابه. سار عبر البهو الصغير إلى غرفة الجلوس الصغيرة، وأقفلت الباب الأمامي. كانت إحدى نوافذ غرفة الجلوس مفتوحة تسندها خشبة طويلة. وهناك كومة من الكتب على المنضدة في وسط الغرفة، ولفافة سيجارة تحترق ببطء في منفضة بجانبها كيس التبغ شبه الفارغ، قرأت عليه: «فان نيل» تبغ للّف من النوع المتوسّط القوّة، وإلى جانب الكيس رزمة من ورق لف السجائر من نوع «ماسكوت». خرجت موسيقى هادئة من مذياع كبير، بينما جلس على الأريكة مشيراً إلى أحد الكراسي. جلست ومسحت جبيني.

«حرّ» قال.

«نعم» قلت.

عَبَرَ درّاجُ أمسيةِ صيف، ولحقه آخر بعد وقت قليل.

«أتود أن تشرب شيئاً؟»

«طبعاً».

«جعة؟ فهذا ما أتناوله».

«حسناً».

نهض وأحضر زجاجتي جعة من خزانة المطبخ، فهو لا يملك برّاداً. وضع الزجاجة، التي كانت أصقع مما توقّعت، في يدي وعاود الجلوس ببعض من الترهّل، وإحدى ذراعيه على مسند اليدين واليد الممسكة بالبيرة في حضنه. العامل نظيف بعد أسابيع بعيداً عن أي روث أو جلد بقر دهني، أو مازوت أو تراب. وواصلت اللفافة احتراقها البطيء.

سألني: «أين تسبح؟»

فقلت: «على مقربة من أويتدام».

«أنا أسبح في ملاذ العاصفة».

«ملاذ العاصفة؟»

«عند أوّل السدّ المؤدّي إلى ماركن».

«آه. هناك». ارتشفت جعتي ومسحت جبهتي من جديد. هو لم يعلّمني السباحة، وحدّقت بكومة الكتب وادعيت أنني أقرأ عناوينها على ظهورها، فيما أحاول أن أتخيّل الطريقة التي سيعلّمني فيها العوم.

تململ على الأريكة. وها هو يضع يده التي كانت على المسند في حضنه

أيضاً، وقد التفّت أصابع اليدين برخاوة حول زجاجة الجعة. سألني: «ما الخطب؟» وتحدّث عبر شفته العليا كاشفاً عن أسنانه الأمامية غير المتساوية.

لم أقل شيئاً، واستمرّيت في التحديق إلى الكتب.

«أهو شقيقك؟»

هززت رأسي وبلعت ريقي.

«مع تلك العصفورة؟»

«نعم» قلت.

لا يزال الوقت مبكراً، إلا أن الصيف شارف على الانتهاء. يأتي معظم الضوء من باب المطبخ المفتوح. أخذت القناة التي وراء الكوخ في التبخّر وبدأت طبقة خفيفة من الضباب في الظهور فوق الحقول. احترقت اللفافة كلّياً، ولا يزال دخانها معلّقاً في غرفة الجلوس الصغيرة مشكّلاً طبقة أفقيّة منتظمة. نظرت إلى عامل المزرعة، وشعره القصير يلامس أسفل طبقة الدخان. رأيت ما توقّعت مشاهدته: يبادلني النظر بالطريقة التي تطلّع إليّ فيها حينها ـ ولا بدّ أنه كان قبل ذلك بعشرة أعوام – جيّاشاً، ويشعر بالتمرّد على والدي، ويبحث عن حليف. نهض، ودار الدخان من حول رأسه.

«هيّا بنا». قالها بلطف، بالطريقة التي طالما تحدّث بها معنا كل تلك السنين.

وضعنا الزجاجتين، في آن، على طاولة القهوة.

لم يمتلك سيّارة في ذلك الوقت، ربّما لأنه لا طاقة له بها. مضينا بالدراجة إلى «ملاذ العاصفة» وليس إلى السدّ على مقربة من «أويتدام». جلست على المقعد الخلفي متمسّكاً به لدى كل انحرافة. علّق منشفة على عنقه تطايرت أطرافها من تحت إبطيه وصفقت على صدري.

«شاهدتهما» قلت من وراء ظهره.

«شقيقك وتلك العصفورة؟»

«نعم».

انحرف إلى السدّ ودوّس ببلادة. وقال: «أعتقد أن ذلك هو الأفضل».

«ماذا تقصد؟»

«أنت لست شقيقك».

«لا، طبعاً».

رست بضعة مراكب في «ملاذ العاصفة». طرح درّاجته على العشب وسار على حاجز المياه، فما من أحدٍ في الجوار. خلع ملابسه وشق طريقه عبر كتل الصخور البازلتية إلى المياه. بدا أشبه بدرّاج سباق: اسمرّ ذراعاه وساقاه، إلا أن كتفيه وظهره وعجيزته فبيضاء بما يمكن للبياض أن يكونه. كان جسد «هنك» هو الجسد العاري الوحيد الذي عرفته. وهذا جسم أكبر بكثير، جسم غريب، وليس جسماً يمكنك أن تُقولب نفسك عليه. وما إن بلغتِ المياه ركبتيه حتى ألقى بنفسه فيها. وصاح: «هيّا» فخلعت أنا الآخر ملابسي، ولم أفهم بالتحديد ما الذي عناه بقوله «أنت لست شقيقك». راقبني أتسلّق بطريقة خرقاء الكتل البازلتيّة، ثم أخذ في السباحة: في نصف دوائر من حول طرف حاجز المياه القصير. رفع رَجُلٌ من على أحد المراكب يده مرحّباً. وسألت نفسي، للمرّة الأولى: هل يسبح «جاب» في العادة وحيداً، أو أنه يوجد عمّال مزارع آخرون في المنطقة يقوم معهم ببعض الأمور؟ شعرت بالإرباك، وهي المرّة الأولى التي أقوم فيها بشيء معه، والمرة الأولى التي يصبح فيها شخصاً غير شخص عامل المزرعة. وشعرت أيضاً ببعض الدوار بعد زجاجة الجعة تلك. إنه سبّاح رائع، فبعض ضربات ذراعيه تبعده عنّي في لحظةٍ نحو عشرين متراً. قال: «عليك إبقاء أصابعك مضمومة. ولا تنسَ أن تستخدم ساقيك» فركلت ساقيّ في المياه. «حاول أن تبقي رأسك في الماء وتنفّس من أحد الجانبين» فحاولت وكدت أختنق. ظننت أن في وسعي السباحة بالفعل، لكنه لم يوافقني الرأي. لم يمسك بي

بيديه في خلال أمثولة العوم، ربّما لأن الأمر غير مناسب، وربّما لأنني لم أعد ذلك الولد الذي حاول تدريبه على التزلّج.

كان قد أخذ يجفف نفسه بالفعل عندما خرجت من الماء وانزلقت على كتلة من البازلت المغطّاة بالطحالب. هويت إلى الأمام وتوفّر لي ما يكفي من الوقت لمدّ يديّ وإنقاذ نفسي، لكنني سقطّت مع ذلك بقوّة على ركبتيّ. لم يتمالك «جاب» نفسه عن الضحك، إلى أن جهدت في الصعود والسير على العشب في اتجاهه. «انت تنزف» قال. نظرت إلى ركبتي اليمنى، وشعرت بالحرارة فيها، وها أنا أدرك السبب. تطلّع من حوله وانحنى والتقط سرواله التحتي من على كومة ثيابه وربطه حول ركبتي. وناولني منشفته وقال: «جفّف نفسك، سأضمّدها لك لاحقاً عندما نبلغ المنزل».

أجلسني على كرسي وصعد إلى فوق. سمعته ينقّب في المكان، وعاد أخيراً حاملاً عدّة إسعافات أوّلية ضخمة، من النوع ذي الغطاء المستدير وله مسكة. ركع بقرب الكرسي وحلّ بعناية شديدة السروال التحتي قبل أن يُخرج من الصندوق زجاجة اليود. فكّرت بالمنزل وصرّيت على أسناني. ضمّد ركبتي بلفّها بشريطٍ عريضٍ من الشاش ثبّته بلصقة مطّاطية.لا يزال المذياع يصدر الموسيقا الهادئة، وهي نوع من أنواع الجاز. فكّرت في نفسي أن هيّا. وسمعت من وراء الكوخ، عبر نافذة المطبخ المفتوحة، سعال إحدى النعاج الجاف والنابح. نهض، ومرّر يده عبر شعري الرطب، أشبه بطبيب قرية عجوز يواسي ولداً متكدّراً، وسألني: «أتريد زجاجة أخرى من الجعة لتجاوز الخوف؟»

«حسناً» قلت.عدنا بعد فترة وجيزة لنجلس، كما في وقتٍ سابقٍ من المساء، متقابلين، وكلّ منّا يمسك بزجاجة جعة. لفّ «جاب» لنفسه سيجارةً وأخذ يدخّنها بصفاء. مرّت سيّارة، ثم عمّ الهدوء لدرجة أننا سمعناها تستدير عند السدّ بسرعة منخفضة على مسافة أبعد بعض الشيء. أنهيت جعتي ونهضت قائلاً: «سأذهب».

نهض «جاب» أيضاً. «لا أدري بالتحديد كيف يتم الأمر مع التوائم» قال، «غير أنه يمكنني أن أتخيّل أنهم في النهاية ينفصلون».

ما زلت أشعر بالإرباك، لكن ليس بالقدر الذي شعرت به قبل ساعة. فهو، مع السباحة وتدخينه البطيء وتضميده ركبتي وطريقته في رفع الجعة إلى فمه على غراري تماماً، بالكاد يبقى بعد الآن عامل مزرعة. وهززت برأسي.

قال: «الأفضل هو على قدم المساواة».

هززت برأسي من جديد، وشعرت بشفتي السفلى ترتجف. تقدّم منّي ووضع يده حول مؤخّرة عنقي. «سيتمّ الأمر» قال. وأوقف ارتجاف شفتي بتقبيلي على فمي بالطريقة التي قد تقبّل فيها جدّك مرّة في العمر عند وفاة جدّتك. «سيتمّ كلّ شيء في وقته» قال مرّة أخرى ودفع بي برفق في اتجاه الباب الأمامي. ولا يزال سرواله التحتي المدمّى ملقى على الأرض بجانب الكرسي الذي جلست عليه.

كانت الوالدة و«هنك» في المطبخ، والنور مضاء فوق الطاولة. «ما الذي حلّ بك؟» سألت الوالدة.

فأجبتها: «وقعت».

«ومن وضع الضمّادة بهذا الشكل؟» سألتْ وشرعت على الفور في النزول على ركبتها لنزع الضمّادة وإعادة وضعها بشكلٍ أفضل.

تراجعتُ وقلت: «جاب».

«أكنت عند جاب؟»

«آه، هه».

«وهل تناولت الشراب؟»

«نعم، الجعة».

قطّب «هنك» حاجبيه في وجهي.

كانت الأبواب كلّها مفتوحة، وتطلّعت عبر البهو إلى الوالد لأتفادى، بشكلٍ أساسي، النظر إلى «هنك» الجالس كلوحٍ من الحجرعلى كرسيه في غرفة الجلوس لا يتفوّه بكلمة. أحدث حفيفاً مبالغاً به فيٍّ الصحيفة التي لا يقرأها.

«رايت» ليست هنا، فهو، كما سبق وأشرتُ، أحد أيام الأسبوع، وحان الوقت تقريباً للذهاب إلى السرير.

قمت بعد ذلك بعدّة زيارات أخرى لـ«جاب» بين أواخر آب/أغسطس وأوائل أيلول/سبتمبر.

سألني الوالد بارتياب: «لماذا تستمر في الذهاب إلى جاب؟»

قلت: «ما من سبب».

«هل وجد مكاناً آخر للإقامة؟»

«لا أعرف».

«أو عملاً آخر؟»

«لا أعتقد ذلك».

«ما الذي تتحدّثان في شأنه إذاً؟»

«كلّ الأمور».

«لم تعتد أبداً الذهاب إليه».

«وها أنا الآن أفعل».

«غريب» قال الوالد ببطء. «غريب جدّاً».

شربنا الجعة وجلسنا متقابلين: هو على الأريكة، وأنا على الكرسي ذي الذراعين. شعرت بالرغبة في التدخين، لكنّني لم أفعل. بدا على درجةٍ كبيرةٍ من الهدوء. لم

يعرض عليّ أبداً كيس تبغه، ولم يتحدّث أبداً عن الوالد خلال أيّ من زياراتي، وهو بالكاد تكلّم على الإطلاق. وإذا حصل من كلام فأنا الذي قمت به. كنت صغيراً، ولم أفكّر إلا في نفسي. بالكاد سألته أي شيء. لا أعرف كيف حصل على هذا الأنف الملتوي، بل إنني لا أعرف حتى من أين يأتي. ومن أوائل أيلول/سبتمبر وما تلاه كان لدي الكثير لأقوله في شأن أيامي الأولى في الجامعة، والأساتذة المحاضرين، ورفاقي الطلاب. لم يُفاجأ بأنني لم أصبح مزارعاً، وقال: «أنت لا تنظر إلى الحيوانات بالطريقة التي يقوم بها شقيقك».

وسألته: «كيف ذلك؟»

لم يتمكّن من الشرح. «أنت مختلف، وترى الأمور بطريقة مختلفة. وهو ربّما نظر إلى تلك العصفورة بطريقة مغايرة أيضاً».

«لم أنظر إليها على الإطلاق».

«أترى؟»

ساعدني بطريقةٍ ما على أحد الأمور: إذ أمكنني وأنا في المنزل النظر في عين «هنك» وتجاهل «رايت» بدرجةٍ أو بأخرى. وبقيت فترةً طويلةً أسمعه يقول، «كلّ شيء يتمّ في وقته» حتى ما بعد رحيله.

المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى كوخ الفلاّح كانت في أواسط أيلول/سبتمبر. احتوت غرفة الجلوس على صناديق من الكرتون، ورفوف الكتب باتت نصف فارغة، والسجّادة ملفوفة وراء الأريكة، ولم يعد المذياع موصولاً بالكهرباء.

«سأرحل غداً» قال. «أخبر والدك».

وسألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

«أعود إلى فريسلند».

«أأنت من فريسلند؟»

وقال شيئاً بالـ«فريسيّة».

«ماذا؟»

«قلت: ألم تلاحظ لكنتي أبداً؟»

«لا، مطلقاً».

«مُرّ عليّ في وقتٍ من الأوقات».

«سأفعل».

لفّ يده الكبيرة مرّةً أخيرةً خلف عنقي. «أستكون بخير؟»

قلت: «بالتأكيد».

«جيّد».

لم يحصل ما انتظرت حدوثه في موعده، ولم أرَ «جاب» بعدها أبداً. ذهبتُ في الخريف، بين حين وآخر، إلى الكوخ الخالي. ففيه باتت لي أهمّية. بقيت رائحة التبغ تطوف فيه لفترة طويلة. وبعد ذلك بسبعة أشهر مات «هنك» وبعدها ببضعة أيام عدتُ إلى حلب البقرات.

وأنا من يومها أقوم بذلك.

٣٦

مرّت فترة الآن والطقس مستمرّ في الاستقرار. توقّع تقرير الطقس في الصحيفة، كما توقّعت الفتاة التي تقدّم النشرة الجويّة في التلفاز– ويبلغ بها الابتهاج حدّاً تبدو

معه دوماً وكأنها تلقي التحيّة عندما تتحدّث عن ارتفاع في الحرارة – طقساً مشمساً، لكننا لم نحصل إلا على الضباب، الضباب البارد. لكن الشمس عاودت الشروق أخيراً منذ نحو يومين، غير أن البرد استمرّ. إنه طقس شباط/فبراير المصقع. توجد طبقة من الجليد على القنوات، ولا ضرورة لإتعاب نفسي في الذهاب إلى البحيرة الكبرى؛ فالحرارة تزحف إلى ما فوق الصفر في النهار. شرع زوج «آدا» في تسميد الأرض بالروث، وهو ليس وحده في ذلك. فآدا نفسها نشرت غسيلها على الحبل. الطقس مثالي للأمرين لكنهما لا يشكّلان المزيج المثالي: الروث والغسيل النظيف.

أحبُّ شمس شباط/فبراير. قال «تون» في مثل هذا الوقت من العام الماضي: «الخشب اليابس جميل أيضاً». ولا أعرف ما الذي جعله يقول ذلك، لكنه محقّ ولو أن الأشجار والأجمات العارية من الأوراق ليست ميتة. فالشمس المنخفضة جميلة على الأغصان العارية. الغراب الأبقع أكثر تحفّزاً من العادة على غصنه في شجرة الدردار بعدما أخذ عدد الدرّاجين العابرين في الازدياد منذ الأيام القليلة الماضية. وللشمس تأثير مختلف على «هنك» لأنه لا يزال نائماً.

أيقظته هذا الصباح بقرعي الباب.

صاح بي: «ارحل».

«إنها الخامسة والنصف».

«فلتكُن».

«إنه وقت النهوض».

«انهض أنت».

«سبق وفعلت».

«ها ـ ها ـ ها».

فتحتُ الباب وتحسّستُ زر الضوء بيدي اليسرى وأشعلته. فردّ اللحاف إلى ما

فوق رأسه. الملحفة الملوّنة بالحيوانات الأفريقية في الغسيل، وهو ينام الآن تحت أحرف وأرقام باللون الأزرق الداكن. لا يمتلك «هنك» ساعة منبّهة. سألته: «ما الأمر؟»

«لا شيء».

«ولماذا إذاً لا تنهض؟»

«لا أشعر بالرغبة في ذلك».

«قم من تحت اللحاف».

«لماذا؟»

«بحيث أراك».

«لماذا؟»

«هكذا».

«لا تكن صبيانيّاً إلى هذا الحد».

«أنظروا من يتكلّم».

انزلق اللحاف نزولاً، وبدا شعره الزنجبيلي الذي نما وحان الوقت ليقصّه من جديد. حدّق إليّ بعينين ناعستين. يوجد «ووكمان» بين الثياب المكوّمة على الأرض بجانب الفراش، وبضعة أعقاب سجائر في المنفضة على طاولة السرير، وملصق «تون» – ولا يزال ملفوفاً – موجود عند حافة الجدار.

سألني: «هل يمكنك، إذا سمحت، أن تبتعد عن مدخل الباب؟»

«لماذا؟»

«يبدو الأمر رهيباً وأنت تقف مكانك على هذا الشكل. إنه مخيف».

دخلتُ إلى الغرفة الجديدة وجلست على الكرسي. زحل «هنك» في السرير إلى

الوراء بحيث استند كتفاه إلى الجدار. النافذة مفتوحة والجو بارد. وأمكنني، بالرغم من لمبة الخمس والعشرين شمعة، رؤية شعر يده وقد وقف. «ما الأمر يا هنك؟»

«قلت لك، لا شيء».

«ولماذا إذاً لا تنهض؟»

«أنا خائف».

«ممّ؟»

«لا أعرف».

«لا أفهم».

«ولا أنا أيضاً».

استمرَّ الفتى والرجل فيه في التنقّل جيئة وذهاباً. أشعرُ أحياناً بأن عليّ الإمساك بيده، وهو في أحيان أخرى يعلو عليّ. إنه متقلّب. تناول علبة السجائر عن طاولة السرير وأشعل واحدة نافخاً دخانها عالياً صوب النافذة المفتوحة.

قلت: «أفضّل لو أنك لم تفعل ذلك».

«لا شكّ» قال. ثم غيّر نبرته وقال: «أسمع أصواتاً في الليل».

«أي نوع من الأصوات؟»

«حيوانات. أقلّه آمل ذلك».

«أهذا حقّاً سبب للخوف؟»

«أصوات قصيرة نابحة عالية النبرة».

«إنها طيور الزِقّة».

«تدفعني إلى الالتصاق بالجدار. ووالدك يسعل في السرير».

«هل ذلك رهيب إلى هذا الحدّ؟»

قال بهدوء: «أشعر بالأسى عليه».

«ادخلْ عليه واجلس معه أحياناً».

ها هو ينظر إليّ مرّة أخرى كما لو أنني طلبت منه تكفين ميت. «طيور الزقّة» قال. «أهي تلك السوداء صاحبة الأقدام السخيفة الكبيرة؟»

«صحيح».

سحق السيجارة، وانجرفت صوبي رائحة عقبها المحترق النتنة. عاود شدّ نفسه إلى السرير وسحب اللحاف من جديد إلى فوق رأسه. وسأل، «هل لك أن تطفئ النور قبل أن تغادر؟»

ناداني الوالد عندما مررت من أمام غرفته. فتحت الباب لكنني تركت النور مطفأ ولم أدخل.

«هل يدخّن هنك في الغرفة الجديدة؟»

«نعم».

«أبلغه أن هذا غير مسموح».

«فعلت. لكنه لا يصغي».

«أحتاج إلى الذهاب إلى المرحاض».

«لاحقاً».

فعلت كلّ شيء بنفسي هذا الصباح. لم أجد الأمر سهلاً، ولم أعد إلى المنزل إلاّ عند التاسعة. اضطربت العجول، التي باتت الآن متعوّدة على «هنك»، فيما أقوم أنا بالأمور بطريقةٍ مختلفةٍ عنه. سأخرج الحمارين من جديد بعد بضعة أيام عندما تصبح النهارات أكثر دفأً.

كان سائق الصهريج الشاب ينظر إلى مقياس كمّية السوائل عندما خطوتُ إلى قاعة الحليب. وتسارع في ذهني، في الوقت الذي استغرقته للوصول إليه، عدد من الأسماء التي تبدأ بحرف «غ» إلى أن أطبقت على اسمه. فمنذ جاء «هنك» إلى هنا وأنا أريد تعريفه على «غالتجو». لا أعرف السبب، وجل ما أعرفه أنني أردت رؤيتهما معاً والوقوف بينهما.

قال: «كيف تعمل ليكون هذا الشيء بمثل هذه النظافة؟»

فأجبت: « تشطيف جيّد ومياه ساخنة».

«وجدوا بديلاً من آري».

«أصبح لديك رفيق عمل جديد إذاً».

«نعم ولا».

«نعم ولا؟»

«سيتولّى هذه المنطقة، وسأنتقل إلى قطاع آخر».

«ألن تأتي إلى هنا بعد الآن؟»

«لا».

عادت ابتسامته الأبدية لتصبح ملتوية من جديد.

«أين؟»

«آه، على مقربة من بوفنكارسبل. فأنا أقيم فيها».

«أتمنّى لك الأفضل إذاً». مددت يدي فصافحها وهو متفاجئ بعض الشيء. استدرتُ وسرت إلى باب ملحق المطبخ. «أراك في الجوار، يا غالتجو،» قلتُ قبل الدخول إلى الملحق.

فقال: «هممم، نعم».

أغلقت الباب ورائي وتوجّهت إلى باب الزريبة في الجانب الآخر من الغرفة، ويوجد بجانبه واحد من مفتاحي الضوء. أطفأت النور وعدت للوقوف على بعد أربع أو خمس أقدام أمام النافذة. حدّق سائق الصهريج الشاب بالباب، وهزّ رأسه، ونظر إلى الخزّان. حلّ الخرطوم بعد فترة قصيرة ولفّه حول دولابه، ونزع خطّاف غطاء الخزّان وأنزله بعناية. عبأ إضبارة، وتطلّع مرّة أخيرة في أرجاء قاعة الحليب، ثم فتح باب الكابينة وقفز صاعداً إليها بالخفّة السابقة نفسها. اختفى الصهريج ودَفَقَ الضوء الساطع إلى قاعة الحليب، وسَطَعَ الخزّان.

التضامن أمر جيّد.

سرت إلى الداخل، صعدت الدرج وجلبت الوالد إلى تحت حيث وضعته على كرسي المرحاض.

«آخ» سمعته يتمتم.

«ما الأمر؟» سألته عبر باب الحمّام المقفل.

«هذا مؤلم».

«امسح كما يجب» قلت.

وقال من جديد: «إنه يؤلم».

فتحت الباب، فإذا به يجلس على كرسي الحمام أشبه بعصفورٍ شبه ميت، وبيده المتردّدة قطعة من ورق التواليت. نظر إليّ بعينين واسعتين عاجزتين. فقلت: «ابقَ هنا وحسب». سرت إلى المطبخ وأخرجت قطعة من الفانيلا من خزانة البياضات. فتحت المياه الساخنة ورطّبت الفانيلا، وسرت عائداً إلى المرحاض. «عليك الانحناء إلى الأمام بعض الشيء». ففعل. مسحت عجزه بعناية بضع مرّات بالفانيلا الدافئة، وقلت له: «ارفع السروال» وأنا أنهضه من تحت إبطيه، فأطاع. ثم حملته إلى فوق.

خرج صوت غريب من الغرفة الجديدة، صوت ثاقب وذو إيقاع. مدّدت الوالد على الفراش وغطّيته جيّداً، ثم توجّهت إلى الغرفة الجديدة، وفتحت الباب وأضحيت في خطوتين واقفاً عند سرير «هنك». انتزعت السمّاعتين عن رأسه. وصحت به: «اخرج الآن من فراشك اللعين!»

«كلاّ» قال «هنك».

انتزعت عنه اللحاف وجررته بذراعٍ واحدةٍ عن السرير. لم يتسنّ له الوقت للاستناد إلى ساقه وسقط على الأرض. فضحكت: «انهض!»

قال: «رويدك».

«انهض!»

وسارع في الوقوف على قدميه.

«ارتدِ ملابسك». ودسست رجلي تحت سرواله الجينز وركلته صوبه، فسقط على قدميه الحافيتين، ونظر إلى الأسفل. شعرت بالحاجة إلى ضربه، ومن ثم ضربه وركله. فجسمه نصف العاري هنا في هذه الغرفة الصغيرة هو أكثر مما أستطيع أن أتحمّله. وتوجّهت، بدلاً من ذلك، إلى الملصق الملقى ببراءة عند حافة الجدار، وانحنيت وبدأت في تمزيقه. تطلّع «هنك» إليّ ورفع سرواله. ثم رفع الـ«تي - شيرت» من فوق رأسه.

وقال بخجل: «سيُسرّ تون».

«الجوربان،» قلت.

جلس على السرير ووضع جوربيه.

أمسكته بإحدى ذراعيه، وهززته حتى وقف ودفعته صوب الباب، وقلت: «هيّا إلى العمل». ثمّ فكّرت، ما الذي سيفعله؟

سار صوب بسطة الدرج، ثم هرع إلى باب غرفة نوم والدي، وفتحه واختفى في الداخل. خفق شريان في عنقي بقوّة شديدة اضطرتني إلى الضغط عليه بيدي. وقفتُ برهةً من دون حراك، ثم استدرت وعدت إلى الغرفة الجديدة. التقطت الـ«ووكمان» عن الأرض ووضعته على طاولة السرير. اللحاف على الأرض خلف السرير، ونصف وجه الفتاة التي نسيت اسمها ملقى عند قدميّ. نقرت الورقة السميكة بضع مرّات بإصبع رجلي الكبير. التقطت اللحاف وبسطته فوق السرير، وتمدّدت على الأحرف والكلمات الزرقاء الداكنة، وأغمضت عينيّ.

لا بد وأنه مرّ عليّ نحو ساعتين. شعرت بالجوع، ولم أغف لكنني لم أفكّر أيضاً. استلقيت على سرير شخصٍ آخر وأنا أشاهد سريري قبالتي. اعتدت الذهاب إلى السرير للنوم والنهوض لحلب البقرات. وها أنا أدرك، أكثر وأكثر، أن سريري أضحى مكاناً للراحة، ليس للنوم بل للراحة. أبذل جهدي أحياناً حتى لا أغفو، فالنهار يشهد على الكثير من الأمور التي تحصل. وأصبح السرير مكاناً آمناً، أشبه بزريبة ملأى بالبقر شتاء، أو، وحتى فترة أخيرة، بغرفة نوم الوالد. نظرت، قبل أن آوي إلى السرير، إلى خريطة الدنمارك وتلوت أسماء بعض المدن أو القرى. لم أعد أركّز على «جوتلاند»، ولم أعد أتساءل عن المكان الذي استقرّ فيه «جارنو كوبر». وأصبحت، أكثر وأكثر، آخذ قيلولةً بعد الظهر.

«هلمر؟»

فتحت عينيّ، وإذا بـ«هنك» يقف عند الباب.

«ما الذي تريده؟»

«السيّد فان فونديرن العجوز والدك يقول إن عليك المضي والشروع في حلب البقرات».

«لماذا؟»

استدار، وسمعته يسأل الوالد عن السبب. وعاد.

«لأن الساعة قد أصبحت الخامسة».

«اطلب منه أن يفعل ذلك بنفسه».

أوشك على الاستدارة من جديد، لكنه عاد وفكّر في الأمر. وقال: «لا يستطيع».

«ولماذا؟»

«لا يمكنه السير».

«لا؟»

«لا». أمكنني القول من منظره أنه لا يجرؤ على الدخول بسبب الخوف. هذه غرفته، وأشياؤه فيها. واستمرّت عيناه في العودة إلى علبة السجائر. لا بد وأن ساعتين مرّتا عليه من دون تدخين.

وقلت: «ربّما عليّ المضي».

«هل استطيع..».

«هذه غرفتك، أليست كذلك؟»

«أنت مستلقٍ على سريري».

«هذا صحيح».

دخل، والتقط علبة السجائر عن طاولة السرير، وأخرج واحدة وأشعلها. جلست مستقيماً وأنزلت ساقيّ عن السرير.

«هل ستهتم بالعجول؟»

«طبعاً».

«وهل ستساعدني في الغد في السياج الجديد على طول حقلة الحمارين؟»

«بالتأكيد».

«جيّد. هل قضيت الوقت كلّه مع الوالد؟»

«نعم، ولكنه يغفو كثيراً».

«إنه متقدّم جدّاً في السن».

«بالطبع إنه كذلك. يا إلهي». وسحق سيجارته في المنفضة.

قلت: «هيّا بنا».

ألقى، بخروجه إلى بسطة الدرج، نظرةً سريعةً من فوق كتفه كما لو أنه يتأكّد من أنه لم يتبدّل شيء في غرفة نومه. رأيت ذلك لأنني استدرت للتأكد من أنه يتبعني.

«حان الوقت» تمتم الوالد في غرفة نومه.

«اهتم بشؤونك» قلت وأنا أقفل الباب.

وصاح: «إنها شؤوني».

سألني «هنك» عن عمري ونحن على الدرج.

«خمسة وخمسون».

«حقّاً؟ لا يزال شعرك كلّه أسود».

تناولنا من ملحق المطبخ، بذّتي العمل والسترتين. وضع «هنك» علبة سجائره في جيب صدره ومرّر أصابعه عبر شعره. وانطلقنا إلى العمل: المزارع وعامله.

٣٧

«هنك؟»

استدار «هنك» وأفلت عمود الخرسانة الذي يحاول حلّه. الشمس تلمع على مؤخّرة رأسه، أسخن ببضع درجات من يوم أمس. و«تون» و«رونالد» يقفان، واحدهما إلى جانب الآخر، على الطريق مثل شقيقين تقليديين: كبير وصغير؛ على وجه الأكبر سنّا تعبير جدّي، أما الأصغر فسعيد في شكل عصيّ؛ ولهما الشعر نفسه والأنفان نفسيهما. وجلّ ما يحتاجان إليه هو إمساك أحدهما بيد الآخر. لكن «تون» أصبح كبيراً جدّاً على ذلك، مع أنه يمكنني أن تخيّل «رونالد» يفعل ذلك. وبإمكانهما أن يكونا يتيمين.

«نعم» قال «هنك».

«هل علّقت الملصق بعد؟»

نظر «هنك» إليّ. وضعتُ رأس المطرقة على الأرض بين رجليّ. وهزّ «هنك» رأسه سلباً.

«ألم يعجبك؟»

«أعجبني كثيراً» قال «هنك» وهو يبدو تعيساً.

فقلت: «تعرّض الملصق عَرَضاً للإتلاف».

استدار «تون» ليواجهني. وقال «أتلف؟»

«نعم».

«عرضاً؟»

«نعم».

«كيف؟»

«هل فعلت ذلك يا هنك؟» سأله «رونالد» بفرح.

«كلا» قلتُ. «أنا فعلت ذلك».

«لكن..».

وسأله «هنك» «هل كنت تريد استعادته؟»

«نعم. فأنا أعطيتك إيّاه على سبيل الإعارة، ألم تقل والدتي ذلك؟»

«كلاّ» قلتُ، «لم تقل ذلك».

وسأل «رونالد» «هنك»: «ألا يمكنك إصلاحه، بشريط لاصق؟»

«لا فقد أُصيب بتلفٍ كبير».

نقل «تون» نظره من «هنك» إليّ ثم عاود النظر إليه.

وسأله «هنك»، «هل تريدني أن أشتري لك غيره؟»

«كلاّ،» قال «تون»، وإلى جانب رجله زعفرانة صفراء وحيدة نبتت عند الحافة. لم يرها ولمّا استدار سحقها بقدمه. وقال: «هيّا بنا يا رونالد».

«لا أريد..». قال «رونالد».

«هيّا بنا..». قال «تون». «سنعود إلى المنزل». وأمسك «رونالد» بيده وسحبه بعيداً. نظر «رونالد» مرةً أخيرةً إلى الوراء، وبدا أقلّ سعادة من المعتاد.

«أريد القيام بالطَرْق لفترة،» قال «هنك» وقد تمكّن من سحب العمود القديم من الأرض فيما الجديد موضوع مكانه ولكن غير مثبّت في الحفرة القديمة. أعطيته المطرقة، وطويت ركبتيّ وأمسكت العمود من وسطه. ضرب رأس العمود بقوّة شديدة

مكّنتني من إفلاته بعد ضربةٍ واحدة. تمزّقت بذّة عمله القديمة عند الإبط، وبدا أنه لم يلاحظ ذلك. «يا للجحيم،» قال وهو يتأرجح للمرّة الثالثة.

احتاجت ثمانية من الأعمدة الخرسانية الثلاثين على طول الطريق إلى الاستبدال. أنجزنا هذا الصباح خمسة منها، ونعمل الآن على الثلاثة الأخيرة المتبقّية. بدأنا العمل عند جهة المزرعة ونتّجه صوب الشمال الشرقي، إلى ما تبقّى من كوخ الفلاّح. وما إن تصبح الأعمدة في مكانها حتى نمدّ عليها شبكاً مغلّفاً بالبلاستيك الأخضر، نضع فوقه قضيباً معدنيّاً.

«وكيف لي أن أعرف؟» قال.

فأجبته: «هذا خطأي».

«لا يهمّ على من يقع الخطأ». وجذب العمود الخرساني بكل ما أوتي من قوّة.

«هذا حسن» قلت. «بقي أمامنا واحد».

سرنا صوب العمود الأخير الذي يحتاج إلى الاستبدال.

«ما هذا؟» سأل «هنك» وهو يشير إلى نصف الجدار والحديقة المفرطة في النمو.

«هذا كان كوخ الفلاّح».

«وهل انفجر؟»

«بل احترق».

أخرج «هنك» علبة السجائر من جيب صدره وأشعل واحدة. وها هو بعد فترةٍ وجيزةٍ يقف في حديقة الكوخ. «هل أقام عامل المزرعة هنا؟» صاح وهو يهزّ أحد أغصان المنغوليا العارية.

هزّزت برأسي علامة الإيجاب.

وسار من الحديقة إلى أرضيّة الكوخ الخرسانيّة. وصاح، «إنه صغير».

أومأت برأسي.

تطلّع من حوله، وسار إلى نصف الجدار وحاول دفعه برجل واحدة. انه الجدار الذي حمل سابقاً الدرج الخشبي. و»هنك» في العمر نفسه تقريباً الذي كنته حينها. وسأل: «عامل المزرعة وحسب أو عائلة بأكملها؟»

هززت رأسي علامة النفي.

وصاح: «ماذا؟»

«العامل وحسب».

سحق سيجارته على الجدار، وتحمّى وقفز من فوق الحفرة الضيّقة التي تفصل بقعة الأرض الصغيرة عن حقلة الحمارين. سار إلى العمود الأخير وشرع في دفعه إلى الأمام وإلى الوراء. وقال، «سنعمل عليه لفترة وننتهي».

ورأيت عضلات عنقه ترتجف.

سرتُ إلى الجسر قبل الشروع في الحلب. شاهدته يركب درّاجة الوالد القديمة، وكيس «ألبرت هيجن» يتدلّى من على المقود. ذهب إلى الحلاّق، ثم اشترى بعض الأشياء ولهذا استغرقه الأمر هذا الوقت. نزل عن الدراجة، وقال: «طعام» وهو يؤشر إلى الكيس. رفعت يدي، لكنه سحب رأسه بعيداً وكأنه شعر بأنها تتجه إلى شعره المقصوص حتى قبل أن أعرف أنا ذلك.

سألته: «لماذا تقصّر شعرك إلى هذا الحد؟»

«ما من سبب» قال. «الأمر جميل وسهل».

تخيّلت حلاّق القرية القديم (الميت منذ أكثر من عشرين عاماً)، يمسح المشط

بمعطفه الأبيض برفقٍ لإزالة الشعر، وأنا أشاهد في مرآة الحلاّق سيارة «فورد» تمرّ بتمهّل حاجبة منظر الأكمات الآخذة في التبرعم في حديقة المنزل في الجانب المقابل من الشارع. «فورد» قديمة ذات جناحين في خلفيّتها، لونها أخضر فاتح كلون المعديات القديمة. شممت رائحة محلول «البتولا» القارصة ورأيت وجه «هنك» يلتوي تجهّماً.

اشترى لحماً مفروماً من «ألبرت هيجن»، وكان لحماً باهت اللون. فأخذته، قبل أن يشرع في الطبخ، إلى ملحق المطبخ لأريه الثلاّجة. وقلت له: «افتحها».

رفع الغطاء وقال، «يا إلهي، أهذا كلّه لحم؟»

قلت: «هذه نصف بقرة، موضّبة في أكياس». وسحبت كيساً مجلّداً قاسياً كالصخر ذا ختمٍ أحمر. «الأحمر لحم عجل مفروم. الأزرق شرائح لحم بقر، والأخضر للشوي».

«وماذا فعلت بالنصف الآخر».

«باعه الجزّار».

أنزل الغطاء من جديد وقال، «لم أتناول طوال حياتي سوى لحم الخنزير».

طبخ «هنك» شيئاً بالطماطم والفلفل الأحمر والبصل والثوم والتوابل وجهزه في عشرين دقيقة. فتحتُ الزجاجة الأولى من النبيذ الأفريقي الجنوبي بفتّاحة بحثتُ جاهداً للعثور عليها.

«دعني أشمّها» قال «هنك» لدى سماعه صوت فرقعة الفلينة.

وضعت الزجاجة تحت أنفه.

«لا، الفلينة».

قرّبت الفلّينة إلى أنفه.

«حسناً،» قال كما لو أنه يعرف ما الذي يتحدّث عنه.

جهّزتُ المائدة وملأت كوبين من النبيذ. سبق ولاحظتُ أن النهارات أخذت تصبح أطول، لكنها المرّة الأولى التي يجهز فيها العشاء قبل الظلام. لا يمكنني بعد إغلاق ستارة النافذة الجانبية.

قلت: «عليك لاحقاً أن تأخذ صحناً مليئاً بالطعام إلى الوالد».

«ولماذا عليّ القيام بذلك؟»

«لا أعرف كيف سيكون ردّ فعله عليه».

«لا بد أنه تناول الفلفل الأحمر من قبل، أليس كذلك؟»

«أبداً».

أحببت طعامه، وأحببت النبيذ أيضاً. أعدت ملء الصحنين وأعاد «هنك» ملء كوبينا.

قال بعد برهة وهو يؤشر بإبهامه من فوق كتفه: «هل كنتُ لأقيم في ذلك المنزل لو كان لا يزال قائماً؟»

«لا، بالتأكيد لا».

«ولِمَ لا؟ أولستُ عامل المزرعة؟»

«لم نعد نعيش في الستينيات».

«كنت لأحبّ ذلك».

«العيش لوحدك؟»

«نعم. في منزل صغير مرتّب».

«ألا يعجبك المكان هنا؟»

لم يجب واكتفى بالتنهّد وضرب ملعقته على صحنه. ثم سكب حصّة ثالثة من الطعام.

سكرتُ من الخمر وفكّرت في الجعة، وفي تناولها من الزجاجة مباشرة وأنا جالس على كرسي مريح في منزل غير موجود إلا في مخيّلتي. وفكّرت في الجاز. يوجد ما هو وحداني في الجاز، وبخاصة النوع الهادئ الصادر من مذياعٍ موضوعٍ في زاوية من الزوايا.

لماذا تركتُ الأمور تجري على هذا النحو؟ أمكنني أن أقول «لا» للوالد أو«قُمْ بذلك بنفسك» أو «بغْ» وحسب.

عاش «فان فونديرن» الجد في «إيدام»، وبقي حيّاً ست سنوات بعد وفاة الجدّة «فان فونديرن». وكنت أقوم بزيارته مرّة في كلّ أسبوع لمدة نصف ساعة. أقام في دار للعجزة في غرفة صغيرة تطلّ على بركة في وسطها نافورة. وبدا أن الشمس تشرق دوماً على غرفته بغض النظر عن موقعها. يصبّ لي الجد القهوة ولا يسعني أبداً التفكير في أي شيء أقوله. كنت أسعد لانتهاء النصف ساعة. وأفكّر دوماً، وأنا في طريق العودة إلى البيت في السيّارة، أليس من الأفضل لو أنني لا آتي أبداً، لأنه في هذه الحالة لن يعرف الكثير. فنصف ساعتي تلك تجعله أكثر وحدة من عدمها. ولا يوجد ما يفتقده إذا لم يعرف الكثير. بدا كما لو أنني أعرف ان «هنك» سيغادر من جديد. بالطبع سيرحل، وما الذي يدفعه للبقاء؟ فلا شأن له هنا.

«مزيد من النبيذ؟»

غطّيت كوبي بيدي.

«ألا تخرج أبداً؟»

«أخرج؟»

«نعم تخرج، إلى حانة أو اعتاد والدي لعب الورق مرّة في الأسبوع».

قلت: «كلاّ».

«أحبّ أن أخرج أحياناً».

«عليك أن تذهب إلى مونّيكندام في ليلة سبت».

«أهذا ممتع؟»

«تعوّد على ذلك».

«لا بد أن قريةً كهذه مضجرة فعلاً».

«في وسعك دوماً الذهاب إلى امستردام».

«لا أعرف..».

نهضتُ ورفعت المائدة. واختفى «هنك» في غرفة الجلوس وأشعل التلفاز.

جلست بعد جلي الصحون إلى المكتب لإنجاز ببعض الأعمال الإداريّة، لكن عينيّ استمرّتا في الطواف بعيداً من الأوراق؛ أشعر ببعض الدوار. أطفأ بعد فترة التلفاز من جديد، وسار إلى البهو ودخل إلى ملحق المطبخ، وسمعت بعد برهة المياه تجري في الحمّام. حاولت التركيز على العمل الذي أمامي، لكنني انتظرت لأسمعه يصعد إلى فوق.

لم يصعد، بل جاء إلى المطبخ وقد لفّ المنشفة حول خصره. أمسك الباب بيده اليسرى، وقال: «أنا سعيد لأن والدي قد مات».

«ماذا؟»

«أنا سعيد لأنه مات. حتى أن والدتي لم تسألني هل أريد الاستمرار مع الخنازير، بل قامت ببيعها».

«وهل أردت تولّي الأمور؟»

«لا! هذا رهيب. البيع ناسبني».

«لكنك انزعجت لأنها لم تسألك؟»

«ليس حقّاً. ربما طلبت منها شقيقتاي البيع. لا أدري. كنّ دوماً يسكتنني».

«إذاً أنت سعيد؟»

«طبعاً». لكن لا تبدو عليه السعادة.

«أي نوع من الرجال كان والدك؟»

أطرق برهة ورفع إحدى كتفيه. «كان في الحقيقة رجلاً لطيفاً جدّاً. وقد اتفقنا كثيراً». بقي ممسكاً بالباب لكنه أبقى عينيه طوال الوقت على الطاولة التي فرغت من كل شيء الآن إلا من زجاجة النبيذ شبه الفارغة. ثم نظر إليّ وقال: «تصبح على خير».

ما إن سمعت باب الغرفة الجديدة يقفل حتى وقفت وسكبت نصف كوب من النبيذ. رأيت انعكاس صورتي في النافذة الجانبية ورفعت الكوب، ولا أعرف هل رفعته نخبي أو نخب «آدا». وأدركت فجأة أن الوالد لم يحصل على العشاء بعد، واشمأززت على الفور من ذلك الشخص في النافذة الذي رفع كوبه بهذا الوقار يتصرّف بارتياح لا يتمتّع بأي شيء منه. صعدتُ الدرج خفية وتأنّيت في فتح باب غرفة نوم الوالد الذي كان يشخر بطمأنينة وهدوء. وسلام. تركته ينام وقد تأخر الوقت بالفعل، وعدت إلى المطبخ وأسدلت ستارة النافذة الجانبية. وفيما أنا على وشك معاودة الجلوس إلى المكتب، عاد «هنك» وظهر عند الباب، وهذه المرّة من دون المنشفة حول خصره. كان يرتدي سروالاً تحتيّاً أزرق و«تي ـ شيرت» أصفر.

قال هامساً، «لم يتناول والدك الطعام».

«أعرف» قلت «فهو يغفو».

«لكن..».

«سيعيش».

فأومأ برأسه واختفى.

الساعة الكهربائية تئزّ، والصنبور يقطر، والهدوء يعم المنزل. ابتلعت شيئاً عالقاً في مؤخّرة حلقي وأقفلت المكتب.

أخذتُ بعد فترة قليلة في ترداد، «باليروب، ستنلوز، تاستروب، فريدريكسوند، هولبك». مرّرت أصبعي عند أعلى الإطار ونفخت الغبار عنها. ورأيت للمرّة الأولى أن «جوتلاند» قد تكون عملاقاً على وشك ابتلاع «فونن» و«زيلند» وكلّ الجزر الأصغر حجماً. استدرت مبتعداً، وخلعت ثيابي واندسست في الفراش. وأخذ جسمي تدريجيّاً في تسخين اللحاف. صدر صرير من فوق، ولم يأتِ أي صوت من الخارج.

٣٨

أخذنا في حلّ الشبك المغلّف بالبلاستيك في الاتجاه المعاكس، من عمود إلى عمود، انطلاقاً مما تبقّى من كوخ الفلاّح إلى بيت المزرعة. ارتفعت الحرارة من جديد حوالى درجتين عن الأمس، وأخذتُ، وأنا اتطلّع الآن، أشاهد المزيد من الزعفران عند الحافة. فالزهرة التي داسها «تون» ليست وحيدة كما ظننت. استمرّيت في النظر إلى السماء متوقّعاً طيور الطيطواة والبقويقة ذات الأذناب السوداء، بالرغم من معرفتي التامة بأن آذار/مارس لم يأتِ بعد. صُممت الأعمدة الخرسانية لتعلوها قضبان خشبية يفترض ربطها بعزقة، فلوينا السلك حول البراغي الموضوعة في الأعمدة لحمل الشبكة. اعتقدُ أن «هنك» يستمتع بالعمل، فهو يصفّر بينما يحل الشبك، ويفتل الشريط ببعضه، ويدخّن سيجارة بين الفترة والأخرى. يرفع سبابته للدرّاجين ويقول «هيّا»، ويشمخ بأنفه عندما لا يردّ الدرّاجون بأي شيء عليه. ويحدّق أحياناً،

وهو يدخّن، إلى مباني أمستردام الشاهقة وسديمها، كما لو أنه وُلد فيها. ورائحة السماد تفوح من «ووترلاند» كلّها.

سألني أثناء الغداء: «ألا تجلب أبداً أي نوع آخر من أنواع الجبنة؟»

«لا».

«ولِمَ لا؟»

«إنها جبنة إيدام من معمل الألبان».

«يعني؟»

«أحصل عليها بسعرٍ رخيص».

«إنها خالية من الطعم».

«يسعك دوماً أن تشتري لنفسك أنواعاً أخرى من الجبنة».

وضع شريحة الجبنة من يده، وقال: «ليس لدي مال».

نهضت وتوجّهت إلى المكتب. المحفظة في واحدٍ من الأدراج المربعة. فتحته وسحبت منه أوراقاً بقيمة مئتي يورو، وقلت له: «هاك».

أخذ المال من دون أي كلمة ووضعه في جيبه الخلفي. ثم التقط شريحة الجبنة وقطع بعض الشرائح الإضافية الأخرى.

عندها مرّت شاحنة تاجر المواشي ببطء.

«لدينا زائر» قلت.

أجاب: «إنه زائرك، وليس زائري».

دقّ التاجر مرّةً واحدةً على العضادة وظهر في المدخل، وقال: «مرحبا».

لاحظت، وأنا أنظر إليه الآن كما يجب، وأراه جزئيّاً بعين «هنك» ولو أنه يجلس

وظهره إلى الباب، كم أن تاجر المواشي متقدّم في السن. لديه لحية رمادية، وهي من نوع اللحية التي تراها في كلّ صورةٍ فوتوغرافيةٍ قديمةٍ صارمة. تطلّع إلى ظهر «هنك».

«هذا هنك» قلت.

فسأل: «أهو ابن أخ أو أخت؟»

«أهو ابن أخ أو أخت؟ لا، هنك يعمل هنا».

«آه».

تصرّف «هنك» كما لو أنه لا يوجد أحد آخر في المطبخ. لم يستدر وواصل تناول الطعام. أما أنا فأدرت الكرسيّ نصف دورةٍ بعيداً عن الطاولة.

«اجلس» قلت وأنا أشير إلى الكرسي المقابل لي.

«نعم» قال التاجر ببطء وعلى غير توقّع. رفع قبعته وجلس، واسترق النظر جانبيّاً إلى «هنك».

«ليس لديّ شيء لك».

«ليس هذا سبب مجيئي».

سألته، عندما لم يقل المزيد، إذا كان يودّ بعض القهوة.

«نعم، القهوة في محلّها».

نهضت وجئت بكوب من خزانة المطبخ.

«إذاً، أنت تعمل هنا» سأل التاجر «هنك».

«نعم».

«هل جئت من برابنت؟»

هل إنها «آدا»؟ أو أن مجرّد «نعم» تكفيه ليعرف المكان الذي جاء منه الشخص؟ ووضعت الكوب على الطاولة أمامه.

نظر إلى أرجاء المطبخ وكأنه لم يسبق له أن جاء إلى هنا من قبل.

«كيف حال السيّد فان فوديرن العجوز؟»

«بخير» قلت. وأبعدت صحني وعليه سندويشتي التي لم أتناول سوى نصفها. «حتى ولو لم يعد بكامل حضوره».

«هذا مؤسف جدّاً» قال تاجر المواشي، «فلقد أنجزت أعمالاً تجاريةً كثيرةً معه».

«نعم».

الساعة الكهربائية تئزّ، و«هنك» يتململ في كرسيه.

«أنا هنا لأبلغك أنني سأتوقّف عن العمل».

«حقّاً؟»

«ألديك فكرة عن العمر الذي بلغتُه؟»

«بلغت الستين للتو؟»

«بل ثمانية وستين».

«حان الوقت إذاً للتوقّف».

«قالت زوجتي: سأهجرك إذا لم تتوقف الآن».

«هممم».

«تريدُ أن تسافر».

«أليست لديك ابنة في نيوزيلندا؟»

«آه، هه. وقد اشترت الزوجة التذكرتين بالفعل».

«لطيف».

ارتشف قهوته. وتابع «الطيران؟ أيمكنك أن تتخيّلني على متن طائرة؟»

«ولِمَ لا؟»

يتحدّث بطريقة بطيئة وبالكاد ينظر إليّ. أعتقدُ أن قدميه في حالة استراحة ومنبسطتان على الأرض، وشعرت برغبة في النظر من تحت الطاولة للتحقّق. بات في إمكانه التحدّث بحرّية طالما أنه لم يعد تاجر مواشٍ.

نهض «هنك» وقال: «سأخرج، الوداع».

«وداعاً، يا بني» قال التاجر. وما إن خرج «هنك» حتى نظر إليّ مباشرة في العينين. «هذا هو إذاً عاملك الجديد؟»

قلت: «نعم».

«إنه فتى قوي».

«نعم».

سمعت باب قاعة الحليب يصفق مقفلاً.

وأخيراً أشاح التاجر بنظره إلى النافذة الجانبية. «جئت للتو من عند الجيران».

«أتقوم بزيارة الجميع؟»

«نعم. وسيستغرقني هذا أسبوعاً أيضاً». وضع الكوب على الطاولة وقال: «سأذهب».

فأجبته: «حسناً».

وقال بوصوله إلى ملحق المطبخ، «سأراك في الجوار».

«أمضِ وقتاً طيّبا في نيوزيلندا».

«هناك صيف الآن» قال، ثم وضع حذاءه في رجله. «سلمّ على والدك».

قلت: «سأفعل».

فتح باب الزريبة وسار من حولها إلى الخلف.

انتظرت للحظة قبل أن أخرج عبر قاعة الحليب، ولمّا مرّت الشاحنة رفعت يدي. وكان «هنك» جالساً على بوّابة حقلة الحمارين قبالة قاعة الحليب. إلا أنني لم ألاحظه إلا بعد عبور الشاحنة، وقد طافت فوق رأسه سحابة من الدخان. رفع يده ملوّحاً لي. الأمر أشبه بمسرحية صامتة لثلاثة رجال: أحدهم يغادر من دون الالتفات، ويراقبه الثاني يغادر، والثالث ينظر إلى الثاني، ولا يرى الثاني الثالث إلا بعد مغادرة الأول.

الجو حار في المطبخ، والشمس تسطع على الطاولة. تطير من فوقنا مجموعة من البط. وضعت الزبدة على شريحتين من الخبز غطّيتهما بالجبنة وتوجّهت إلى فوق. لم يفق الوالد لدى دخولي، فوضعت الطبق بحرص على طاولة السرير وجلست على الكرسي المحاذي للنافذة.

«تاجر المواشي يبلغك تحيّاته» قلت بهدوء ولكن من دون أي ضغينة. «سيذهب مع زوجته إلى نيوزيلندا لرؤية ابنته». شكّل الغراب الأبقع على شجرة الدردار شاهدي الوحيد. «لا أطيقك لأنك دمّرت حياتي. ولا أستدعي الطبيب لأنني أعتقد أنه حان الوقت لتتوقف عن تدمير حياتي، وأبلغتُ آدا أنك خرف لأن ذلك يزيد في تسهيل الأمور. ولن يشكّل، وأنت خرف، أيٌّ مما تقوله أو أقوله أيَّ فارقٍ على أي حال. وأنت لا تعرف نصف ما أمكنني القيام به من أجل «هنك» الذي كان شقيقي التوأم. هل تعرف ماذا يعني أن يكون لك شقيق توأم؟ هل تعرف؟ وما الذي تعرفه حقّاً؟ ففي الأشهر التي تلت طردك «جاب» لم تزره مرّة لأنك رفضت أن ترى فيه مساوياً لك. أما أنا فوجدته مساوياً. قبّلني على فمي اللعين. هل سبق لك أن قبّلتني؟

هل سبق أن قلت لي كلمةً لطيفة؟ هل تعرف ما الذي أريده؟ كلاّ، أنت لا تعرف لأنني أنا لا أعرف نفسي. تاجر المواشي لن يعود أبداً، ولهذا أرسل تحيّاته، وسائقا الصهريجين لن يعودا أبداً هما أيضاً، أحدهما توفّى، الجلف، وأنت تعرف ذلك بالفعل لكنك ربّما نسيت بسبب خرفك، أما الآخر، الشاب الدائم الابتسام، فانتقل ليسلك طريقاً آخر. وهذا خطأك أيضاً، ليس رحيله بل أن أكون هنا ليرحل عنّي. لو لم أكن هنا لما تعرّفت عليه. وبالمناسبة، لا أعتقد أن آدا ستزورنا كثيراً لأنها تفضّل أن تتجسّس علينا عن بعد، وروناك هو الوحيد من بين الجيران الذي لا يزال يأتي، أما «تون» فمستاء منّا بسبب..».

«هلمر!» صاح «هنك» من أسفل الدرج.

استيقظ الوالد.

نهضتُ، وقلت: «أحضرت لك ما تأكله وهو بجانب سريرك».

وسأل الوالد: «هل غفوتُ؟»

صاح «هنك»: «هل نعاود العمل؟»

صرخت: «أنا آت!». وقلت للوالد: «نعم».

«لم ألحظ ذلك، فأنا منهك». جلس ونظر إلى الطبق. «جبنة» قال: «إنه لذيذ».

«هنك» في الواقع هو نوع من ابن الأخ، فكّرت بذلك وأنا أقفل باب الدرج وأراه واقفاً هناك. وهو يجذب بذّة عمله ويلبسها، تلك التي تضيق عند الساقين وأكمامها قصيرة جدّاً وتمزّقت تحت الإبط. إنه نصف ابن أخ، ابن الأخ الذي أمكن أن يكون، ابن الأخ بالمصاهرة.

٣٩

«لن أذهب وراء هذين الحمارين. افعل ذلك بنفسك».

«إمضِ إذاً وقف هناك في الباحة».

«لا أريد أي علاقة لي بهما».

«لو ذهبت ووقفت هناك، وراء البوّابة تماماً، فسيتوجّهان مباشرة إلى حقلتهما».

«وإذا لم أقف هناك؟»

«هنك لن يلمساك. إنهما حماراي».

«ماذا تعني بذلك؟»

«إنهما لا يخصّان والدك، وليسا صغيري الحجم».

«ماذا؟»

«إنهما لا يشبهان ذلك الذي رفسك».

«وكيف تعرف في هذا الخصوص؟»

«والدتك أخبرتني».

«يا للعنة الجحيم».

«ما الذي يدعوك إلى الشتم؟»

«وماذا أخبرتك غير ذلك؟»

«لا شيء. اسمع: كلما صغر الحيوان ازداد شرّاً. فأحصنة شتلند الصغيرة سيّئة أيضاً وهي ترفس وتعض. أما هذان فحماران حقيقيّان، ولن يفعلا شيئاً. تون ورونالد..».

«بماذا أخبرتك غير ذلك؟ ولماذا أنا في الواقع هنا؟»

«لا أعرف».

«من دون سبب؟»

«ماذا؟»

«هل أنا هنا من دون سبب؟»

«لا..».

«لماذا؟»

«لأنك كنت متبطّلاً في المنزل».

«في المنزل؟ أين في المنزل؟»

«تعلم، في برابنت».

«آه، يا للجحيم».

«ما الأمر؟ لا تشتم كثيراً».

«أي نوع من الترهات هذا! متبطّل؟»

«نعم، متبطّل».

«وكم يتوجّب عليّ البقاء هنا؟»

«لا يتوجّب عليك البقاء في أي مكان».

«يعني أنني إذا شئتُ يمكنني الذهاب؟»

«بالتأكيد».

نحن في آذار/مارس والشمس قد اختفت. نقف أمام زريبة الحمارين والسماء تمطر رذاذاً، وقد انتهى العمل في سياج حقلة الحمارين.

«هل تتشاجران؟» قال «رونالد» الذي وقف فجأة بجانبنا، أشبه بالكلب الأمين.

قلت: «لا، أبداً».

وقال «هنك»: «لدينا اختلاف في وجهة النظر».

«ماذا يعني؟»

«أي عندما يقول هلمر شيئاً لا أوافقه عليه».

«وعندما يقول هنك شيئاً لا أوافقه عليه».

«آه» قال «رونالد». «هل سيذهب الحماران إلى المرعى؟»

«نعم».

«عظيم! أيمكنني المساعدة؟»

«بالتأكيد. أين تون؟»

«في البيت».

«ألم يشعر بالرغبة في المجيء؟»

«كلاّ». نقل نظره منّي إلى «هنك» ومن ثم إليّ قبل أن يقرّر في النهاية ائتماننا على الأمر. «يعتقد أنكما غبيّان».

«اذهب وقف في الفناء هناك». وأشرت في اتجاه الجسر.

هرع «رونالد» إلى هناك على الفور سعيداً وهو دوماً سعيد – وتوقّف عند خط أفقي مع الباب المؤدي إلى قاعة الحليب، ورفع إحدى يديه ليُظهر أنه في موقعه.

سألني «هنك»: «يمكنني في هذه الحال الذهاب إذا أردتُ ذلك؟»

«لن أعمد إلى إيقافك».

سار إلى الحظيرة وخرج بعد فترة قصيرة على درّاجة الوالد. توسّع في انعطافته

ومضى في اتجاه الجسر. تطلّع إليه «رونالد» مدهوشاً: «هل انت راحل؟» سمعته يسأل «هنك»، وسرتُ إلى المنزل بتمهّل.

ربّما قال «هنك» شيئاً لم يمكنني سماعه لأن الغراب الأبقع شرع في النعيق. أتى منقضّاً من حول زاوية المنزل وطار في اتجاه رأس «هنك». خفق بجناحيه بعنف للبقاء في الهواء واندفع بمخالبه على جمجمة «هنك»، فيما تدحرجت الدرّاجة و«هنك» تحتها. بقي في المكان محوّماً لبرهة اشبه بصقرٍ عملاقٍ اكتشف فأراً، ثم طار مبتعداً بين الشجر من فوق حقلة الحمارين في اتجاه «ماركن».

قال «رونالد»: «وقع هنك عن الدراجة».

٤٠

«وقع هنك عن الدراجة» قال «رونالد». بدا لي الأمر وكأنه «طار عنها». وصلت إليه وهو يحاول النهوض، ولا يزال على الأربع والدم يسيل على جبهته، فطلبت منه البقاء في مكانه. نهض «رونالد» بالدراجة، لكن دراجة الوالد القديمة كانت ثقيلة، فانزلقت قبضة المقود من قبضته، وارتطم مقعدها بظهر «هنك».

قلت: «دعها يا رونالد».

«ما الذي حصل؟» سأل «هنك».

«سآتي بعدّة الإسعافات الأوليّة».

ولمّا عدت عبر باب قاعة الحليب، وجدتُ «رونالد» واقفاً عند «هنك» ويداه

على خاصرتيه وهو يتلفّت من حوله. قال: «لم يتفوّه بأي شيء. لكنه لم يحتج إلى البكاء».

ركعت ومسحت برفق الدم عن رأس «هنك» بفوطة شاي نظيفة مبلّلة.

راقب «رونالد» من فوق كتفي وصاح: «يا له من شق!» وأدركت على الفور أن لا مجال لأن أتولّى بنفسي الاهتمام بالأمر. قررت تخطّي طبيب الصحة العامة والتوجّه بالسيارة مباشرة إلى مستشفى «بورمرند». وجدت بضعة أشخاص ينتظرون في قسم الحوادث والطوارئ، لكنهم أعطوا الأفضلية لـ «هنك» ربّما بسبب فوطة الشاي المشبعة بالدماء التي يضغطها على رأسه. نظّفوا وقطّبوا الجرح الأكبر – الذي تسبب به المنقاد – ونظّفوا الخدوش التي تسببت بها مخالب الغراب. أراد الطبيب معرفة هل تلقّى ابني في السنوات القليلة الماضية أي حقنة مضادة للكزاز. سألت «هنك» ولما لم يتمكن من تذكرّ أي حقن، قرر الطبيب إعطاءه واحدة، وسُرّ لأن لديه مثل هذا الشعر القصير. غطّى الجرح المقطّب بقطعة سميكة من الشاش ووضع على رأس «هنك» شبكة مطّاطية ناعمة تشبه قبعة السباحة. لم يسبق له أن عاين أمراً مشابهاً ولم يعرف حتى أن الغراب الأبقع موجود. قال لـ «هنك» بابتسامة: «إنه أمر استثنائي جداً أن تُمزَّق فروة رأسك بهذا الشكل». ولم يتمكّن «هنك» من رؤية الجانب المضحك للأمر.

جلس «هنك» بجانبي صامتاً ونحن في السيارة على طريق العودة وفي عينيه نظرة ذاهلة بعض الشيء. قلت له: «يا بُني». فصدرت عنه تنهيدة عميقة بدلاً من الضحك. اختفى شعره كلّياً تحت قبعة السباحة الغريبة، وكنت لألمسه لولا وجود القبعة ولولا تنهداته العميقة. ولما استدرتُ إلى الباحة لتوجيه السيّارة صوب مكان درّاجة الوالد، وجدتُ أنها سُحبت إلى جانب المنزل، فقد أراد «رونالد» القيام بأمرٍ مفيدٍ قبل العودة إلى منزله. ولما أصبحنا في البهو، أخذتُ «هنك» من مرفقيه وأدرته صوب المرآة. تفادى عينيه وبدا لوهلة كأنه سيبصق على صورته المنعكسة.

ها قد مضى عليه نحو نصف ساعة جالساً على أريكة غرفة الجلوس، لا يتفوّه بأي كلمة، والتلفاز غير شغّال. يحكّ بين الفينة والأخرى ذراعه اليسرى بيده اليمنى. لا يريد أي قهوة، ولا تناول أي طعام. والغراب الأبقع لم يعد إلى مجثمه الخاص في شجرة الدردار.

لا يحتاج الأمر بالتأكيد إلى أي شخصٍ آخر لحمل الحمارين على التوجّه إلى حقلتهما. فتحت البوابة، ودخلت إلى الزريبة وشرّعت بابها وعدت متمهّلاً إلى الحقلة. انطلقا ونهقا لكنهما لم يتجاوزاني، ولم افسح لهما في المجال إلا عند البوابة المفتوحة. عندها فقط تجاوزاني قفزاً وشرعا يخبّان في دوائر. وأخذا، بعدما عاودهما بعض الهدوء، في تشمّم السياج الجديد. أقفلت البوابة، وربطتها بإحكام وسرت بمحاذاة الشبك إلى الطريق. يوشك النرجس البرّي على الظهور من حول جذوع صف الأشجار. استدرت عند الزاوية وتبعت السياج الجديد حتى كوخ الفلاّح. سار الحماران بمحاذاتي من الجانب الآخر حتى الأمتار العشرين أو الثلاثين الأخيرة. لمعا تحت الرذاذ، وحكّا ذقنيهما على السكّة الخشبيّة الجديدة. إنهما قانعان.

ركضت وقفزت من فوق الخندق. تريد لجنة الغابات بناء مركز للزوّار في المكان الذي قام عليه كوخ الفلاح. سيأتي يوم لن يبقى فيه أي مزارع في «ووترلند»، أو ربّما مزارع واحد أخير لمراقبة مواشي «غولوايز» أو «هايلند»، وجزّ العشب، وإزالة صفائح المشروبات الغازية الفارغة، وقطع القصب والقيام بجولات، على سبيل المثال، من المركزّ المخطّط له للزوار في عوّامات اعتُنِي في طلائها. باتت لجنة الغابات تملك بالفعل بقيّة أرضنا، وأنا استأجرها وحسب، وأدير في الربيع طاحونة «بوسمان» الهوائية بعيداً عن الريح، غامراً جزءاً من الأرض بالماء لطيور الزقزاق والبقويقة والطيطواة، وأحصل في المقابل على منحة من المحافظة. وأقوم بذلك في

كل سنةٍ عندما أجلب النعاج. ولا بأس بذلك، إلا أنني لا أزال أرفض بيع تلك البقعة من الأرض.

تردنا كل ستة أشهر رسالة من لجنة الغابات. ويحرص الوالد على كتابة جواب، على عكسي. بل إنني لم أره الرسالة الأخيرة التي لا تزال قابعة في واحد من صناديق الرسائل في المكتب.

لا يزال مخطّط أرضية الكوخ ظاهراً في الأساسات. أبعدتُ بقدمي أوراق الشجر والأغصان الميتة وكتل التراب. تلك كانت غرفة الجلوس، والمطبخ هنا، والمرحاض والبهو هناك. لم يعد القبو موجوداً وأصبح حفرة ملأى بالقرميد والتراب، والعشب ينبت من الشقوق الواسعة في الباطون. وعلى ارتفاع بضع أقدام فوق رأسي كانت العلّية الكبيرة بنافذتيها الناتئتين. لا أريد أطفالاً يركضون حول المكان صارخين، أو مزارعاً نموذجياً يقف هنا مدلياً بكلامٍ معسولٍ عن الحفاظ على البيئة. بل أريد أن آتي إلى هنا بين الحين والآخر فأعيدَ بناء الجدران في أفكاري، وأشاهد السقف يقفل بصمت وأصلح القرميد الأحمر على شرائح الخشب. أريد أن أتخيّل غرفة المعيشة بنوافذها المفتوحة، وزجاجات الجعة ورائحة تبغ اللف المتوسط الحدّة.

مرّرت أصابعي عبر شعري الرطب وفركت وجهي براحة يدي. الماء جيّد ونظيف، ويغسل كلّ شيء (الغبار، والجلد الميت، والسنين)، ففي الماء يصبح المرء من دون وزن، وتحوّله المياه إلى متهوّر دائم الشباب. سيبقى «هنك» دوماً في التاسعة عشرة. أراه جالساً أمامي على الأريكة، يحمل بيده زجاجة جعة دافئة، والأزرار العليا لقميصه مفكوكة، ويده الأخرى على ظهر الكرسي. «هنك» يقبّلني كما لو أن أحداً مات للتو. موسيقا موحّدة، ناعمة. هززت رأسي وركلت كومةً من العشب برأس جزمتي. «جاب»! إنه «جاب». فهل هو بديل؟ شخص حلّ مكان «هنك»، يقول لي إن كل شيء سيحصل في وقته؟

ماذا حلّ بـ «هنك»؟

ماذا حصل لـ «جاب»؟

سلكت طريق العودة إلى المزرعة، إلى «هنك» الذي يعاني من ألم رأسه، وإلى والدي المنهك الذي يريد ان يرى ربيعاً واحداً أخيراً. تركني الحماران أذهب ولزما مكانهما عند الزاوية المجاورة للكوخ. التقطت درّاجة الوالد ورفعت إحدى ساقيّ من فوق القضيب المعدني ودوّست سالكاً الطريق المعاكس لذلك الذي سلكه «هنك» في وقت سابق من النهار. لا تزال عضلاتي تؤلمني من التسييج، والمكان داخل الحظيرة مظلم. استدرت، قبل الدخول إلى قاعة الحليب، وأشعلت لمبة الفلورسنت فوق طاولة العمل. علّقت زوجاً من الكمّاشات على اللوح الخشبي المرصوف بالمسامير والرسوم الموضوعة بقلم الرصاص. ما الذي حلّ بي؟ فكّرت وأنا أعلّق المطرقة ذات المخلب في مكانها المرسوم.

«إلى أين كنت ذاهباً؟»

«بعيداً».

«لم يكن معك شيء».

«وبالتالي؟»

«لم تخلع حتى بذّة عملك».

«وإن يكن؟»

«كيف رأسك؟»

«يحكّني».

«جيّد. الحكاك جيّد».

صبّ لنفسه كوباً آخر من النبيذ، وغطيّت كوبي بيدي. نتناول شرائح اللحم مع البطاطس واللوبياء الخضراء. لم يعم الظلام بالكامل في الخارج بعد، لكنني سبق وأسدلت الستائر على النافذة الجانبيّة.

«ما الذي يجعل طيراً يقوم بأمر كهذا؟»

هززت كتفيّ.

«ولماذا أنا؟»

هززت كتفيّ من جديد.

«ذراعي خدرة».

«تخيّل لو أنه هاجم رونالد، فرأسه لا يزال حقّاً قابلاً للعطب».

«الأفضل إذاً أنه هاجمني؟»

«نوعاً ما».

«شكراً».

وضعت الشريحة الثالثة على طبقٍ نظيفٍ وقطعتها إلى أجزاء صغيرة.

قال «هنك»: «لديك يدان كبيرتان جدّاً، كما تعلم».

سكبت بعضاً من البطاطس واللوبياء ودفعت الطبق نحوه. «هل تأخذه إلى فوق؟»

«حسناً».

غاب فترةً طويلة، وقمت بغسل الصحون ولمّا انتهيت جلبت فرشاة الأظفار من الخزانة تحت المجلى. لا بدّ أن الصابون الذي يستخدمه الميكانيكيون والذي اشترته الوالدة لدى محاولتها حملي والوالد على الاعتناء بشكلٍ أفضل بأيدينا موجود هنا في مكانٍ ما. وبعد وفاتها غرق الحوض أكثر فأكثر في الخزانة. وعثرت عليه في زاوية رطبة، تحت خرقة تفلّتت خيوطها. فركت يديّ بالصابون الرملي إلى أن أوشكت بشرتي المتصلّبة على النزف.

خلعت ثيابي في ملحق المطبخ ورميت بها في سلّة الغسيل. ثم دخلت إلى

الحمّام وفتحت الصنبورين ودخلت تحت المياه الساخنة. ولم أعد تسكير الصنبورين بأصابع مرتعشة إلا بعدما كاد المرجل يفرغ وبدأت المياه تبرد. جفّفت نفسي، ولففت المنشفة حول خصري وسرت إلى غرفة نومي. نظرت، وأنا في طريقي، إلى نفسي في المرآة فوق رف الموقد، وإلى والدتي التي بادلتني النظر بانتباه. أردت ارتداء بعض الثياب النظيفة، إلا إنني لم أكلّف نفسي ذلك بعدما رأيت فراشي.

رميت المنشفة في إحدى الزوايا، وتوجّهت للوقوف أمام خارطة الدنمارك، وهمست: «فارلوز»، «فاروم»، «هولتي»، «بيركرود»، «فريديريكسفيرك». أخذ عضوي في الانتفاخ، واندسست في الفراش. سمعت «هنك» ينزل إلى تحت. سار عبر المنزل وبدا أنه توقّف لبعض الوقت أمام باب غرفة نومي، ثم أطفأ النور. أمكنني قول ذلك من الطرق التي سلكها. عاد بعد فترة قصيرة إلى فوق، وأصبح المنزل هادئاً.

٤١

قصدتُ الحقل لأحصي النعاج. يكفيني دوماً منظر نعجةٍ واحدةٍ ليشعرني ببعض الكآبة. فهي حيوانات تدعو إلى الأسف الكبير. وغالباً ما أفكّر بالنعاج الثلاث التي بعتها لشراء خريطة الدنمارك، خصوصاً وأنني لم أدقّق في النعاج التي أنوي التخلّص منها. وأمكن بسهولة أن تكون ثلاث نعاج غيرها. وليس وجود عشرين نعجة تحت المطر بالمنظر الممتع، فالنعجة التي لم يُجزّ فروها تبدو رهيبة في موجة الحرّ، وتكاد النعجة العرجاء لا تُحتمل. والأسوأ من ذلك كلّه نعجة ممدّدة على ظهرها، عاجزة عن الوقوف من جديد بقوّتها الذاتية، أمعاؤها منتفخة وتضغط على جدار بطنها، تقحّ وتحشرج وتجهد، في حال كان الطقس عاصفاً، لإبقاء رأسها مرتفعاً ما أمكنها ذلك،

فيما تأخذ في الانتفاخ ببطء. وأحاول أن أتذكّر متى أخرجت الكبش من الحقل، ولا بدّ أنه الوقت الذي توجّب فيه إدخالها. أحصيت تسع عشرة نعجة.

لست في الحقل لإحصاء النعاج وحسب، بل لأخرج من المنزل. فقد اتصلتْ «رايت»، وسألت من جديد إذا كان عليها أن تأتي للزيارة، ليس لسبب محدّد، بل لإلقاء نظرة، وربما للقيام ببعض «العمل النسائي». أخذ الوالد من فوق يسعل، فناديت على «هنك» وناولته السمّاعة وخرجت إلى الحقل.

تنهّدتُ وعاودت الإحصاء، تسع عشرة. سرت إلى أقرب خندق. الشمس تسطع على المياه الملساء. ولا يعني غياب التموّجات الكثير: فالنعجة التي تسقط في المياه تستسلم سريعاً، تشرع في الغرق وتقف في مكانها بهدوء في انتظار النهاية. وخراف «تكسل» من كبار الغرقى، وهذه نقطة أخرى في غير مصلحتها. تبعتُ الخندق حتى الآخر المتقاطع معه، ولحقت بي النعاج التسع عشرة ولكنها أبقت على مسافةٍ بيني وبينها. عثرت على النعجة في الخندق الثالث، وتكاد المياه تصل في كل مكانٍ إلى أدنى قليلاً من مستوى الأرض: وحافتا هذا الخندق لا ترتفعان أكثر من اثني عشر إنشاً. دفنت يديّ عميقاً في الصوف وأخذت في السحب. أقدام الخراف نحيلة وسريعة العطب، لكنها تصبح كأسلاك الرصاص عندما تغرز في الوحل. تأرجحت النعجة إلى الأمام والوراء بعض الشيء، وأدارت رأسها صوبي؛ رشرش الماء على جوانب الخندق المرتفعة ارتفاع المسطرة. وسّعت المسافة بين قدميّ وثبّتهما وكرّرت المحاولة، وإذا بي بعد ثوانٍ قليلة أسقط على عجزي في العشب وفي يدي اليمنى خصلة من الصوف. لم تعد النعجة تنتظر النهاية، بل تصرّفت بعكس طبيعتها وأخذت في الكفاح والثغاء، وعيناها المذعورتان تدوران في رأسها. توقّفت عن التفكير ونزلت إلى الخندق من دون أن أبادر إلى خلع جزمتي المطاطيّة. إنه خندق ضحل، غير أن الماء الموحلة بلغت عنقي عندما جلست القرفصاء لأضع ذراعيّ تحت بطن النعجة. كافحت لرفعها، وجزمتي تغوص أكثر فأكثر في الوحل الامتصاصي. ارتفعت النعجة ببطء ولكن بثبات، حتّى وصلت بواحدة من خاصرتيها إلى جانب الخندق.

ولما اعتقدت أنني سأتدبّر الأمر، شعرت النعجة بالأرض الصلبة وبدأت في الركل بعنف. فقدت توازني وسقطت على ظهري وتدحرجت النعجة من فوقي.

جزمتي في وضع عمودي في الوحل كما لو أنها في الباطون، وأنا مستلقٍ على ظهري وساقاي ملتويتان، وأعجز عن استخدام أي من قواي. تمكّنت مرّة واحدة وحسب من رفع رأسي من فوق الماء – متجاوزاً الصوف الرطب والضخم الوزن – وامتصصت ملء رئتيّ من الهواء، ثم عاد جسم النعجة ليدفعني نزولاً من جديد. اعتقدُ أنه أمكنني الشعور بدقّات قلبها، إنها دقّات ضارية، لكنها قد تكون دقّات قلبي. حاولت تخليص رجليّ من الجزمة، فلم يعد في الأمر أي تهوّر الآن وقد أخذ الهواء ينفد منّي. وتحتّمت عليّ محاولة الانسحاب من تحت النعجة جانبيّاً. لم يعد الأمر يتعلّق كذلك بالشباب الدائم الآن وأنا حيوان نصف غريق عالق تحت حيوان نصف غريق، آخر. عليّ اعتماد الجانب الآخر، إلى اليسار، دافعاً بكتفي اليسرى إلى فوق آملاً في أن النعجة ستنزلق عنّي. غريب أنني شاهدت فجأة «جاب» يسبح مبتعداً عنّي بضرباته القوية أما أنا فأركل بارتباك وأخبّط بذراعيّ بفم فاغرٍ تختفي فيه جرعات كبيرة من مياه «إيسل». المياه تنظّف؟ هذه المياه القذرة النتنة؟ وما الذي يتوجّب غسله؟ طاف شعره جيئة وذهاباً أشبه بالطحالب البحرية. يجب أن أفتح فمي، لا يمكنني تجنّب ذلك. لا أرى «هنك» بل أشاهد نفسي في الـ «سيمكا» وشعري يطوف جيئة وذهاباً مثل الطحالب و«رايت» تنظر إلى الداخل عبر النافذة، وهي غير مصدومة أو خائفة أو مذعورة، بل مبتسمة. بل إنها لم تبذل أقصى جهدها لفتح الباب. عليّ أن أفتح فمي. لا أستطيع وضع ذراعيّ بيني وبين النعجة، حتى إنني لم أتمكن من محاولة دحرجتها من فوق رأسي لرفعها عنّي.

III

٤٣

هلمر،

كذبتَ عليّ. اعتقدتُ أن هنك فقد عقله عندما أخبرني عن والدك، وقلتُ «ولكنّه ميت وقد نثر رماده». وأجابني: «كلاّ لم يمت، وهو فوق في سريره ويمكنني الآن سماعه وهو يسعل». بل قال لي إنه غالباً ما يصعد إليه بعشائه. فلماذا كذبت عليّ؟ لم أتوقّع منك أمراً كهذا. لم يكن «هنك» (شقيقك، خطيبي) ليكذب عليّ بهذا الشكل أبداً. ولطالما اعتقدتك ذلك الفتى اللطيف، الصادق، الرقيق، وتبيّن أنني مخطئة. جلستُ في منزلك وجلت فيه ووالدك فيه أيضاً، وراء أبواب مغلقة! وهو ما يضع زيارتي في ضوء جديد كلّياً. أكره والدك، لأنه طردني وخرب حياتي. (وهل تعتقد أنني أمضيت عشرات السنين سعيدةً وراضيةً مع فيان؟ وإنني أحببت الحياة في برابنت؟).

لماذا قمتَ بذلك؟ هل لأنك اعتقدتَ أنني لن آتي في الحالة المعاكسة؟ أنت لا تفكّر إلا بنفسك. لا يمرّ يوم إلا وأفكر فيه بـ«هنك». كان «هنك» فتى، ولكنه كان رجلاً حقيقيّاً أيضاً، وأعطاني ما أريد. أما فيان فمختلف كلّياً، اهتم بخنازيره أكثر من اهتمامه بي. لقد حللت ثانية. لو أنك فقط تعرف الصور التي تسكنني في كلّ ليلة. تلك السيّارة دوماً وبحيرة إيسل. وأنت أكثر شبهاً بـ «فيان» منك بـ «هنك». والقول إنني قد وجدت بعض السلام في المزرعة في الأيام التي تلت موت «هنك»! لقد شكّلت والدتك عزاء لي واعتقدتُ أيضاً بوجود تواصل ما بيننا (أنا وأنت). وفكّرت بوجود أمر يمكن البناء عليه.

إليك الأمر الآخر: أريد عودة هنك (ليس شقيقك، بل ابني). لم يكن سهلاً وجوده في المنزل، لكن عدم وجوده أكثر سوءاً. أريد أن أتعلّم التحدّث إليه، أريد فهمه، فهو ابني. والأكثر من ذلك هو أنني أدرك أنه لا ينتمي إلى ذلك المكان معك، لأنك كاذب ومخادع، وتشكّل مثالاً سيّئاً له. وما قصّة ذلك الغراب؟ ألم تدرك أنه حيوان خطر؟ لماذا عرّضت ابني لهذا النوع من الخطر؟ وهل حصل، أقلّه، على العناية اللازمة في المستشفى؟ أنت رجل عديم المسؤولية.

سأكتب أيضاً لـ «هنك» لأخبره بأن عليه العودة إلى أمه التي تحتاجه.

لا يمكنني الاستمرار على هذا المنوال.

لك،

رايت.

٤٣

عمّ الضباب. ولا يمكنني رؤية إلا أغصان شجرة الدردار العارية، ولا شيء أبعد من ذلك. المكان رطب دوماً بعض الشيء في غرفة الوالد. لا أذكرها رطبةً عندما كنت أنام فيها. ما زلنا في آذار/مارس، لكن يبدو لي أنه أمكننا أن نكون أيضاً في أيار/مايو بل وحتى في حزيران/يونيو. ويوافقني الوالد الرأي تماماً.

«لقد اكتفيت».

«قلتَ ذلك للتو».

«يستغرق الأمر وقتاً طويلاً جداً».

«لم يحلّ الربيع بعد».

«أعرف. وهذا هو السبب».

نظرت إلى الجدار المكتظ بالصور وبالمطرّزتين وبنباتات الفطر المرسومة بالألوان المائية. هل يلتقط الناس الصور لوقت لاحق، لما بعد غيابهم؟ وسألته: «وماذا ستفعل حيال ذلك؟»

«التوقّف عن تناول الطعام».

«ماذا؟»

«سأكف من الآن وصاعداً عن تناول الطعام واكتفي بالماء».

«لكن.»..

«هل الأمر على هذه الدرجة من السوء؟»

«إذا توقفت عن إتيانك بأي طعام.»..

«ستصبح مذنباً بقتلي؟ في حال ضايقك الأمر إلى هذا الحد، جئني بالطعام على أي حال، وأنا لن أتناوله». ها هو مستلقٍ بابتهاج كما لو أن الأمر مزحة. وربّما فكّر أنه إذا أمكن لابني أن يمزح فإنه يمكنني ذلك أيضاً.

واصلت في الأيام القليلة الماضية النظر إلى معصمَي «هنك». لديه معصمان قويان عريضان، ويغطّيهما شعر زنجبيلي ناعم. أنهى مكالمته الهاتفية مع والدته وتبعني إلى الخارج. تسكّع فترةً عند بوابة الجسر، حيث لا يمكنه رؤيتي، لكنه لاحظ النعاج وقد تجمّعت معاً وتنظر في الاتجاه نفسه. وقال لاحقاً إنه وجد في الأمر غرابة. وأعتقدُ، في نظرة إلى الوراء، أن ذلك حصل عندما تمكّنتُ من رفع رأسي من الماء للمرّة الأخيرة. فتسلّق البوّابة في الوقت المناسب وسار بما يكفي من السرعة لبلوغي قبل أن أغرق. رأى النعجة ممدّدة وذراعاً مرتخية ملتفة حول جنبها. ونزل هو الآخر

في الخندق، وأزاح بسهولة النعجة عنّي، وسحبني واقفاً بهذين المعصمين القويين. بقيت جزمتي في الوحل، ولا تزال فيه. انتشلني من الخندق، ولما فتحت عينيّ رأيت أذناً ويداً ونُدباً. قبّلني على فمي، أو هكذا اعتقدت. والأمر التالي الذي أعرفه هو نفخة قويّة من الهواء تشق طريقها إلى رئتيّ. شعرت كما لو أنني اختنق. ولم يوجد أي مخرج آخر للهواء، إذ أنه قرص أنفي وأقفله. أحدثتُ صوتاً وأبعد «هنك» رأسه. انكمش حجابي وما أعرفه بعد ذلك هو أنني وجدت نفسي ممدّداً على جانبي، بفضل معصميه القويين، وأنا أتقيّأ موجة من المياه الموحلة التي سخنت في جسمي. قال «هنك»: «ابقَ هنا وحسب، ولا تتحرّك». أطعته. أخذتُ في اللهاث وأنا سعيد بأنني أتنفّس الهواء بدلاً من الماء. وبعد ذلك بقليل تطاير بعض قطرات الماء على وجهي من بالة الصوف التي أخذت في الارتعاش. فهو قد تمكّن حتى من إخراج النعجة من الخندق.

وها هو الآن في سريره. قال إنه أسهم في شيء. أرى معصميه على خلفية الحيوانات الأفريقية. تقيّأت بضع مرّات أخرى خلال النهار وانتهى الأمر.

سألني الوالد: «كيف هنك؟»

«أفضل» أجبته. بدا كما لو أنني لا أزال أشعر بطعم الوحل في فمي، أو بالتراب الرملي بين أسناني. بل أمكنني أن أتخيّل أن للموت طعماً موحلاً. وحدّقت بشجرة الدردار.

«كنت ستخبرني عن سبب كرهك لي وعمّا فعلته بك».

«نعم» قلت.

«ولماذا أخبرت آدا أنني خرف ولماذا ترفض طلب الطبيب».

«نعم» قلت.

«أفهم».

«ماذا تعني؟»

«وضعتني في الأعلى كخطوة أولى. وأنت تبعد الناس عنّي».

توقّفت عن الإجابة وحدّقت من النافذة.

«كدتَ في البداية لا تأتيني بشيء آكله. والآن وقد قلتُ أنني لم أعد أريد تناول الطعام، أخذتَ في التذمّر. دعني أرحل وحسب».

أدرت رأسي صوبه ببطء. لم يعد مبتهجاً، وهو على وشك أن يقول أمراً لم يقله أبداً من قبل.

«تقول للناس إنني خرف فلا يعود لأي شيء مما أقوله صحة، وذلك بغض النظر عمّن أقوله له».

التزمتُ الصمت.

«جئتني حينها بالخبز والجبنة، في ذلك اليوم الجميل المشمس».

«نعم؟»

«واعتقدتَ أنني نائم».

لم أجب بنعم من جديد. قال «اعتقدتَ»، وهذا كافٍ.

«أعرف يا بُني. أعرف». ملّس البطانية بيدٍ واحدةٍ على مقربة من ساقيه في إيماءةٍ غريبةٍ أنثوية. وتابع: «كلاّ، شككت بالأمر. ولا أريد أن أسمع كلمةً أخرى في ذلك الشأن. أيّ كلمة على الإطلاق».

أخذ الضباب يتلاشى، يرقّ ويشحب. يوجد وميض فضّي على الطريق وتموّجات لا تكاد تُرى على صفحة القناة. نهضت وسرت إلى الباب. ما الذي يعرفه بالضبط أو يشكّ فيه؟ وهو لا يريد أن يسمع أي كلمة في شأنه أبداً، لكن هذا ليس أسهل من التوقّف عن تناول الطعام.

رأيت نفسي أركع بجانب السرير وأسند رأسي على البطانية، وأرى يد والدي وقد توقّفت عن فركها. يرفع يده وينقلها من فوق ساقيه ويضعها على رأسي. بدت اليد جافة وجلدتها تخدش شعري، لكنها بدت دافئة أيضاً. فتحتُ الباب ونظرت إلى الطبق على طاولة السرير. ساندويشة من الجبن وتفاحة وسكّين. تركت الطبق في مكانه وخرجت إلى بسطة الدرج.

أما وقد أصبح كلّ واحد في سريره، فقد استلقيت أنا الآخر أيضاً في سريري. أصبحنا للتو في منتصف النهار. وقد تملّكني شعور أكبر بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان. توجّب على «هنك» الإقامة هنا، مع «رايت» ومع الأولاد. ولو تم ذلك لنشأ بين «رايت» و«آدا» رابط قوي بالرغم من فارق العمر بينهما، ولذهب أولادها إلى المدرسة مع «تون» و«رونالد»، ولقال «هنك» من قلبه لسائق الصهريج الشاب إنه يأسف لرؤيته يرحل ويتمنّى له الأفضل، بل وربّما ربّت على كتفه. وأنا، عندما أنظر إلى المرآة، أشاهد نفسي. وأحياناً أتطلّع عبر نفسي وأرى «هنك» الذي يبادلني في الغالب النظر مع تعبير غريب على وجهه. وكيف يبدو الأمر لو أننا كلينا نقف الآن بالذات، متّحدين، مع الوالد؟ فهل سنبقى قادرين على استفزازه بالنظر مباشرةً في عينيه؟ وهل كان «هنك» سينتصر لي، أو انه سينعتني بهدوء، ولكن بوضوحٍ، بالغبي؟

قمتُ حتى الآن بأنصاف الأمور، وامتلكت فترةً طويلةً جدّاً نصف جسد. فلا مزيد من الكتف إلى الكتف، ولا مزيد من الصدر إلى الصدر، ولا مزيد من أخذ وجود بعضنا البعض بمثابة الأمر المفروغ منه. سأذهب قريباً للقيام بالحلب. وسأقوم غداً صباحاً بالحلب من جديد. وما تبقى من الأسبوع طبعاً، والأسبوع الذي يليه. غير أن هذا لم يعد يكفي. لا أعتقد أن في وسعي الاستمرار في الاختباء وراء البقر وترك الأمور تحصل، كالغبي.

٤٤

ذراعاه بجانب جسمه، ولا يمكنني رؤية معصميه. انقشع الضباب وفتحتُ النافذة نصف فتحة. رائحة المرض تفوح من الغرفة الجديدة، بالرغم من أنه أصبح، منذ يوم أو يومين، في حالٍ أفضل. وتعبق فيها أيضاً رائحة دخان السجائر. يرفض النهوض. والرسالة التي بعثت بها والدته إليه ملقاة بجانب السرير. والرسالة التي أرسلتها إليّ موجودة تحت على طاولة المطبخ.

بدّلتُ الضمّادة على رأسه مرّة، وأعدت وضع قبعة الشاش من فوقها. ولمّا مضيت للقيام بذلك للمرة الثانية (وكان قد لزم فراشه)، وجدت الجرح قد جفّ فتركته. أطراف القطب الجراحية الزرقاء أطول من شعره. تمتم: «إنها دوماً تستهدف رأسي. أعني الحيوانات».

تساءلتُ عن موعد نزع القطب. أهو أمر يمكن للمرء القيام به بنفسه؟ استهوتني فكرة القيام بذلك بنفسي،فأثبّتُ جمجمته على صدري واستخدم يداً متماسكة لنزع القطب بواسطة الملقط.

سمعت صوت صهريج الحليب يتوجّه صوب الباحة. السائقة الجديدة امرأة حازمة في منتصف الأربعين. لم أتبادل معها سوى كلمة أو كلمتين، فهي متحفّظة، وفظّة بعض الشيء على غرار سائق الصهريج المتقدّم في السن.

«أتفتقد أخاك؟» سألني «هنك».

«ماذا؟»

«أتفتقد شقيقك. هنك؟»

لم أجب.

«لا أفتقد شقيقتيّ أبداً».

«لا تزالان على قيد الحياة».

«صحيح. هل كانا سيتزوّجان حقّاً؟»

«نعم».

«وكنتما تشبهان أحدكما الآخر؟»

«شاهدتَ الصور في غرفة نوم الوالد، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكن.»..

«إننا توأم».

«لماذا وَقَعَتْ في غرام شقيقك وليس في غرامك؟»

«لا أعرف».

«أو هل إنها رأته أوّلاً وأنت من بعده؟»

«كلا، كلانا في الوقت نفسه. كنّا معاً في الحانة».

«لماذا؟»

«لا أدري يا هنك. الأمور تحصل بهذا الشكل».

«أمكن بسهولة للأمر أن يختلف».

«لست على هذا القدر.»..

«ماذا لو أنها.»..

«توقّف».

«أعتقد أنها تريد الزواج منك».

«اعتقدتُ ذلك أيضاً».

«ولم تعد تعتقد؟»

«لا».

«بل أعتقد أنها تستخدمني لهذا الغرض».

«كيف؟»

«بإرسالي إلى هنا».

«أنتَ تشاهد الكثير من التلفزيون».

«أنها ستُصاب بخيبة أمل». وضحك ضحكةً مكبوتة.

نظرتُ إليه. «حان وقت النهوض».

«لا. سأبقى هنا».

«وماذا قالت؟»

«إنها تحتاج إليّ، وإنك كاذب وإن عليّ العودة إلى المنزل».

خرج الصهريج من الباحة. وازداد الهدوء في الخارج. يمكنني الشعور من ظهري بأنني لا أزال واقفاً تحت النافذة، تحت الجدار المائل. زحلتُ ثيابه عن الكرسي وجلست.

«انها غاضبة، من والدي، من شقيقتيّ ومنّي، ولطالما كانت كذلك. إنها غاضبة من كل شيء ومن الجميع. حتى من الخنازير. وهي ربّما غاضبة منك أنت أيضاً».

«نعم».

«لماذا أخبرتها بأن والدك متوفّ».

«إنها قصّة طويلة».

«لدي متسع من الوقت».

«لا ليس لديك، فعلينا إدخال النعاج».

«لماذا؟»

«إنها على وشك الوضع».

«تعني النعاج».

«نعم».

«ألا يسعك القيام بذلك بنفسك؟»

«كلاّ. أحتاج إلى مساعدتك».

«هل سيتوجّب عليّ الركض؟»

«ربما».

«أنا مريض».

«كنتَ مريضاً».

«أنا خائف».

«إنك شاب، وعليك القيام بالأمور من غير عناء».

«أريد البقاء هنا بشكل دائم. لا أريد العودة إلى والدتي الغاضبة، إلى برابنت. أكره المكان هناك، ولا يوجد لدي شيء في برابنت. ما نفع الشقيقتين؟»

«وهل لديك شيء هنا؟»

«نعم،» وبان المعصمان. تحسّس علبة السجائر على طاولة السرير، وقال: «لا بد وإن في الأمر غرابة أن يكون للمرء شقيق توأم، شخص هو صورة طبق الأصل عنك». وأشعل سيجارته.

قمت عن الكرسي وزدت بعض الشيء من فتحة النافذة.

«الجسم نفسه تماماً».

«ما الذي تخاف منه في الواقع؟»

«الصيف».

«ماذا؟»

«الصيف طويل وموحد وخفيف». انزلق اللحاف نزولاً بعض الشيء، معرّياً صدره. صدر ناعم شاب بقلب جبان. نفخ سحابة من الدخان، ليس صوب النافذة بل مباشرة في وجهي. «لا توجد مشكلة مع الشقيق التوأم. فأنتما دوماً معاً».

من المؤكّد أنه يركض أسرع مني بمرّتين. يركض سريعاً جدّاً مشتّتاً النعاج في كل الاتجاهات. طلبت منه التروّي، وذكّرته بأنه يتعامل مع حيوانات حاملة. ولما تفقّدت المكان بعد الحلب، وجدت أن حملين قد أخذا فعلاً في السير في أنحاء زريبة الخراف. يقسم سياج موضوع في الوسط الزريبة إلى حظيرة الإسقاط من جهة وإلى حظيرة الحملان من جهة أخرى. التقطت الحملين وأخذت إحدى النعاج في الركل. إنها الأم. وضعت النعجة والحملين في حظيرة الحملان، و«هنك» يراقب من المدخل، وقد احمرّ وجهه، وخيوط من البخار تصعد من كتفيه.

«تعالَ» قلت.

سار عبر الحقول الخالية من الخراف ولكن غير الفارغة إلى طاحونة «بوسمن». وقد وقفت أوزتان رماديتان على مقربة من الخندق. وشاهدتُ أيضاً طيريْ زقزاق، وسرباً من اليمام، وزوجاً من طيور أم عجلان، وبقويقة سوداء الذنب منفردة. ولما كدت أتيقّن من أن طيور الطيطواة لم تصل بعد، مرّت بنا اثنتان منها طيراناً. الشمس على وشك المغيب، وريش مروحة الطاحونة تدور ببطء شديد. طويت ذيل الطاحونة إلى الأمام لحلّه ومسحت يديّ على سيقان بزّة عملي. ولتأتِ المياه.

قلت: «أمضينا الكثير من الوقت هنا، في الصيف».

«أنت وهنك؟»

«نعم».

«مثل الآن،» قال. «لكن الصيف لم يأتِ بعد».

«كلاّ» أجبت. «الصيف لم يأتِ بعد». طارت الأوزتان، وإحداهما تحلّق أعلى من الأخرى، على طريقة الأوز. «اعتادت والدتك أيضاً المجيء إلى هنا، إثر وفاة هنك. مع والدتي».

إلا أن هذا لا يثير اهتمامه. «وماذا فعلتما هنا».

«تسكّعنا في المكان».

نتسكّع، نقف، نسير، نجلس. نحدّق في زنابق الماء الصفراء في القناة، ونشاهد السحب تنجرف ببطء – دائماً ببطء. نراقب المياه ترتفع في الخندق، ويتوقّف الزمن عندما نغمض أعيننا للاستماع إلى القبّرات، وإلى صرير محور الطاحونة المشحّم، وإلى الهواء يصفر عبر الدعامات. وتتحرّك كل أنواع الأمور جيئة وذهاباً من تحت جفوننا، ولا تُظلِم أبداً، بل تتحوّل إلى البرتقالي. وعندما يحل الصيف ونصبح هنا في بلدٍ آخر – يكاد يشبه أميركا – يتوقّف كل شيء آخر عن الوجود. ونصبح موجودين، بل تصبح رائحتنا أقوى من رائحة المياه الدافئة، ومن روث الخراف، والأشواك الجافة. رائحة الرُكب والبطون العارية اللطيفة والطبشورية أحياناً. ونجلس على العشب الذي يحكّ. يلمس واحدنا الآخر وكأنه يلمس نفسه. نشعر بنبض قلب الآخر وكأنه نبضنا، ولا يمكن للمرء أن يصبح أكثر التصاقاً من ذلك. يكاد الأمر يشبهني والنعجة وقد اندمجنا معاً تماماً قبل أن تغرقني.

«هلمر؟»

«نعم».

«كيف يبدو الأمر عندما تمتلك شقيقاً توأماً؟»

«أجمل شيء في العالم، يا هنك».

«وهل تشعر الآن بأنك نصف شخص؟»

أردت أن أقول شيئاً، ولم أتمكّن. حتى أنني أردت الإمساك بواحدة من الدعامات لتجنّب الوقوع. فلطالما كنت منسياً: فأنا الشقيق، والوالد والوالدة أكثر أهمّية. طالبتْ «رايت» – مهما أوجزت في ذلك – بفترة ترمّلها، وها أن ابنها يقف قبالتي ويسألني إذا كنت أشعر بأنني نصف شخص. أمسكني «هنك» بكتفيّ فتخلّصت منه.

سألني: «ما الذي يبكيك؟»

قلت: «كل شيء».

تطلّع إليّ.

وتركته يفعل.

لم نتناول الطعام فعلاً. فتح «هنك» زجاجة نبيذ، ويوجد على الطاولة خبز وجبن وزبد ولبن وكيس مفتوح من رقائق البطاطا. قال: «إنها تتصرف كما لو أنك من أفلت ذلك الغراب عليّ». تناول رسالة أمه وبسطها أمامه. «وهاك: نوع من الرابط في ما بيننا وما يمكننا البناء عليه. قلت لك إنها تريد الزواج منك. وكنت عندها لتصبح والدي».

قلت: «طبعاً لا. لو كنتُ والدك لما كنتَ ما أنت عليه».

«ماذا؟»

«تعرف ماذا أعني».

«لا على الإطلاق. هل أقلي بعض البيض؟»

«لا، شكراً. ولماذا تقرأ ذلك على أي حال؟ فمن الوقاحة قراءة رسائل الآخرين».

ثملتُ وواصلت النظر عبر النافذة الجانبية. أملت في أن تراقبنا «آدا» عبر منظارها وترى وحسب ما الذي يحصل هنا. خمر، وطعام سيّء، واضطراب عام.

قلت: «أمكنني أن أصبح عمّك. ولكن ليس حقّاً، فلو أن هنك والدك لما أضحيتَ أيضاً من أنت عليه».

رمقني بنظرةٍ غامضة. وقال بتمهّل «العم هلمر».

تساءلتُ عن مكان الملقط، هل هو في عدّة الإسعافات الأوليّة، أو في خزانة البياضات في مكانٍ ما تحت كومة من المناشف النظيفة. وقلت: «هل لك، يا هنك، أن تأتيني بعدّة الاسعافات الأولية من الخزانة؟ وأن تشعل معك النور». نهض وفعل ما طُلب منه. وقلت في نفسي أن واصلي المراقبة يا «آدا»، وأنا أنقب عن الملقط وأخرجه من علبة الإسعافات الأوليّة. دفعت بكرسيّ بعيداً من الطاولة وأشرت إلى «هنك» بالاقتراب أكثر.

وسألني: «ما الذي ستفعله؟»

«سأقوم بإزالة تلك القطب».

«أمتأكّد أنت؟ ألا أحتاج للذهاب إلى المستشفى من أجل ذلك؟»

«كلاّ. اركع».

ركع أمامي واستخدمت إحدى يديّ لشد رأسه على صدري.

«احرص» قال.

وأجبته: «بالتأكيد». توجد أربع قطب، خرجت اثنتان منهما من دون أي شدّ حقيقي. أما الثالثة فأكثر صعوبة.

«آخ» قال «هنك».

«لقد تم الأمر». أما الرابعة فسهلة هي الأخرى.

مرّر، قبل أن يقف، أحد أصابعه من فوق الجرح الذي كاد يصبح ندبة.

وقفت في زريبة الخراف وأنا مُربك قليلاً. لا يحصل الشيء الكثير. يرضع الحملان من والدتهما، وقد استلقت النعاج الباقية وهي تجترّ بهدوء. ليس لدي ما أفعله هنا، تخلّصت من كل شيء آخر على وشك أن يحدث بجلوسي على الأرض في حظيرة الحملان وظهري إلى السياج، والجلوس أسهل من الوقوف. تشبه الزريبة الملأى بالخراف في الربيع، الزريبة الملأى بالبقر في الشتاء. قلت لنفسي إنه يجب ألاّ أفكّر بهذه الطريقة بعد الآن. وأنا لا أريد التفكير بهذه الطريقة بعد الآن. سحبني «هنك» من ذلك الخندق، وتغيّر شيء ما. وهذا الشيء هو العلاقة، كما فكّر بذلك نخاعي الثمل. وتساءلت هل يجب أن تفعل شيئاً في المقابل عندما ينقذ أحدهم حياتك. تقدّم أحد الحملين إليّ، فضربت الشاة الأرض بقدمها الأمامية. الخراف في الزريبة ليست بهذا القدر من الأسف التي هي عليه في الحقل. غادرت الزريبة تاركاً نورها مضاءً.

خلعتُ ثيابي في ملحق المطبخ ورميتها في السلّة. يصل صوت التلفاز من غرفة الجلوس. دخلت إلى الحمّام وفتحت الصنبورين وشرعت في غسل شعري بالشامبو الخاص بـ «هنك». فُتح الباب وأنا أهمّ بإعادة وضع القنينة على الرف تحت المرآة. دخل إلى الحمّام وأقفل الباب وراءه.

«ما الذي تفعله؟» سألته وأنا أمسح الرغوة عن عيني.

قال: «أريد الدخول تحت المرذاذ».

«ألا ترى أنني هنا؟»

«نعم» قال. وخلع الـ«تي ـ شيرت».

«هل تستخدم الشامبو خاصتي؟»

«نعم».

«لا يهم».

قلت: «ارحل يا هنك».

«لماذا؟»

«لأنني أقول ذلك».

فقال: «ها!».

«من السيّد هنا؟»

ها هو يقف قبالتي، والـ «تي ـ شيرت» يتدلّى من يده اليمنى، وبدا متفاجئاً. «ما الذي حلّ بك؟»

وكرّرت: «من السيّد هنا؟» أخذ الصابون على جمجمتي يحكّني، ورأسي يطنّ. لقد أصبحتُ والدي. ولستُ مُحرَجاً، ولا تمتلكني أدنى رغبة في إخفاء عريي. استمرّ «هنك» ينظر إليّ، وشاهدته يقلّب الأمور في رأسه ويبحث عمّا يقوله. غير أنه لا يملك أي حلفاء، فلا يوجد أحد يقف جانباً من ورائي.

وقال: «أنت السيّد». وعاود بهدوءٍ شديدٍ ارتداء الـ«تي ـ شيرت» قبل أن يختفي من الحمّام.

وجدت، بخروجي، كل الأنوار مضاءة. تصاعد صوت المذياع من المطبخ؛ والتلفاز في غرفة الجلوس يبثّ قناة الموسيقى. ولم أرَ «هنك» في أي مكان. درتُ في أنحاء المنزل وأطفأت الأنوار والمذياع والتلفاز. وخففت في النهاية النار إلى أدنى درجة وذهبت إلى غرفة نومي. أضأت النور وتوجّهت للوقوف أمام خريطة الدنمارك، وقلت بصوت منخفض «سكاندربورغ». ويتبع ذلك في العادة ثلاثة أسماء أو أربعة، ولكن ليس هذه المرّة. دخلت إلى السرير الضخم وأغمضت عيني. سمعت بعد ذلك بقليل صوت دينامو درّاج عابر. وعمّ بعد ذلك الهدوء.

استيقظت عندما صعد أحدهم معي إلى السرير. تنهّد وتحرّك جيئة وذهاباً.

أحدث غطاء الوسادة المجاورة لوسادتي حفيفاً. لم يشعل النور، وانتظرتُ.

«لم أعد أريد النوم في تلك الغرفة بعد الآن» قال. «إنها باردة ورهيبة».

أعرف ذلك. فهي باردة ورهيبة، وفارغة أيضاً.

تمدّد من دون أي حراك، حتى أنني لم أتمكن من سماع تنفّسه.

وقال بعد برهة: «لم يتناول والدك طعامه».

تنحنحتُ. «لم يعد يريد تناول الطعام».

«أيريد أن يموت؟»

«نعم».

«وأنا لا» قال بتنهيدةٍ راضية. ثم استدار على جانبه. ولم أتمكن من رؤية أي جانبٍ بسبب الظلام الشديد.

سبق لي وقلت بالفعل أمراً آخر. أجبته، وقد فات الأوان الآن على إبعاده. ربما هذا هو المقابل الذي على المرء أن يدفعه لمن أنقذ حياته.

٤٥

جلستُ على طرف السرير ونظرت إليه وهو مستلقٍ على ظهره مرتدياً «تي-شيرت» البارحة نفسه، وصدره يرتفع وينخفض بهدوء. ينفخ قليلاً وهو يزفر. يستلقي في سريري كأنه لم يستلقِ في أي مكانٍ آخر أبداً، وهذا يضايقني. نهضت وارتديت سروال العمل. وسألت بصوت مرتفع: «هل ستأتي وتقوم بعملٍ ما؟» لم أستطع حمل نفسي على القول، استيقظ، يا هنك.

تذمّر قليلاً واستدار وتكوّر على بطنه. «بلى، طبعاً،» تمتم في الوسادة، «ليس بعد».

قلتُ: «إنها الخامسة والنصف».

استغرق بعض الوقت ليتفوّه بشيء آخر. «تلك الحيوانات».

«وماذا بها؟»

«تلك التي تستهدف رأسي».

«نعم؟»

«يجب أن أفعل شيئاً في هذا الخصوص».

«وماذا تريد أن تفعل؟» قلت وأنا أكاد أبلغ غرفة الجلوس.

«لا أعرف».

«احمِ رأسك».

«لا أدري».

«مات ذلك الحمار المصغّر منذ أعوام، والغراب الأبقع طار مبتعداً».

«ومع ذلك».

«أنا ذاهب» قلت. «هل ستهتم بالعجول؟»

«نعم لاحقاً».

نحن في أواخر آذار/مارس وقد طلعت الشمس عند شروعي في الحلب. انتهيت من حلب عشر أبقار وسرت إلى باب الزريبة. يوجد طائر أسود في مكانٍ ما، والبخار يتصاعد من كومة الروث، ويمكن لأشجار الصفصاف المقلّمة أن تبرعم في الغد. العجول مضطربة في الزريبة، والمكان، عدا ذلك، هادئ جدّاً، بحيث يمكنني سماع الحمارين يهرولان في حقلتهما.

مرّ عليّ ثلاثون عاماً ولم أقرأ أي قصيدة – ناهيك بإشعارات الوفيات – وها أنا أفكّر الآن بواحدة. لم أتعلّم الكثير في أشهري السبعة في أمستردام، والأمر الوحيد الذي لا أزال أذكره هو أن القصائد تكاد تتعلّق بشكلٍ دائم بالماضي. فالقصيدة بمثابة «واقع مكثّف»، و «حدث اختُصر بجوهره»، وً «تسأم». (شيء لا يُصدّق أن أرى الآن أمامي، بدلاً من كومة الروث، أستاذنا المحاضرّ النشيط في الأدب المعاصر: بضفائره المتشابكة، ونظارتيه الأشبه بالبوم، كما لو أنه نفسه شاعر) ولا تتعلّق القصيدة بما يبدو أنها تتعلّق به (تحمّس استاذنا المحاضر النشيط في الأدب المعاصر). حبذا لو أنني أدخّن لتوجّهت الآن واستندت إلى جدار الزريبة لأنظر متفكّراً – وأنا أدخّن، كما أتخيّل ذلك، بنشاط متفكّر – إلى طاحونة «بوسمان» المتوقّفة عن الحركة. عدت إلى الزريبة ووصلت المخلب في أنابيب الحليب والشفط، ووضعت المصاصات على حلمات البقرة الحادية عشرة.

انهيت الحلب، وملأت سطلين بالماء وأفرغتهما في البرميل، في الجانب الآخر من البوابة، في حقلة الحمارين، ورميت بعضاً من الجزر الشتوي بالقرب منه. سار الحماران الهوينا، جنباً إلى جنب، صوبي بدلاً من أن يهرعا مباشرة إلى البوابة. هذان الحيوانان خاصتي. فعلاً خاصتي، فأنا اشتريتهما. ولا شيء هنا غيرهما يخصّني فعلاً: لا البقر، ولا النعاج، ولا دجاجات «لاكنفلردر» التي ورثتها، ولا الـ «أوبل كاديت»، ولا كومة الروث، ولا أشجار الصفصاف. أقود السيارة، وأرمي بالروث على الكومة، وأقلّم الأشجار، إلا أن أياً منها ليس خاصتي. وما أنا إلا نزيل أقوم بأعمال يُفترض أن يقوم بها أحد غيري.

الشمس مشرقة ويكاد الهواء يختفي. إنه الربيع. يوجد ما يلمع على ما تبقى من الجدار الجانبي لكوخ الفلاح، ربّما أثر حلزون. فكّرت بأن الشعور بالحاجة إلى كتابة قصيدة ليس بالشيء الجيّد. وللأمر علاقة بما قاله «هنك» بالأمس. اختفت الجزرتين بقرقشة واحدة في فم الحمارين. حككت خلف أذنيهما، ولم أفكّر في التوقّف إلا عندما اكتفيا كلاهما وشرعا في هزّ رأسيهما في الوقت نفسه. تأخّرت جداً في الاهتمام بالعجول، لأن «هنك» لم ينهض من السرير.

٤٦

أخذ لون والدي يميل أكثر إلى الاخضرار. مضى عليه أسبوع بلا طعام مكتفياً بشرب الماء وعصير البرتقال الذي أخذ يخفّف أكثر فأكثر من تناوله لأنه «كثير الحموضة». وأعثر بين الحين والآخر على قطرة من البول الأصفر في نونيّة السرير. لم أنزل به ولا مرّة إلى تحت في الأيام السبعة الماضية. لكنه حقّق أمنيته وحصل على آخر ربيعٍ له. مضت بضعة أيام على الطقس المشمس واللطيف وأخذت البراعم تنمو على شجرة الدردار وتحوّلها إلى هيكل شجرة. بدأ صوت والدي يضعف وأجهل إذا كان توقّفه عن تناول الطعام هو السبب. وإلى متى يستمر هذا النوع من الأمور؟ أتصوّر أنه يمكن للجسم القوي أن يستمرّ أسابيع من دون طعام. وأخذت أصعد لأتفقّده أكثر من المعتاد، فأُصاب أحياناً بصدمةٍ حين يبدو لي ميتاً بينما هو ينام نوماً عميقاً. وغالباً ما يبعث في طلب «هنك»، ويتحدّث إليه. ولم أتمكّن يوم البارحة من المقاومة فتسلّلت وراءه إلى بسطة الدرج.

سأله «هنك» ببهجة: «كيف حال من يعاني سكرات الموت، يا سيّد فان فوديرن؟»

«بخير» أجاب الوالد بالقدر نفسه من البهجة ولكن بهدوء.

لا بد أن «هنك» حمل البندقيّة لأنهما أمضيا بعدها وقتاً طويلاً يناقشان طريقة عملها. سأل «هنك» الوالد عمّا اصطاده؟ الأرانب البرّية والدرّاج، وقد مضى على ذلك وقت طويل. هل ترتدّ بقوّة على الكتف؟ لا، فقوة الارتداد خفيفة. وهل البندقية محشوة؟ لا، طبعاً لا. وهل لديه رصاص («خرطوش»، قال الوالد بصوتٍ أكثر ارتفاعاً، «خرطوش!») وأين يحتفظ به؟ في خزانة البهو القريبة من الحمّام. وكيف تذخّر البندقية؟ يجب أن تحلّ ذلك المغلاق، فتفتح وتلقّمها خرطوشتين وتعيد إقفالها.

هل تنطلق الخرطوشتان في الوقت نفسه؟ كلا، لديك طلقتان وتبقى الخرطوشتان في مكانهما. وماذا يحدث بعد ذلك؟ عليك بإخراجهما. أو هزّها لإخراجهما، وعادت البندقية إلى موقعها بجانب البندول. سمعت صوت ارتطام المعدن بالخشب، وعمّ الهدوء فترة.

ثم سأله الوالد «هل أنت لطيف مع هلمر؟»

«نعم» أجاب «هنك».

«وهل هو لطيف معك؟»

قال: «على ما يكفي من اللطف».

لم يقل الوالد شيئا، وتنهّد تنهيدةً كبيرة. فتسلّلت عائداً على الدرج.

يكاد لا يتفوّه بأي كلمة معي. يكتفي بالسؤال عن عدد الحملان التي وُلدت ولماذا لا يأتي أحد أبداً للزيارة، وأين ذهبت «آدا» ولماذا لم يعد يسمع صوت تاجر المواشي. وأين «تون» و«رونالد»؟ ربّما أخذ سوء التغذية يؤثّر فعلاً على ذاكرته.

لم أجب «رايت» على رسالتها، أو اتصل بها هاتفياً. كذلك الأمر بالنسبة إلى «هنك» الذي قال: «من تحسب نفسها؟ يمكنها المضي والإقامة عند شقيقتيّ».

شققت طريقي عبر الأنقاض القديمة في غرفة نوم «هنك»، واضطررت إلى دفع الكثير من الأغراض جانباً لفتح باب خزانة الجدار. صندوقة الكرتون موجودة على الرفّ الأسفل. وكُتب على أعلاها بخطّ واضح: «اللغة والأدب الهولنديان، جامعة أمستردام، أيلول/سبتمبر ١٩٦٦-نيسان/أبريل ١٩٦٧». ولا أذكر قيامي بالكتابة، بل أتذكرّ بتجهّم تكديسي المقررات في الصندوق وبالكاد اتسع الوقت لـ«هنك» ليرتاح في قبره. رفعتُ الصندوقة إلى طاولة زينة أمي وبحثت عن كتاب «هـ. ج. م. ف. لودفيك: تاريخ الأدب الهولندي». وضعت الجزء الأول (من البدء وحتى حوالى ١٨٨٠) جانباً وجلست على سرير «هنك» ومعي الجزء الثاني (من حوالى ١٨٨٠

وحتى الزمن الحاضر). سمعت الوالد يشخر بلطف، إذ لم يعد يمكنه حتى القيام بذلك بأقصى قوّة. تصفّحت الكتاب وأنا لا أدري أين أجد ما أبحث عنه. «غورتر»، «ليوبولد»، «بلوم»، «نيجهوف» «أشتربرغ»، «وارن»، «فرومان». ضاق صدري، وأنا اقرأ السطر الغريب الذي يصيب، أو سيصيب قريباً، في الصميم (غطّى الطوفان الأرض، طوفان من الماء الفاتر والدم، / وأنا رجل يتيم الأب ومتجذّر في الوحل)، ثم قلبت الصفحات بسرعة، ولاحظت أنني أحاول تذكّر الوجوه التي التقيتها في الأشهر التي قضيتها في أمستردام، وأسمع في الوقت نفسه طيور الغرّة تنبح، إلى أن عثرت في النهاية في الصفحة ٥٣١ على قصيدة قرأتها من أولها إلى آخرها.

التوق والسعي

لماذا – عندما أغمض عيني

في السرير، أو في أفكاري –

أشاهد أنفك دوماً وشعرك وصدرك؟

أشاهد نفسي أحياناً

في المرآة أو في زجاج النافذة،

تماماً بعدما أراك:

يا نصف جسدي.

أعتقد، بكل شبابك وجمالك،

أنني أشبهك.

فأنفي وصدري وشعري

كلها متطابقة.

رأيت اسم الشاعر غير أنني لم أقرأ ما يقوله «لودفيك» في شأنه، أو حكمه

على القصيدة. لا أهمية لأي من ذلك. أقفلت الكتاب وأعدت الجزء الأول إلى الصندوقة.

فكّرت في الدنمارك، ونزلت إلى تحت وأنا أحمل الجزء الثاني بيدي.

«هنك» على الأريكة يشاهد التلفاز. وهو غير جالس بل ملتفّ على نفسه وجهاز التحكّم يتدلّى من إحدى يديه، وقميصه غير مزرّر، كما لو أنه يحتل المكان.

سألته: «ألم تتفقّد النعاج بعد؟»

«لا».

«لماذا؟»

«أشاهد التلفاز».

«إنها الساعة الثانية».

«فليكن؟ إنها الحرب. انظر».

نظرتُ إلى الشاشة وشاهدت مباني وأشجار نخيل مبعثرة. انفجار في مكان ما. شوارع خالية. عناوين فرعية في أسفل الصورة. أهكذا هي الحرب في أيامنا؟ تُبث حيّة على التلفاز؟ مع أولاد مثله يسترخون على الأريكة لمشاهدتها؟ «أتعتقد أن النعاج تبالي؟»

«تعالَ واجلس لبعض الوقت».

حدّقت إليه إلى أن رفع نظره إليّ، وقلت: «اذهب واهتم بالنعاج». استدرت ومضيت إلى المطبخ وجلست إلى المكتب. فتحت الصفحة ٥٣١ وأخذت إضمامة ورق وشرعت في نقل القصيدة، وانتزعت الورقة عندما انتهيت متسائلاً عمّا أفعله. وقفت والصفحة في إحدى يديّ وأنا لا أعرف إلى أين أذهب. نظرت من النافذة الأماميّة، ومن النافذة الجانبية، وإلى الصحون على لوح التجفيف والصحيفة على الطاولة، وسمعت أزيز الساعة، وأدركت أن التلفاز مُطفأ. وها أنا أقف حاملاً نسخةً

نظيفةً من القصيدة ولا فكرة لي عمّا أفعله بها. هرعت عبر الفناء إلى ملحق المطبخ، وصعدت الدرج بخطواتٍ واسعةٍ والتقطت أنفاسي عند البسطة. فتحت بحذرٍ باب غرفة نوم الوالد، فوجدته غافياً ورأسه الصغير من دون حراك على الوسادة، فاغر الفاه، متضخم الأنف، وجافاً. وها أنا من جديد لا أملك أي فكرة عمّا سأفعله لاحقاً. نظرت حول الغرفة وسرت حتى السرير. وضعت القصيدة التي اعتنيت في نسخها على صدره الذي يعلو ويهبط بهدوء.

صوت حفيف في الخارج. حفَّ وهزَّ جناحيه أشبه بمزارع في بذّة الأحد السوداء يحاول عبثاً، مسح يديه الكبيرتين. لقد عاد. قرقعتُ لساني بهدوء، واعتقدتُ أنه من الأفضل له لو بقي بعيداً.

٤٧

«هل أنا هنك ما الآن؟» أمضى «هنك» بضع ليال في غرفته، غير أنه شعر الليلة على ما يبدو بمزيدٍ من البرد، واندس معي للمرة الثانية في الفراش. غفا لبعض الوقت قبل أن يصحو ويسألني هل إنه «هنك ما». كُنت قد استيقظتُ واستلقيت على جانبي أنظر إلى الضوء المتسلّل إلى الغرفة عبر شفرات الستائر المعدنية، وشرعت في الاستماع. مرّ أحدهم للتو راكباً درّاجة، وهبط بعض البط في القناة، ونبحت طيور الغرّة بهدوء. قال الوالد شيئاً، ربما في نومه، وربّما محدّقاً مثلي إلى الظلام، وإلى ستائره التي يغفو وراءها الغراب الأبقع على غصنه المعتاد. لم يراودني في الأساس إحساس بالارتياح، وها إنني أشعر بمزيدٍ من التوتّر في جسمي، وأعرف ما الذي يقصده، إلا أنني لم أجب.

قال: «إذاً، هل أنا هنك ما؟»

سألته بحذر: «ماذا تقصد؟»

«شقيقك، هل أنا مثل شقيقك الآن؟»

ثمة ما هو خاطئ جدّاً في الأمر. ومتى بدأ؟

قلت: «لا».

صمت برهة، ثم قال: «أعتقد ان والدك جريء».

حكّتني عظمتا كتفي من الضيق. أنانية الفتى: يتحدّث عندما يرغب بالكلام حتى ولو في منتصف الليل. عليّ النهوض للحلب، وهو يبقى في السرير لا يخرج منه إلا حوالى الثامنة للاهتمام بالعجول. هذا لو نهض.

قلت: «كما أن في وسعك ان تعتبره جباناً».

«كيف ذلك؟»

«لن تفهم».

«أوه».

قلت: «عد إلى النوم» وأنا لا أزال مستلقياً على جانبي لكنني أشعر بالرغبة في الاستدارة. حدّقت إلى شفرات الستائر، غير أنني تخيّلت «آدا» تظهر من حول زاوية باب المطبخ، وعلى وجهها نظرة خبيثة وتقول، «لديك متّسع للتمدّد على السرير الكبير». وترمقني بنظرةٍ ذات مغزى وهي لا تزال مضحكة بشفتها العَلَم. «وسادتان، يا هلمر، وسادتان». ولمّا اعتقدتُ أنه عاود النوم، استدرت على ظهري وفركت الحكاك. نظرت إلى الإطار الداكن على مقربة من الباب، ووددت لو أنني في الإطار أفكّر في المكان هنا.

قال، وهو نصف غافٍ: «إذا سألتني، فأنا هنك من نوعٍ ما».

وفكّرت أن لا حيلة لي في الأمر.

غفا بعد ذلك بقليل وفكّرتُ في الخندق والنعاج. استغرق الأمر إحدى النعاج طويلاً، كما أنني انتشلت حملين نافقين. فهل هي النعجة التي سقطت في الماء؟ حاولت أن أتذكّر ما فكّرت فيه أو رأيته وما حصل لي في الدقائق السوداء ما بين الغرق واستعادة الوعي. أو أنها ثوان؟ وهل هو الأمر نفسه أيضاً الذي اختبره «هنك»؟ أو أنه كان قد فقد الوعي عندما ارتطمت السيّارة بالماء؟ لاحظتُ يديّ وقد شبكتا معاً فوق معدتي، كما لو أنني مسجّى. أحبّ الاستلقاء على جانبي الأيمن لكنها الجهة الموجود فيها «هنك»، فعدت واستدرت إلى يساري، وقد عمّ الصمت التام في الخارج.

كيف يفعل ذلك؟ يسأل الوالد كيف حال من يعاني سكرات الموت، كأنه يسأله هل يريد المزيد من صلصة اللحم على البطاطا؟ وكيف يقوم الوالد بذلك؟ يجيبه «بخير» كأنه يبدو راضياً وهو يصبّ الصلصة؟

٤٨

أزهرت المنغوليا، أشبه بثمرة كرزٍ مثلجةٍ على روث بقرة. أزهارها الكبيرة ليست بيضاء ولا حمراء، بل ورديّة ذات طرف أبيض. ولو أن كوخ الفلاّح لا يزال قائماً لبلغت أعلى أغصانها النافذة الناتئة. جاء نيسان ورحل الربيع من جديد. الطقس مشمس ولكنه بارد وتهبط الحرارة ليلاً إلى ما دون الصفر، إلا أن المنغوليا ظلّت مزهرة. لا يحدث أي من ذلك فارقاً بالنسبة إلى الشجرة ولا يبدو أن الصقيع أضرّ

بالأزهار. فمنذ فترةٍ طويلةٍ جدّاً أدى صقيع الليل إلى تجميد كل الأزهار التي تحوّلت بعد يومين إلى اللون البنّي كما لو أنها اكتوت بالنار، ولم تتساقط التويجيات عن الأغصان كالعادة الواحدة تلو الأخرى. الجو صافٍ بشكلٍ لا يُعقل: يمكن، من نافذة الوالد، مشاهدة المنارة في «ماركن». والهواء يهب من الشمال أو من الشمال الشرقي، من الدنمارك.

قال الوالد: «لم يتبقّ غيرك بعد وفاة والدتك». وقد استلقى على جانبه لأنني طلبت منه ألا يتمدّد كل الوقت على ظهره. الورقة التي تحمل القصيدة ملقاة بجانب السرير ونصفها تحت الطاولة ووجهها الأبيض إلى فوق. «والآن وقد رحل الجميع أودّ اجراء محادثة أخيرة مع تاجر المواشي، بالرغم من أنه بالكاد يقول شيئاً».

قلت: وأنا أوجّه الكلام إلى نفسي أكثر منه إلى الوالد، «لا بدّ أنه أصبح الآن في نيوزيلندا».

«الحياة عبارة عن قدر كبير من الفوضى. آدا لم تأتِ إلى هنا منذ أسابيع لأنها راقبتك بالمنظار وأنت راقبتها. ولماذا لم يعد تون يأتي؟ إنه فتى لطيف. ما هي لعبتك يا هلمر؟»

«أنا؟»

«نعم، أنت».

نظرت من النافذة وقلت: «شجرة الدردار تبرعم».

«ما عدد الحملان؟» لا يريد مهما حصل أن يضيّع العدد.

«أربعة عشر».

«من أصل؟»

«عشرة».

تنهّد. «لم يتمكّن أحد من التفريق بينك وبين هنك، لا الحلاّق، ولا المعلّم، ولا

أجدادك. حتى أنه تعيّن عليّ أحياناً أن أنظر عن كثب. وحدهما والدتكما وجاب عرفا دوماً هويّة كل منكما. ولطالما عرف جاب أيّكما هنك وأيّكما هلمر. فكيف عرف ذلك؟ ما الذي رآه ولم يتمكّن الآخرون من رؤيته؟ أنا لم أثق به أبداً». ها هو مستلقٍ على طرف السرير. وقد مرّ وقت طويل على تقليم أظفار يديه وتدلّت يده الأشبه بالمخالب على جانب السرير. حرّك أصابعه كما لو أنه يحاول بلوغ القصيدة. وفوجئت بخروج هذا العدد الكبير من الكلمات من مثل هذا الشخص المرهق. لن يمكن أبداً لأصابعه أن تبلغ الأرض من على السرير المرتفع. ثم استدار على ظهره. وتبعت ذراعه حركة جسمه وسقطت على البطانيات أشبه بغصن يابس. أخذ يلهث بعض الشيء. وقال بصوت لا يكاد يُسمع: «لا أعرف ما الذي جرى في كوخ الفلاح، لكنني سعدتُ برحيله».

«ماذا؟»

تنهّد وقال: «التقبيل. الرجال لا يقبّلون».

لم ألاحظ حتى هذه اللحظة تكتكة البندول غير المنتظمة والبطيئة. مرّ وقت طويل ولم أرفع الأثقال. «إنه.».. ثم تغاضيت عن الأمر وتغاضيت عنه. وقفت وفتحت باب البندول الزجاجي ورفعت الأثقال وعادت التكتكة إلى جودتها السابقة.

«لم تقل أبداً أي شيء» قال الوالد. «لم تقل أبداً أنك لا تريد ذلك».

«لم يتوفّر لك الكثير من الخيارات». وسرت عائداً إلى النافذة وتابعت خط السد ببطء شديد إلى أن وقع نظري من جديد على المنارة.

«لا».

«كذلك، لم يتوفّر لي الكثير من الخيار».

لم يجب على ذلك، واستمر في اللهاث.

«وها أن هنك هنا الآن». وعبرت سيّارة على طول السد ببطء شديد. التقطت

نوافذها نور الشمس التي بدا أنها تشرق من داخل السيارة. عربة الإله الشمس. وأجبت: «لا أعتقد أنها فكرة جيّدة».

«لا، ربما لا،» قال الوالد.

انعطفت العربة وعادت وتحوّلت إلى سيّارة، فاستدرتُ.

غمضت جفون الوالد لكن مقلتي عينيه استمرتا في الحراك. «أنا.».. قال ثم صمت لفترة طويلة. «يوشك ألاّ يكون لي أحد بعد الآن».

عرفت ذلك. عرفت أنه قرأ القصيدة.

٤٩

«ما اسمكِ»

«غريتا».

«أنا هلمر فان فونديرن».

رمقتني بنظرة وقحة. «نعم، أعرف ذلك».

«ما اسم عائلتك؟»

«وماذا يهمّك؟ فأنا السائقة وحسب».

«حسناً. مهما يكن».

انحنت «غريتا» وحلّت أنبوب الحليب. تلبس حذاء رياضيّاً لكنها لم ترفع قدميها لتفادي الكمّية الصغيرة الأخيرة من الحليب التي تنساب من الصهريج والأنبوب.

سألتني: «كيف فتاك؟»

«فتاي؟»

«مساعدك».

«هنك؟»

«وكيف لي أن أعرف اسمه؟»

«لماذا تسألين؟»

«ما من سبب».

«يبدو لي سؤالاً غريباً».

«صحيح؟» انتهت وسارت في اتجاه الكابينة وتسلّقتها. كان سائق الصهريج الشاب يقفز كالهرّ ويفتح الباب وهو يقفز. أما «غريتا» فتتسلّق بجهد، تلهث، تتمسّك وتسحب نفسها إلى أعلى. واضطرّت إلى سحب الباب مرّتين ليغلق كما يجب. لم يعد في وسعي رؤيتها، لكنني تخيّلتها تجر عجزها السمين جيئة وذهاباً لتريح نفسها قبل أن تشرع في العمل على عصا تغيير السرعة وجهاز التعشيق ودوّاسة الوقود. ساد الهدوء لفترةٍ قاعة الحليب، وشرعتُ بعده في شطف الخزّان بأنبوب المياه وفي غسل البلاط.

هناك أحد في الحقل، على مقربة من طاحونة «بوسمان». وقفتُ عند بوّابة الجسر أراقبه يقترب من المزرعة. وأخذ يكبر ويكبر، ويصغر ويصغر في آن. إنه «رونالد».

«المكان تسوده الرطوبة هنا» قال بعدما وصل.

قلت: «ذلك هو المقصود».

لا أكاد استطيع تذكّر المرّة الأخيرة التي أمطرت فيها، وشاهدت مساء البارحة على التلفاز أن نيراناً شبّت في الكثبان والأراضي البور بسبب الجفاف، غير أن الحقل على مقربة من طاحونة الهواء تحوّل إلى مستنقع. فالمكان هنا ليس كثباناً أو أرضاً بوراً، بل مرجة مستنقع.

«لماذا؟»

«للطيور، يا رونالد. فهي تحب الأرض الرطبة».

«آه، صحيح،» قال وهو يقف عند الجانب الآخر من البوابة.

«ألن تتسلّق من فوقها؟»

«بلى». ونظر من حوله، «طقس جميل، أليس كذلك؟»

«أشبه بالصيف».

«نعم، إلا إننا لا نزال في نيسان/أبريل».

«كيف حديقة أمّك؟»

«ماذا بها؟»

«هل تبدو جميلة؟»

«آه، هه. أين هنك؟»

«ذهب إلى مونّيكندام لجلب بعض السجائر».

«على الدراجة؟»

«صح».

«التدخين سيّئ، أليس كذلك؟»

«التدخين سيّئ جدّاً، لكنه ممتع».

«ولماذا لم يستخدم السيارة؟»

«لأنه لا يملك إجازة سوق».

«هل يخاف؟»

«لا. لكنه في الثامنة عشرة وحسب».

«وكم عمرك أنت؟»

«كثيراً».

«ماذا فعلت برأس هنك؟» قال وهو لا يزال واقفاً في الجانب الآخر من البوابة.

«ماذا تعني، يا رونالد؟»

«القُطب الجراحيّة».

«استخرجتها».

«ألا يتوجّب على الطبيب القيام بذلك؟»

«لا، هذا أمر سهل».

«أوه». بدا تعيساً بعض الشيء ووضع إحدى رجليه على القضيب الأسفل للبوابة.

أخذته من إبطيه وساعدته في العبور من فوقها.

قال: «سأذهب إلى المنزل الآن».

«حسناً».

«لكنني أريد أن أرى الحمارين أوّلاً». اجتاز الباحة إلى حقلة الحمارين وكانا على مقربة من الكوخِ، واقتربا خبباً لما شاهداه عند البوابة. مدّ «رونالد» يديه من خلال القضبان وحكّهما معاً تحت ذقنيهما. ولمّا تعب من ذلك، بقيا في المكان

لفترة يحكّان ذقنيهما مستخدمين قضيب البوابة الأعلى. وسار «رونالد» ببطء إلى الطريق يركل الحصى من أمامه ولم يلتفت مرّة إلى الوراء للنظر إلي.

لم يتغيّر شيء عندما شاهدت «هنك» عائداً على الدراجة. فلا أزال عند بوابة الجسر والحماران لا يزالان واقفين عند بوابتهما. ولمّا شاهدا «هنك»، شرعا في النهيق وفي هزّ رأسيهما. تجاهلهما وجاء بدرّاجته إليّ مباشرة ومدّ يده في اتجاه رأسي. تنحّيت، تماماً كما تراجع بعد عودته من عند الحلاق وشعر بيدي تتحرّك صوب رأسه المحلوق. كم مضى على ذلك الآن؟

لهث بعض الشيء، وأسند دراجة الوالد إلى البوابة وخلع معطفه وطواه فوقها ثم سحب علبة سجائر جديدة من إحدى الجيوب الداخلية. «إنها تغلي» قال وهو ينتزع ورقة السيلوفان عن العلبة ويرفع الغطاء ويسحب سيجارة. وظهرت الولاّعة من جيبه الخلفي. أشعل السيجارة وتنشق بعمق، وأنانيّة، بالطريقة الأنانية الموجودة في كل شيء فيه. «إنها تغلي» قال من جديد، «والصيف لم يأتِ بعد».

«كلاّ» قلتُ. «ليس الصيف لا من قريب ولا من بعيد».

تناولنا الطعام، وصعد «هنك» من ثمّ إلى أعلى يحمل طبقاً. رفعت الطاولة وشرعت في الجلي. وعاد ـ من دون الطبق – وأنا انتهي من تجفيف آخر سكّين. وبلغت به الوقاحة حد القول: «لم يمت بعد».

استدرت لأواجهه، ولا أزال ممسكاً بالسكين النظيف البرّاق بيدي اليمنى والفوطة الرطبة على أحد كتفيّ، وقلت: «أغلق فمك يا هنك».

«يا إلهي» قال.

فتحت درج أدوات المائدة بقوة ورميت السكّين فيه. ونشرت الفوطة على ظهر أحد الكراسي وسرت إلى ملحق المطبخ.

ناداني: «إلى أين أنت ذاهب؟»

لم أجب. وجدت الأبقار في الزريبة تجترّ بهدوء، كما ساد الهدوء زريبة الخراف. شرعتْ إحدى النعاج في الوضع في فترة بعد الظهر ولم تحرز أي تقدّم. طويت كمّي وضيّقت يدي ما أمكن وتحسست طريقي عبر كتلة من الأقدام والأجسام والرؤوس. يوجد ثلاثة: إنها النعجة الأولى التي تحمل ثلاثة. العدد ثماني عشرة. أخرجتها بعد بضع دقائق، وكان أحدها نافقاً. من العار دوماً نفق حمل، بيد أن وجود ثلاثة يعني دوماً أن أحدها سيحتاج إلى الإرضاع بالقنينة، وهو ما ليس محتملاً هذه السنة مع بقاء اثنين فقط. لقد سبق لـ «رونالد» أن اشتكى بالفعل فهو يهوى أن يتسكّع بقناني الرضاعة والحلمات. نقلتُ الحملين الباقيين إلى حظيرة الحملان، ثم فتحت البوابة لسوق النعاج عبرها إلى الجانب الآخر. مدّدت الحمل النافق خارج حظيرة الخراف بجانب الآخر الذي نفق بالأمس، وسيتوجّب عليّ غداً صباحاً الاتصال بالشخص المولج بإحراقهما. ارتفع العدد من ثماني عشرة إلى تسع وعشرين، وأمكن للأمر أن يكون أفضل.

توجّهت، بعودتي إلى المنزل، إلى الحمّام مباشرة. تركت الصنبورين مفتوحين إلى أن فرغ المرجل. جفّفت نفسي ولففت المنشفة حول خصري. المنزل هادئ و«هنك» لا يشاهد التلفاز، بل يجلس إلى طاولة المطبخ وظهره إلى النافذة الجانبية. الستارة مسدلة وهو يدخّن. الطاولة خالية تماماً إلا من المنفضة الملأى بالأعقاب. وتوجّهتُ إلى غرفة الجلوس.

سألني: «إلى أين تذهب؟»

«ذاهب إلى السرير».

«آه» هتف بسخط، «سأذهب إذاً أنا أيضاً إلى السرير».

قلتُ: «إلى سريرك».

«فوق؟»

«صحيح، فوق، فسريرك موجود هناك».

«لكن.»..

«لكن ماذا؟» وبلغت باب غرفة النوم.

«لا شيء، لا شيء أبداً».

أغلقت باب غرفة نومي وتوجّهت للوقوف أمام خريطة الدنمارك، وقلت: «هلسينغور، ستنستروب، إسروم، بليستروب، تيسفيلديليي». ولم تكفني الليلة خمسة أسماء ردّدتها ببطء، بل زدت عليها بضع جزر إضافيّة: «سامسو، إيرو، أنهولت، مون». السرير الكبير جاهز لي. وعندما رفعت اللحاف شممت رائحة هنك. تمدّدت وشددت حبل الضوء. فأظلمَتْ. سمعته يدخل إلى غرفة الجلوس. سمعته يسير إلى باب غرفة النوم. تنفّس أمام الباب المقفل، وتنفّستُ أنا هنا في السرير. ثم سار مبتعداً عن الباب. وبعد ذلك بثوانٍ دار التلفاز. انجرف دخان السيجارة إلى غرفة النوم عبر الشقوق. وبعد ساعة انطفأ التلفاز. صعد إلى أعلى وهو يضرب الأرض بقدميه وصفق باب الغرفة الجديدة وراءه. لم يفكّر بالوالد، ولم يفكّر بي. إنه شاب لا يفكّر إلا بنفسه.

٥٠

«رايت»

أنتِ محقّة: فأنا كاذب ومخادع. قلتُ ان الوالد توفّي اعتقاداً منّي أنك بخلاف ذلك لن تأتي. وأردتك أن تأتي. أردت رؤيتك، وأردت التحدّث عن «هنك». أصابني الفضول في شأنك. تماماً – على ما افترض – كما أصابك الفضول في شأني. لكنك لم تسأليني شيئاً، بل اكتفيتِ بالحديث

عن نفسكِ بالعلاقة مع «هنك». وهذا يؤلم. شعرت مرّة أخرى الآن بأنني منسي.

أمكنني أن أتساءل عن دوافعكِ من وضع «هنك» في عهدتي. الجميع يريد شيئاً، إلا أنه لم يتضح لي تماماً ما الذي تريدينه. هل اعتقدتِ أنه يحتاج إلى شخصيّة الأب؟ في الحقيقة يمكنني أن أكون أي شيء إذا اقتضى الأمر، لكنني لست والداً. ولست عمّاً أيضاً. أنا ابن. أنا شقيق. لكنني لا أريد الخوض في ذلك. أعتقد أن فترة «هنك» «التدريبيّة» قد انتهت، وأعتقد – لا بل أنا متأكّد – أن الوقت قد حان لعودته إلى «برابنت»، إليكِ أو ربّما إلى مكانٍ يخصّه. مضى عليه هنا شهران ونصف وأعتقد أنه تعلّم الكثير، وأنا لا اتحدّث فقط عن العناية بالمواشي أو مختلف أنواع عمل المزرعة. فهو يتفاهم جيّداً مع الوالد، وقد أمضيا أخيراً الكثير من الوقت يتحادثان، وربّما أن هذا ما لا تودّين سماعه. وعليه، في شتى الحالات، أن يرحل.

وإذا سألتني فإنه لا يوجد فيه أو في شأنه الكثير من الخطب. وأعتقد أنه، في حال وجود أي شيء، فهو أكثر من قادر، مع الوقت، على إيجاد حلّ للأمر بنفسه. ولا يمكنني القيام بأي شيء آخر له. أنتِ والدته، وهذه مسؤوليتك. اقترح أن تأتي وتأخذيه، لأنه يصعب علي الابتعاد بسبب البقر والخراف. لا بد أن إحدى ابنتيك تمتلك سيّارة؟ سأهاتفك في شأن التفاصيل. ومن المرجّح كثيراً عندها– وأنا هذه المرة لا أكذب – أن يكون الوالد قد رحل. فقد اكتفى من الحياة وتوقّف منذ فترة عن تناول الطعام.

مع أطيب الأمنيات،

«هلمر فون فاندين»

توقّف بعض الأمور عن إثارة دهشتي. فـ «هنك» لم ينهض من سريره بعد، وبالتالي فإنني لم أجلس إلى طاولة المطبخ إلا عند التاسعة من هذا الصباح. وارتفع العدد الآن في حظيرة الحملان من تسعة عشر إلى ثلاثين. ولا تزال أمامي نعجة واحدة. تناولت الفطور وصببت بعده بعضاً من القهوة وجلست إلى المكتب لكتابة رسالة «رايت» التي وقّعتها باسمي الكامل. ربّما فعلت ذلك لأظهر لها أنني جدّي. باتت الرسالة في المظروف مع الطوابع؛ وسأرسلها في وقتٍ لاحقٍ اليوم.

أجلسُ على أريكة غرفة الجلوس، والوالدة من على رف الموقد تراقبني وأنا أدخّن سيجارة. كانت بالفعل مغوية ومتعجرفة ويقظة. تمتلك الآن أيضاً بعضاً من الازدراء. الشمس جميلة من خلال شفرات الستارة الضيقة. وقد ترك «هنك» في الليلة الماضية علبة سجائره على مقربة من الأريكة. أبدو سخيفاً بالسيجارة الآخذة في الاحتراق في يدي، ويمكنني رؤية ذلك في المرآة. السيجارة ذات الفلتر نحيفة وأنيقة ويدي غليظة وناتئة العظام. وكيفما حملت السيجارة ينجرف دخانها إلى عيني اليسرى التي أخذت تدمع. عاودتُ النظر إلى صورة أمي. يستحيل الأمر – فالصورة صورة، والوالدة متوفّاة – لكنه لا يزال يبدو أنني أرى ابتسامة هازئة تمرّ مسرعة على شفتيها. ربّما أنا ذلك النوع من الرجال الذي يجب أن يلف سيجارته بنفسه.

الوالد نائم، من دون أن يشخر. صدره، أو ما تبقى منه، يرتفع ويهبط قليلاً. وعليّ أن أنظر عن كثب وإلا لن أتمكن من رؤية ذلك. حان الوقت فعلاً ليحصل على حمّام، غير أنني لم أعد أجرؤ على القيام بذلك. كلاّ، أفضّل ألا أراه يموت على غرار أمي في الحمّام. الوالدان يموتان في الحمام، لا. طبق الطعام الذي حمله «هنك» الليلة الماضية إلى فوق موضوع على طاولة السرير، ولم يُمس. رأسا بطاطا جافان، بازلاء خضراء ذابلة، وقطعة لحم مكبّبة. وإلى جانب الطبق كوب من الماء بالكاد شرب منه. وها هو يتحرّك.

«هنك؟» قال وعيناه مغمضتان.

تساءلت، أي «هنك» يقصد في الواقع؟ هل إنه يحلم بابنه؟ قلت: «لا، هذا أنا».

«هل كنت تدخّن؟»

«نعم».

فتح عينيه ونظر إليّ، وقال بهدوء «أنت شاذ».

«نعم».

«هل تعرف ما الذي أواصل التفكير فيه؟»

«لا».

«تلك الرحلة بالسيارة على بحر غو. هل تذكر؟»

«نعم، كان الجليد بسماكة قدمين ونصف».

«أردت الخروج إلى بحيرة إيسل، إلا إنني كنت خائفاً جدّاً. وتوقّفنا هناك على مقربة من السد لساعات».

قلت: «لم تكن ساعات».

«شعرت بأنها كذلك». وأغمض عينيه من جديد، ويداه ممددتان بقرب جسمه أشبه بساقي عجل ميت. «كنت خائفاً جدّاً» قال هامساً. «خائف جدّاً».

لم أقل شيئاً واكتفيت بالاستماع.

«وجلستما في وسط المقعد الخلفي كأنكما صبي واحد».

وقفتُ. بدا كما لو أنه غفا من جديد ويحلم بالشتاء القطبي الشمالي منذ أربعين عاماً.

«هلمر؟» قال، وأنا عند الباب.

«نعم؟»

«أريد أن أدفن مع والدتك و«هنك». ولا تضع إشعاراً في الصحيفة إلا بعد الدفن».

«أمتأكّد أنت؟ ألا تريد أن يحضر أحد؟»

قال «لا أريد أحداً».

فقلت: «حسناً».

«وأريد بيضة».

«ماذا؟»

«بيضة مسلوقة».

«مضت عليك أسابيع ولم تتناول أي طعام. ستقتلك».

«لو استطيع الضحك لفعلت. أرغب في بيضة».

«سآتيك ببيضة، لاحقاً».

أقفلت الباب وعبرت بسطة الدرج.

وتساءلت هل أنني أفعل الصواب؟

عندما يموت الوالد سأصبح الوحيد المتبقي، فكّرت بهذا فيما تحرّكت يدي على مقبض باب الغرفة الجديدة.

فليكن، فكّرت وأنا أفتح الباب.

٥١

تقع نافذة السقف المائلة قبالة الشمال وتلقي بضوء غريب على الغرفة الجديدة التي لا تتلقى نور الشمس الوحيد المباشر إلا في وقت متأخر من أمسيات حزيران/يونيو وتموز/يوليو. لا يعرف «هنك» بعد، كما لم يعرف بالأمس، إن في الخارج صيفاً. ولا يعرف كذلك ما الذي سيفعله بعد ظهر هذا النهار. وقد تغطّى حتى أذنيه باللحاف الذي يحتوي على الأحرف الزرقاء الداكنة والأرقام.

«هنك؟»

«بغيض».

«ماذا تقول؟»

«دعوتك بالبغيض».

«هيّا، هيّا».

«أتقول أنك لست كذلك؟»

«لا أدري».

انزلق اللحاف كاشفاً عن صدره. حرّك يده في اتجاه طاولة السرير وقصاصة الصحيفة التي يستخدمها علامة لموضع القراءة موضوعة على غلاف الكتاب.

قلت: «سجائرك في الأسفل».

«اللعنة». كتّف ذراعيه وحدّق إلى الجدار المقابل للسرير. «ما الذي جاء بك إلى هنا في أي حال؟»

«لم تهتم بالعجول هذا الصباح».

«وبالتالي؟»

«قمت بذلك بنفسي».

«هذا جزاؤك».

«وهو ما صعدت إلى هنا في شأنه».

«يمكنك إذاً الرحيل».

«حسناً.» واستدرت وسرت خارجاً إلى بسطة الدرج. كنت قد نسيت السجائر؛ ويمكنني النزول إلى تحت وانتظار الوقت الملائم.

نزل قبل الساعة الثانية عشرة بقليل وقد ارتدى ثيابه وتجهّز. توجه مباشرة إلى غرفة الجلوس وأشعل سيجارة. ثم جاء إلى المطبخ وملأ ركوة القهوة بالماء وسكب البن في الفيلتر وتوجه إلى النافذة الجانبية. وقال بعد برهة، «ما هذا الطقس؟» وغرغر الماء عبر آلة صنع القهوة.

«طقس جميل» قلت.

«أشبه بالصيف».

«وأنت لم تطلع حتى إلى الخارج».

بقي في مكانه عند النافذة الجانبية إلى أن انتهى الماء من التنقيط عبر الآلة. وسكب لنفسه عندها كوباً وجلس إلى طاولة المطبخ. لم يسأل حتى إذا كنت أريد أنا أيضاً كوباً من القهوة.

«ألا تريد أن تأكل شيئاً؟»

«لاحقاً».

«ألديك مشاريع بعد الظهر؟»

حدّق إليّ غير مصدّق. «مشاريع؟»

«آه ـ هه».

«لا».

«يوجد في بروك مكان صغير لتأجير قوارب التجذيف لا يتعب نفسه بالالتزام في مسألة المواسم الرسميّة. وإذا ذكرتَ له اسمي فسيعطيك قارباً من دون أن يثير أي مشاكل. ولديه خرائط أيضاً، لشمال ووترلاند».

«قارب». أشعل سيجارة جديدة ونظر إلى القناة عبر النافذة الأمامية.

«عليك أن تستفيد من طقس كهذا».

«وكيف أصل إلى هناك؟»

«تأخذ يمينك عند آخر الطريق، ثم إلى الأمام حتى المنزل السابع إلى اليسار في بروك. ويمكنك سلوك الطريق المائية التي تمرّ من هنا».

وسألني «أتريدني بعيداً منك؟»

«ولماذا؟ أنت لا تذهب أبداً إلى أي مكان. ولم تقصد إلا منّيكندام».

«لا تزال بغيضاً».

«طبعاً. ربّما أنا كذلك».

أعطيته قبل أن يمتطي درّاجته خمسين يورو أوراقاً من فئة العشرة. كان معطفه موضوعاً في كيس بلاستيكي يتدلّى من المقود، وقد خرج من الزريبة بانعطافة واسعة. تمشيتُ إلى خم الدجاج والتقطت أربع بيضات أخذتها إلى الداخل ووضعتها في وعاء بيض فارغ وتركتها بجانب الموقد. خلعت بذة العمل واستلقيت على الأريكة وأغمضت عينيّ. ستستغرق عودته بعض الوقت.

إنه السادس عشر من نيسان/أبريل، وها إن شاباً يعبر بقارب، وهو ما لا يحصل

في الغالب وبخاصة في هذا الوقت المبكر من الموسم لأن طرق التجذيف الرسميّة لا تمرّ بمزرعتي. خلع قميصه، فالطقس دافئ بشكلٍ غير معهود بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة. وأنا أقف عند جانب المنزل، الجانب الشمالي، وغير مرئي حتى الآن. ولما كان المجذّف وحده، فلا تبادل للحديث، ولا تعليق على مزرعتي والأشجار أو على حماريّ. يجثم الغراب الأبقع على أحد أغصان شجرة الدردار الملتوية. وهو يتفلّى ويرفع بين الحين والآخر منقاده الكبير من تحت جناحيه للتحقّق من تقدّم القارب. لا يضرب المجذاف زنابق المياه الصفراء؛ لأنه لا يوجد أي زنابق صفراء في نيسان/أبريل. كما لا توجد أية طيطواة صاخبة؛ وهناك زوجان من أكلة المحار في الحقل في الجانب الآخر من القناة يبحثان بهدوء عن الطعام.

شعرُ الشاب زنجبيلي وقد لوّحت الشمس كتفيه بعدما قلّل من تقدير قوّتها الربيعية. وضع المجذاف على القارب أمامه، وأخذ الماء يقطر منه في المياه، القارب ينساب إلى الأمام ببطء. لا مكان لي أذهب إليه، ولا يوجد أي شيء في الجانب الشمالي الخالي من المنزل يمكن أن أعمل عليه. وأنا لا أريد الذهاب إلى أي مكان. أريد أن أقف في مكاني وتتم رؤيتي.

رآني. وعلقت مقدّمة قاربه عند جانب القناة. نظر إليّ وتطلّع إلى النافذة الناتئة. تطلّع إلى الغراب الأبقع، وإلى الاشجار المحيطة بالباحة، بل إنه نظر – ولو لبرهة – إلى الحمارين الفضوليين اللذين انتهى بهما الأمر يقفان عند السياج الجديد على طول الطريق. ولا يمكنني القول هل دُهش لرؤيتي هناك أو لا. لم يرفع يده، ولم أرفع يدي أيضاً. وإذا قدّرتُ الأمر بصورة صحيحة فإنه ينظر إلى ما يراه بوصفه بطاقة بريدية قديمة مصفرّة تضم مباني وأشخاصاً وحيواناتٍ وأشجاراً تجمّدوا في الزمن. شيء يُلتقط لبرهة ثم يوضع جانباً من جديد. مكان لا يُقدّم إليه فيه شيء.

ثم التقط المجذاف ودفع بنفسه بعيداً عن الضفة. واستدار بعد فترة قليلة يميناً إلى قناة «أوبروود». لا بد من أنه اعتنى في دراسة الخريطة. تابعتُ السير على

الطريق لمراقبته. فقناة «أوبروود» تصب في البحيرة الكبرى. ويوجد، بعد البحيرة الكبرى، خندق ضيّق، لا أعرف اسمه، يؤدّي إلى «داي» على مقربة من «أويتدام» ووراءها تقع بحيرة «إيسل».

جاء إلى الزريبة وقد شارفتُ على الانتهاء من الحلب، وبقي واقفاً هناك تماماً أمام الباب الجرّار المفتوح، تحوطه الشمس فلا أرى إلا صورة ظلّه. شعرت بوزن بقراتي العشرين، بثقل القش في مخزن التبن، بالدعامة الثقيلة، وبالقرميدات على السطح (لا توجد بينها واحدة متقوّسة)، وبأشجار الصفصاف الحسنة التقليم. وبالكاد أمكنني الوقوف.

قال: «تريدني أن أرحل».

«نعم» قلت، وأنا أنزل مخلب الحلب إلى الأرض.

«اللعنة».

تساءلت: متى تأتي السنونو؟ أم أنها أتت فعلاً؟ لقد فقدت إحساسي بالوقت. الدنيا في الخارج صيف.

٥٢

«قاربت النهاية» قال الوالد.

«نعم» قلت وأنا أفكّر بما حصل سابقاً في النهار.

النافذة مفتوحة على مصراعيها.

واستدركتُ: «نعم؟»

«ولم أحصل على الربيع، بل حصلت بدلاً منه على الصيف».

«هل ستأكل بيضتك؟»

«قريباً. فسأنظر إليها أوّلاً لبعض الوقت».

سبق لي أن انتزعت له القشرة ووضعت البيضة على صحنٍ صغيرٍ وبجانبه صحفة الملح، وأخذ الذباب يتراقص أمام النافذة المفتوحة. جلست عند قدم السرير، فقال انه سينظر إلى البيضة لكنه تطلّع إليّ. لم أعد أرى الورقة من تحت طاولة السرير، وتساءلت عن مصير القصيدة.

سألني: «هل ستتمكّن من تدبّر الأمر بنفسك؟»

«أعتقد ذلك».

«أنت رجل ناضج».

«نصف رجل ناضج».

ها هو ينظر إلى البيضة كما لو أنه حصل على قالب من حلوى (المرصبان)، ذلك النوع الذي يدعوه الخبّاز في «مونّيكندام» بالـ «قُصور». كان، في الأيام الخوالي، يقود السيارة أحياناً في يوم سبت مسافة الطريق إلى المدينة ليشتري أربعة منها. حتى أنه يأتي في بعض المناسبات بخمسة. وأصبحت لاحقاً ثلاثة، ونادراً ما ذهب إلى هناك، بعد وفاة الوالدة، ليأتي باثنين. ولم أخبره أبداً أن «القصور» ليست الحلوى المفضّلة لدي.

«شكّلتُ الخيار الثاني» قلت. «وهذا هو الأسوأ. الشعور الدائم بأنني لست جيّداً كفاية».

قال: «بذلتُ أفضل جهدي».

«وأنا لم أفعل؟»

«بل فعلت بالتأكيد. جميعنا فعلنا». توجد فيه حياة الآن أكثر مما وُجدت فيه هذا الصباح.

«أين هنك؟»

«لا أعرف. في الخارج، على ما أعتقد».

أردت أن أسأله شيئاً. فهناك، رغم كل شيء، أمر أريد الإذن منه للقيام به. «هل عليّ».. قلت. ثم نهضت وركعت على ركبتي وأدخلت رأسي من تحت السرير. وها هي القصيدة وقد غطّاها الزغب. نهضت وعاودت الجلوس على السرير، على مقربة من قدميه. وهو لا يزال يحدّق إلى البيضة، وقد أصابه الآن بعض الخوف.

«هل عليّ أن أبيع، يا والدي؟»

«لك الحريّة، يا بُني، لك ملء الحرّية». رفع الصحن الصغير بيده الأشبه بالمخلب عن طاولة السرير ووضعه في حضنه. تدحرجت البيضة على البطّانية. «الميت مات» قال. «ومن مات فات، وعندها لن أعرف حتى بالأمر». تلمّس مكان البيضة وأعاد وضعها بعناية في الصحن. «عليك أن تقرّر ذلك بنفسك».

نهضتُ. فرؤيته يأكل البيضة كثيرة جدّاً عليّ.

مضت أسابيع الآن ولم يقل شيئاً يختص بالغراب الأبقع، كما لو أنه نسيه.

«هنك» ليس في الخارج، بل في المطبخ نصف جالس على سطح المجلى، ويحمل في يمناه مغلّفاً مزّقه لفتحه، وفي يسراه رسالتي إلى أمه التي توجّب عليّ تسليمها على الوقت ليأخذها ساعي البريد. لقد تغيّر: هو نفسه تماماً ولكنه مختلف، تماماً كما يبدو المنزل غريباً بعدما يمضي المرء يوماً في مكان غير مألوف. فمنزل المزرعة بدا لي مختلفاً بعد مأتم سائق الصهريج العجوز وبعد التزلّج على البحيرة الكبرى وبعدما جلبت «رايت» من المعدية. وأدرك الآن أن الشعور نفسه انتابني

لما عدت إلى المنزل بعدما أتيت بـ «هنك». ولم أستطع بعدُ اكتشاف السبب. ربما لأن المرء نفسه قد تقدّم في السن، ولو ببضع ساعات وحسب (وقد سبق وبلغت هذا الحد) وكل ما في المنزل تجمّد في مكانه ما عدا عقارب الساعة. ويستغرق الأمر من ثمّ بعض الوقت لتتجاوز الزمن الذي افتقدته في المنزل.

لن أقول له إنه من الوقاحة فتح رسائل الآخرين. وها أنا ألاحظ أن جبهته وأنفه قد كوتهما الشمس أيضاً. استدار وجعّد الرسالة وهو يفعل. أدركتُ الحركة، إلا أن «هنك»، وعلى عكس الوالد منذ أربعين عاماً، يحمل ولاّعة. سحبها من جيبه الخلفي ووضع اللهب تحت قطعة الورق وأفلتها قبل أن تحرق أصابعه. وتابعت الورقة احتراقها في حوض المجلى.

«أي نوع من الرسائل هذه؟» سأل «هنك». «هل تعتقد أنه يمكن لأمي أن تفهم أي شيء منها؟»

«آخرها، على الأقل».

«لا حاجة» قال. «يجب أن تسعد لأنني أحرقتها».

«ماذا تعني بلا حاجة؟»

نظر إليّ ورفع حاجبيه. ثم تمشى خارجاً من المطبخ. سمعته يصعد إلى الأعلى ويسير إلى غرفة الوالد. هل سيجلس ويتفرّج عليه يأكل البيضة؟

تطلّعت من حولي. تقول الساعة التي تئزّ أنها الثامنة وعشرون دقيقة. سلقتُ بيضة للوالد، بيد أنني لم أتناول الطعام. ولا أعرف هل تناول «هنك» الطعام أو لا. بدا أنه من الباكر جدّاً على الشمس أن تغيب، وتوجّب علي مع ذلك إشعال نور المطبخ. إنه الصيف في نيسان/أبريل.

تفقّدت الوالد قبل أن آوي إلى السرير. لم أشعل النور، فالضوء المشع من بسطة الدرج يكفي تماماً لرؤية الصحن الصغير الفارغ. تمدّد الوالد على ظهره وأمكنني

سماعه يتنفّس من أنفه. وسرت على رؤوس أصابعي إلى النافذة لأسدل الستائر المفتوحة.

٥٣

تجاهلتِ الأبقار فعلاً الطلقة النارية. فالأبقار كائنات غريبة: يمكن لأقل شيء أن يروّعها، لكنها لا تنظر إلى أعلى أو إلى من حولها عندما تسمع ضجيجاً مفاجئاً. لكن هذا غير صحيح تماماً، لأن البقرة التي أحلبها أدارت عينيها إلى الوراء. ويمكن للأبقار أن تدير أعينها مسافة طويلة إلى الوراء، وتظهر الكثير من البياض الذي تبدو معه وكأنها مذعورة تماماً. ولا يخطر لها، مع ذلك، أن تدير رؤوسها. ولا يحبّني والدي أن أقول هذا، مع أنه صحيح: فالبقر غبيّة، بل إنها أكثر غباء من الخراف. والحيوانات الفطنة الوحيدة في المكان هي دجاجات «لاكنفلدر» والحماران. وجاءت الطلقة الثانية أقل مفاجأة من الأولى: من المرجّح جدّاً لمن لم يسبق له إطلاق النار أن يخطئ في المرّة الأولى. سحبتُ الأنبوب من خط الحليب، وربّتُ على خاصرة البقرة ووضعت المخلب على الأرض الوسخة. وتلى ذلك المزيد من الطلقات.

فتحت الباب بين ملحق المطبخ والبهو لأجد أن باب المدخل مفتوح، وأشعة الشمس الآتية من الشرق تنزل من إحدى الزوايا على البهو، ما يؤدّي إلى توهّج بريق الخراطيش ذات الرأس النحاسي في العلبة. وفي البهو رائحة كريهة ومعدنية. وكان باب المطبخ مفتوحاً أيضاً وكذلك كل الأبواب، وحقيبة ظهر «هنك» على واحدٍ من كراسي المطبخ. توجّهتُ صوب باب المدخل، بينما كانت ريشة تهبط وهي تطفو. ريشة سوداء تدور وهي تهبط لولبيّاً أشبه بثمرة الدردارة الجناحيّة. لا بد أنها توازنت على أحد الأغصان لبعض الوقت لأن أربع دقائق على الأقل مرّت منذ سمعت الطلقة

الأخيرة. ولا يزال الغراب الأبقع نفسه جاثماً على غصنه، يدير لنا ظهره كما لو أنه شعر بالإهانة. ودراجة الوالد تستند إلى السور الحديدي للجسر. وقد وقف «هنك» تحت شجرة الدردار، تقريباً على مستوى نافذة غرفة نومي. وأمكنه من هذه المسافة أن يصيب فأراً. كان يرتدي معطفه، فالطقس أكثر برودة مما كان عليه في الوقت نفسه من صباح يوم أمس، وبات الصيف اليوم يبعد عنّا مسافة بضع درجات حرارية.

لوّح بالبندقية كما لو أنه على وشك أن يرميها بعيداً، لكنه لما سمعني أسندها بجانبه على الأرض ويده اليمنى ممسكة بماسورتها، قال: «أنا راحل».

«إلى أين؟»

«إلى محطة القطار».

«كيف؟»

«على الدرّاجة،» ودلّ إلى الجسر.

«وكيف ستعود الدرّاجة إلى هنا؟»

«لم يعد والدك بحاجة إليها».

«هل تعرف الطريق؟»

«سأتبع الإشارات». قال متحدّثاً إلى الغراب من دون أن ينظر إليّ.

«أمعك نقود؟»

«آه ـ هه» قال. «الكثير. فما الذي سأصرفها عليه هنا؟ حتى ذلك القارب الرديء لم يكلّفني شيئاً تقريباً». الأمر ليس سهلاً، لكنه يقوم به، وأبعد عينيه عن الغراب، واستدار ودخل إلى البهو. وخرج بعد قليل ومعه حقيبة ظهره، ويده اليمنى لا تزال تمسك بالبندقية.

«ألم تجعله يطير؟»

«كلاّ. بقي جاثماً في مكانه كما لو أنه لم يحصل شيء. ولمّا أطلقت النار من جديد استدار بعدما قفز قفزةً صغيرة. هذا الطائر غريب».

«لماذا فعلت ذلك؟»

«المسألة أشبه بالأشياء التي لا تحصل إلا إذا رأيتها. أتعتقد أنني قمت بذلك؟»

«ومن غيرك؟»

«أتعتقد أنني سأطلق النار على حيوان وأرديه لمجرّد أنني أردت ذلك؟»

قلت: «لديك حساب تسوّيه معه».

ناولني البندقية، ونظر إلي وابتسم بازدراء. ثم سار في اتجاه الدراجة.

لم أتوقّع منه أن يقول أي شيء غير ذلك.

«طلب والدك مني في الليلة الماضية القيام بذلك. قال: فجّر ذلك الطائر بعيداً من شجرة الدردار».

سرت صوب الجسر أنا الآخر، وقلتُ: «وفكّرتَ أن القيام بذلك شيء جيد».

«صحيح. فهو لا يمكنه القيام بذلك بنفسه».

«أمكنك إسقاط الأمر».

«اعتقدُ أن والدك شخص لطيف. ألطف منك».

قلت: «ربما هو كذلك».

«وقال لي ايضاً: قم بعد ذلك بإلقاء البندقية في الخندق».

«لكنك لم تفعل ذلك».

«كلاّ. لأنك ظهرت فجأةً في الحديقة. وبدا الأمر في الحقيقة هدراً».

«هل ودّعته؟»

«بالتأكيد» وأمسك بالمقود ودفع بالدراجة إلى الطريق. «ربّما أراك في أحد الأيام».

«ماذا ستفعل يا هنك؟»

«لا أدري. سأرى». وأرجح إحدى ساقيه من فوق مؤخرة الدراجة، وقال: «شكراً» وانطلق مبتعداً.

جاء بندبةٍ وغادر باثنتين.

قال: «شكراً» لا باستهزاء ولا بضغينة. قالها من دون أي نوعٍ من الانفعال. لكن لماذا قالها؟ لم أعرف كيف أجيب ولم أقل شيئاً. دوّس بقوّة وسرعان ما اختفى وراء مزرعة «آدا» و«ويم». مرّ درّاج مبكر في يوم الخميس هذا، رجل متقدّم في السن أكبر منّي قليلاً، يرتدي قميصاً من دون شيء فوقها. طلع من فوق الحافة وكاد يسقط من بعدها في القناة لأنه لم يتمكن من إشاحة نظره عنّي وعن البندقيّة. وانتظرت إلى أن عاد على ظهر الدراجة وانطلق من جديد في خط مستقيم. لم أرمِ البندقية في الخندق، بل سرت إلى الطريق ورميتها في القناة. وتوّقفت لبرهة عند الجَسر وأنا في طريق العودة. استدار الغراب من جديد. وأخذ يفلّي نفسه ويخطو من جانب إلى آخر. سألته بهدوء، «ما الذي تريده؟»

ولم يجبني.

لم يعد والدك في حاجة إليها.وما الذي قلته، أنا نفسي قبل أشهر، عندما وقعت عيني على دراجة الوالد وعرفت ما المهمة الأولى التي سيُكلّف بها «هنك»؟ «إنها لوالدي لكنه لم يعد في إمكانه ركوب درّاجة». غير أن هذا يختلف عن «لم يعد بحاجة إليها». سأنتهي أوّلاً من الحلب ثم أصعد إلى فوق. فالبقر اللعين يأتي دائماً في المقام الأوّل. فمهما فعلتَ، حتى لو علمت أن والدك يتمدّد ميتاً في سريره، تحلب البقر أولاً، كونك ذلك الغبي.

يريد الناس دوماً معرفة سبب وفاة شخصٍ ما، حتى ولو تراجع فضولهم مع تقدّم

المتوفّى في العمر. لكن لمن استطيع القول بأن والدي مات بسبب بيضة؟ هل لطبيب الصحة العامة الذي أوشك على الاتصال به؟ هل لمتعهّد دفن الموتى؟ هل للأناس الغرباء كلّياً أو بالكاد أعرفهم؟ شعرت بالحاجة إلى الضحك، سوى أن تكّة الساعة ضايقتني جدّاً فجأة ففتحت بابها الزجاجي والتقطت الرقّاص بيدي الاثنتين لإيقافه. وجلست من بعدها على الكرسي بجانب النافذة. تفتّحت براعم شجرة الدردار: أشبه بالريش الليّن ذي اللون الأخضر الأرجواني يتماوج مع النسيم جيئة وذهاباً. الوقت مبكر: عقارب البندول تشير إلى التاسعة والنصف. لا يمكنني النظر إليه بعد. بقيت في مكاني على الكرسي وحدّقت خارجاً إلى السدّ من خلال أوراق شجرة الدردار.

٥٤

أنزلتُ صورة «هنك» عن جدار غرفة نوم الوالد ووضعتها على رف الموقد، عند الجانب الآخر من المرآة. الصورة موضوعة في إطار قديم من النوع الذي يمكن تعليقه أو توقيفه. وقد ارتدى فيها شقيقي بذّة عمل جديدة وجلس على مقعد الحلب على مقربة من الأرداف النحيلة ووجهه يشع فرحاً كما لو أنه لا يوجد في العالم كلّه ما هو أجمل من حلب بقرة. وبهذا أصبحنا جميعنا معاً في غرفة الجلوس.

تركتُ الوالد وحده هذا الصباح وذهبت إلى متجر التبغ في «مونّيكندام». لم أشعر فعلاً أنه من الصواب تركه في غرفة الجلوس على هذا النحو. وهو ما دفعني إلى إقفال بابَيْ البهو والمدخل قبل مغادرتي. يوجد شخصان أمامي عند بائع التبغ وشعرت بالتوتّر. ولما جاء دوري سألتني البائعة عمّا أريد ولم يتسنّ لي الوقت لدراسة الرفوف من ورائها. قلت، «أود رزمة من تبغ اللف». ومن حسن حظّي أنه لم يدخل أحد إلى المتجر من ورائي. حسناً، من أي نوع؟ لم أعرف. أي نوع أدخّنه في

العادة؟ وقرأت «فان نيل» إلى اليمين من وركها. وقلت: «فان نيل». قوي أو متوسط القوة؟ «متوسّط القوة،» قلت من دون تكهّن لأنني رأيت فجأة الكيس شبه الفارغ من دخان اللف على المنضدة في كوخ الفلاح. أما الأوراق؟ فـ «ماسكوت» طبعاً لأنها وُضعت بجانب الكيس في تلك المرّة الأولى ورأيتها لاحقاً في يديه، عندما كنست أصابعه الخبيرة التبغ من العلبة بعدما فتح الكيس. وسألتني البائعة «إذاً، هل صمّمت رأيك؟»: فقلت، «ماسكوت». وبلغ المجموع أربعة يورو وثمانية سنتات. فاجأني ذلك لأنني لم أعلم أن ثمن التبغ مرتفع إلى هذا الحد.

فتّشتُ بعد ذلك في المكتب عن أوراق الوالد ووجدت رسالة مصلحة الأحراج، فوضعتها على رأس الكومة على أن أعاينها، لاحقاً وليس الآن، بعناية ثم أجيب عليها. لا يزال الجزء الثاني من تاريخ الأدب لـ «لودفيك» مرميّاً على المكتب. ولم أعد أحتاجه، فصعدت إلى غرفة «هنك» وأعدته إلى الصندوقة – التي لا تزال موجودة على طاولة زينة أمي. اعتنيت في وضع الشريط اللاصق وأعدتها إلى خزانة الملابس.

أقفلتُ الأبواب يوم أمس أيضاً، قبل أن أقود السيّارة إلى المعدية. وصلت وقد أخذ الظلام يحل. خطر لي أن «هنك» لن يأخذ الدراجة معه على المعدية، فأي حاجة له فيها في الطرف الآخر؟ فما عليه سوى اجتياز الطريق ليصبح في محطة القطار. أردت إعادة دراجة الوالد. و«هنك» لن يتعب نفسه في قفلها (وأنا غير متأكد حتى من وجود قفل فيها)، لأن المرء لا يفعل ذلك إلا إذا أراد العودة لاستخدامها. درت في المكان، إلا أن كل الدرّاجات، وأنا في السيّارة، بدت متشابهة، بالرغم من أن عددها كان أقل مما توقّعته. ثم درت سائراً مرتين من حول مجموعة رفوف الدراجات، ودراجة الوالد ليست بينها. فهل يمكن أن يكون «هنك» نقلها معه في النهاية على المعدية؟ لا، لا بد أنها سُرقت. وقفت لبعض الوقت على ضفة «إيج» بعد مغادرة المعدية. وبدا الجانب الآخر أبيض بالسفن، تلك السفن التي تأخذ الكبار في السن في رحلات نهرية. وتساءلت عن سبب عدم اتصال «رايت». أو أنها

اتصلت ولم أكن في المنزل؟ وها أنا أيضاً خارج المنزل. تصوّرت البهو وسمعت رنين الهاتف. هاتف يرن في منزل لا يوجد فيه من يجيب. ولما جاءت معدية مبحرة في اتجاهي شعرت بأن وقت المغادرة قد حان.

وُلد الحمل الأخير في الليلة الماضية. واحد وثلاثون حملاً من عشرين نعجة.

أمكنني في النهاية لفّ سيجارة بدت معقولة. إلا أنه توجّب عليّ الاتيان برزمتين من الورق بدل الواحدة. أدرت اللفافة بين أصابعي. قرقعت وحدة التبريد واشتغلت، فارتعش الوالد. لم يُشر أحد إلى الأمر: بأن المتوفّي يرتعش كلّما قرقعت الوحدة لتشتغل أو تتوقف. وها إنني جالس على أحد كراسي المطبخ بالقرب من النعش. ولا أعرف أين أجلس غير هنا. علبة الكبريت موضوعة عند طرف النعش. أشعلت اللفافة. قال: «أنت واحد شاذ». متى حصل ذلك؟ أيوم أمس الأول؟ كلّ شيء يصبح مختلفاً عندما يوجد نعش في غرفة جلوسك. وتساءلت، على سبيل المثال، هل من المناسب رفع الستائر؟ أتذكّر بالتأكيد أن الستائر أُسدلت نصفيّاً عندما سُجّي «هنك» هنا. ونسيت حالة الستائر لدى وفاة أمي. وسيصعب عليّ، من جهة أخرى، الجلوس هنا والستائر مسدلة، أليس كذلك؟ غداً يوم أحد، والاثنين سيصبح أحداً آخر. يوما أحد متتاليين، إذ أنه عيد الفصح. استنشقت الدخان، والأمر ليس على هذا القدر من السوء. وزفرت من أنفي، وللمرة الأولى في حياتي يخرج الدخان من منخري.

يوجد أحد في ملحق المطبخ. «اهدآ الآن،» قالت والباب يفتح بين الملحق والبهو. دخلت إلى الغرفة وتوقّف الصبيّان عند الباب.

«ماذا تفعل؟» سألتْ بذهول.

«ماذا تعنين؟»

«أنت تدخّن!»

نظرتُ إلى اللفافة في يدي ثم سحقتها في المنفضة الموجودة على ذراع الأريكة. ونهضتُ.

لم تتفوّه «آدا» بأي شيء آخر. جاءت إليّ ولفّت ذراعيها من حولي. كانت رائحة شعرها جميلة ونضرة، وضغطت بأصابعها على عظمتي كتفي. نظر «تون» و«رونالد» إليّ بعيون جاحظة، فغمزتهما من فوق كتف «آدا». وجد «رونالد» الأمر مسلّياً وشرع في الابتسام، بينما حافظ «تون» على تعبيره الجدي. أفلتتني «آدا» وطبعت في الوقت نفسه قبلة رطبة على شفتي، ثم نظرت إلى الوالد.

وقالت: «سأحضّر بعض القهوة». تبقى «آدا» هي «آدا»، ومع ذلك لم يعد أي شيء على حاله تماماً منذ اليوم الذي أتتني فيه بالسجادة وأعطى فيه «تون» لـ«هنك» ملصق المغنية التي نسيت اسمها. سارت إلى المطبخ وهي تقول: «إذا أردتما، فلا بأس، هيّا وألقيا نظرة».

اقترب «تون» و«رونالد» ببطء شديد. توقّف «تون» عند قدم النعش وادّعى أنه ينظر. واقترب «رونالد»، إلا أنه ليس على هذا القدر من طول القامة ما دفعه إلى الوقوف على رؤوس أصابعه لينظر من الجانب.

وسأل، «هل الأمر مخيف؟»

«كلاّ» قلت. «أتعتقد أنه مخيف؟»

«بعض الشيء».

صاحت «آدا» من المطبخ «متى الدفن؟»

فصحت مجيباً: «الثلاثاء». وقلتُ لرونالد: «أنت لا تبدو خائفاً».

«هل اضطررت للبكاء؟»

«لا».

ونادت «آدا» من المطبخ: «أيوجد ما يمكنني القيام به؟»

«ولِمَ لا؟» سأل «رونالد».

«حسناً.».. قلت. «إما عليك أن تبكي وإما لا، فلا يوجد الكثير مما يمكنك فعله في هذا الشأن».

«ولماذا مات؟»

«أكل بيضة، يا رونالد».

أضحكه ذلك. «أنا آكل البيض وهو لا يقتلني».

قلت: «أنا سعيد لسماعي ذلك. هيا، لنذهب إلى المطبخ. هل تودّان حلوى اللوز؟»

«نعم!» صاح «رونالد».

«من فضلك» قال «تون» بتهذيب.

انتقلنا إلى المطبخ. آلة القهوة تشتغل وتغطّي قرقرتها على أزيز الساعة الكهربائية. وضعت «آدا» كوبين. وأخرجتُ قالب حلوى اللوز من خزانة المطبخ وفتحته.

قلت لـ «آدا» ردّاً على سؤالها: «أنا سعيد لمجيئك».

«جئتُ بالطبع» قالت بما يشبه السخط. «وسآتي غداً أيضاً. هذا رهيب، خصوصاً وأنه الفصح الآن، ومن دون وجود أحد في الجوار. يجب أن تأتي وتتناول الطعام معنا، وهل يجب أن اتصل بالإغاثة الزراعية ليرسلوا أحداً للقيام بالحلب؟ أراد ويم المجيء أيضاً، لكن الخزّان الضخم لا يعمل كما يجب وعليه أن يكون موجوداً عندما يقوم المزوّد.»..

«يجب أن تبكي الآن» قال «رونالد»، «فعيناك دامعتان».

لم أجب. جلس الصبيّان معاً على كرسي واحدٍ، لأن كرسي المطبخ الرابع موجود في غرفةٍ الجلوس.

«هل رحل هنك؟» سأل «رونالد».

«نعم، ولم يعد هنا».

«لماذا رحل؟»

قلت: «بقي هنا ما يكفي من الوقت».

«هل عاد إلى برابند حيث تقيم أمّه؟»

«رونالد» قال «تون»، «لو أنك تسكت لمرّة».

أنا سعيد حقّاً لمجيئهم.

غادرت «آدا» و«تون» و«رونالد»، وساد الهدوء من جديد المنزل، لكنه هدوء من نوع آخر، وأفضل. لم أعد أريد الجلوس بقرب النعش في المطبخ. وسرت عبر الملحق والزريبة إلى الباحة. كاد يحين وقت إخراج الأبقار من جديد. أطلّيت على الخراف وسرت من ثمّ إلى خم الدجاج. عجلة اليد في مواجهة زريبة الحمارين، التي يتوجّب عليّ تنظيفها من الروث، ولكن ليس الآن. عدت إلى الداخل وأخرجت المنظار من المكتب. وقفت وقد باعدت رجليّ عند النافذة الجانبية ورفعت المنظار إلى عينيّ. تقف «آدا» هناك، على بعد خمسمئة متر، ولمّا رأتني رفعت فوراً إحدى يديها ولوّحت لي. وظهر «تون» و«رونالد» ولوّحا لي أيضاً. لوّحت لهم وأنزلت المنظار. بقيت في مكاني لبرهة، أمام النافذة الجانبية، والمنظار عند مستوى صدري، وتركتهم يلقون نظرة جيّدة عليّ. كم مضى عليها من الوقت وهي تقف هناك؟ كم بقيت تنتظرني؟ عرفتْ أنني سأظهر عند النافذة، تماماً كما عرفتُ أنها ستقف هناك. استرحت ووضعت المنظار على الطاولة. وبات في وسعها الآن أن تعود بارتياح بال وتتولى أمور المكان هنا من جديد.

أشعلتُ لفافةً أخرى بالقرب من النعش، وخرجت من بعدها عبر الباب الأمامي. سرت إلى الجسر وجلست على الحاجز الحديدي. خطا الغراب الأبقع بضع خطوات جانبية واستدار ليواجهني. نظر إلي. فنظرت إليه. إلى أن شاهدت من طرف عيني سيّارة تتوقّف عند بقايا كوخ الفلاّح، ليخرج منها رجل. الجو كئيب ورمادي ولا أثر

لدرّاجي الأيام المشمسة. أخذتْ مجموعة كبيرة من طيور الغرّة المائية تتهادى في القناة. سار الرجل من السيارة إلى المنغوليا، وأمسك بأحد أغصانها وهزّه، ثم توجّه إلى نصف الجدار. ولمّا وقف هناك لفترة من دون حراك وهو يحدّق بالدرج الوهمي، انزلقتُ عن الحاجز ومشيت إلى الطريق. اقترب الحماران من السياج الجديد ولحقا بي إلى كوخ الفلاح السابق. استدار عندما سمعني اقترب. كان رجلاً متقدماً في السن ذا وجهٍ مسفوع. إنه وجه رجل يعمل في الخارج.

قال: «هلمر».

قلت: «اعتقدت أنك من مصلحة الغابات».

«وأنا لم أعرف هل سأراك هناك أم لا».

قلت: «هنك مات».

«حقّاً؟ ومنذ متى؟»

«نيسان/أبريل ١٩٦٧».

«ذلك وقت طويل. وأنت أصبحت المزارع الآن».

«نعم. ماتت والدتي أيضاً، والوالد مسجّى في غرفة الجلوس».

عبس، فهذا كثير من الموت دفعةً واحدة، ثم استدار. «وقد احترق الكوخ أيضاً».

«نعم» قلت في ظهره. «أمستردامیون. منزل للعطلة». ارتجفتُ إذ أنني خرجت من دون معطف.

وقف يحدّق في المكان لفترة، ثم استدار ووضع يده على كتفي. «هيّا بنا» قال. «سأذهب وأقدّم الاحترام لوالدك». توجّه إلى سيارته، وظهره مستقيم، وقد اختفى منه العناد. تبعته وجلست بقربه. أرجع السيّارة وعاد إلى الطريق. وسرنا ببطء إلى الجنوب الغربي.

قال: «توجد رائحة كلاب هنا». وقد أمكنني شمّها بالرغم من أننا لم نمتلك كلباً أبداً.

نظر إليّ وابتسم. «لطالما جلس حيث تجلس». ولأنه ينظر إليّ رأى الحمارين. «هل هذان الحماران لك؟»

هززت برأسي موافقاً.

وابتسم من جديد. «نعم. أنت حمّار حقّاً».

IV

٥٥

توجد هنا كثبان رملية تحمل اسماً إنكليزيّاً. جاء إنكليزي غني منذ زمن بعيد إلى هذا الشاطئ وبنى منزلاً كبيراً على أعلى الكثبان وأقام حديقةً مع برك للماء وممرّات وأسواراً غير مرتفعة من الحجارة. وأطلق على عقاره اسم «تلّة الخَلَنْج» Heather Hill تيمّناً بالنبات الذي يغطي كل الكثبان. غرق وهو يسبح في البحر واختفى المنزل منذ زمنٍ طويل، ولم يتبقّ من الحديقة إلا بركة ملأى بالرمل وبعض الشجيرات التي يرعاها نَسل لا أعرفه من النعاج ذات الرؤوس السوداء والآذان الطويلة المتدلّية. وهي أكثر ترويضاً من نعاجي، وقد اعتادت على الناس الذي يقصدون المكان للسير أو للسباحة. وتشكّل الكثبان، على طول الشاطئ، جرفاً ذا انخفاضٍ مستقيم إلى الشاطئ الصخري الضيّق. وهنا ليس بحر الشمال، ولا توجد كثبان عارية يربطها ببعض بصعوبة قصب الرمال المزروع والصنوبر الذي عصفت به الريح. فهنا ينمو قصب الرمال ويكاد يبلغ البحر نزولاً، حتى أن أشجار الزان والسنديان تنمو على بعد عشرة أمتار من خط ارتفاع المياه. سبق لي أن تذوّقت الماء: وهو ضارب إلى الملوحة، وأشد ملوحةً بقليلٍ من مياه بحيرة «إيسل». أكاد أعرف كل خريطة الدنمارك عن ظهر قلب، وبخاصة «زيلندا»، إلا أن «راغليجي»، حيث نحن الآن، جديدة عليّ. ولا يمكن معرفة ذلك عندما يلفظ السكان المحليون اسم قريتهم، فاللغة الدنماركية غريبة فضفاضة، ولا أفهم أي كلمة منها؛ لكنه يقول إنه يمكنه متابعتها. وأردت أن أعرف كيف يمكن ذلك، فقال «أنا فريزي». أخبره مالك مطعم مشاوي تلّة الخلنج، الموجود على مقربة من موقف السيّارات على الطريق الساحلي، قصة الإنكليزي، بالرغم من احتمال أن تكون الرواية الحقيقية مغايرة تماماً. وغالباً ما قصدنا المكان لتناول النقانق، فالدنماركيون يحبّون نقانقهم.

سبحنا يوميّاً في المياه الباردة ولكن الصافية. وتوجّب علينا، مرّةً كل ثلاثة

أيام، أن نرمي جانباً بالصخور التي رميناها جانباً قبل ذلك بثلاثة أيام ليسهل علينا دخول الماء. كنا نسبح دوماً في المكان نفسه، عند نهاية الممر الذي يطوف من حول تلة الخلنج في طريقه من الخط الساحلي إلى الشاطئ الصخري. توجد بوابة على الطريق، وأخرى قبل الشاطئ مباشرة، لأن على النعاج البقاء على تلّة الخلنج للحفاظ على العشب قصيراً ولأكل شتلات البتولا. الشاطئ الصخري هادئ لأن عطلة الدنماركيين لم تبدأ بعد. وفي الأيام الصافية، يمكن للمرء، إذا تطلّع، أن يرى الشاطئ السويدي في البعيد. قال: «علينا يوماً ما أن نذهب إلى هناك أيضاً»، وأومأت برأسي موافقاً. فالمكان لا يبعد كثيراً عن «هلسنغور» حيث يمكننا ركوب المعدية إلى «هلسينغبورغ». حوّمت الغربان البقعاء من فوق الجرف، أبقت أجنحتها ساكنة وطافت من فوق التيّار الصاعد من دون التحرّك إلى الأمام. تغيب هذه الغربان في نهايات الأسبوع، فيقفز الرجال والنساء بالمظلاّت من فوق الجرف. ويحلّقون أحياناً لأميال قبل الاستدارة والعودة مجدّداً إلى الأرض فوق تلّة الخلنج. ويتحدد ارتفاع تحليقهم بعلو الكثبان. سبحنا عاريين: نكاد دوماً نكون وحدنا، وإذا جاء أحد نكتفي بتجاهله. قال: «نحن أكبر سنّاً من أن نقلق في هذا الشأن». وافقت بإيماءة من رأسي، ثم بدأنا، أشبه بولدين في حوض سباحة، نمزح ونتحدّث عن وعاءي خصيتينا وقد تقلّصا بفعل المياه الباردة. لم يستطع الامتناع عن تزويدي بالتوجيهات: «حافظ على أصابعك مضمومة» أو «حرّك قدميك مرّة». وبعدها نعود للتحمية من جديد في مباراة بكرة الريشة – ببعض من التصنّع كونه أكثر تيبّساً منّي – في حديقة منزل العطلة. وقد عثر على المضربين وكرة الريشة على أحد رفوف متجر «سبار»، ودفعت أنا ثمنها.

سُجّي الوالد في المنزل لأربعة ليالٍ، ولم ألمسه مرّة.

وما إن دخلنا غرفة الجلوس حتى ارتاح على الفور على كرسي المطبخ بالقرب من النعش. وبقيتُ واقفاً عند الباب. لفّ سيجارة، ربّما لأنه شاهد المنفضة على ذراع الأريكة. دخّن وهو ينظر إلى الوالد، وانتقل نظره من الوالد إلى الصور على رف

الموقد، وقال: «إنها امرأة جميلة على طريقتها» وأشار برأسه إلى الصورة الرسمية لوالدتي، وأضاف: «ولا أعتقد أن الكثيرين من الناس لاحظوا ذلك» تشكّلت طبقة أفقية من الدخان في غرفة الجلوس، وهو ما لم أنتبه له ابداً في كل الأوقات التي جلست فيها في المكان وأنا أدخّن على مقربة من النعش.

سألني: «هل أنت وحدك؟»

قلت: «نعم».

«تغيّرت الأمور كثيراً هنا».

«فعلتُ ذلك منذ بضعة أشهر».

«أمنذ هذا العهد القريب؟»

«نعم».

أخذ مجّتين عميقتين من لفافته ثم أشار من جديدٍ إلى رفّ الموقد، وقال: «الشقيق الميت». سحق عقب السيجارة وأطفأها ومرّر مؤخّرة أصابعه بنعومة على جبين الوالد. ثم وقف وصافحني بالأصابع التي لمست الجثّة. وقال: «لقد توفّي والدك يا هلمر».

لم يقبّلني على فمي، بالرغم من أن أحدهم قد توفّي هذه المرّة. وكأنني لم أعرف ذلك بعد: والدة جميلة، شقيق متوفٍ، ووالد ميت. عشرون بقرة، بضعة عجول، حماران بلا اسم، عشرون نعجة، واحد وثلاثون حملاً وبضع دجاجات «لاكنفلدر».

«هل هذه رائحة قهوة؟» سأل وهو يجتاز البهو إلى المطبخ حيث لم يجلس على أول كرسي يصادفه، بل دار من حول الطاولة وجلس وظهره إلى النافذة الجانبية. إنه كرسي «هنك». نقر بأصابعه على وجه الطاولة كأنه ينتظر بفارغ الصبر أن أصب له كوباً من القهوة. نظر ببعض الدهشة إلى المنظار وعلبة حلوى اللوز المفتوحة والكوبين اللذين شربنا منهما «آدا» وأنا، وقال إنها المرّة الأولى التي يجلس فيها

إلى طاولة المطبخ. وجال نظري، وأنا لا أزال واقفاً عند مدخل غرفة الجلوس، بين أصابعه الآخذة في النقر وجبين الوالد، وبين جبين الوالد ويدي.

لم أصب له القهوة على الفور، بل ذهبت للوقوف أمام النافذة الأمامية، حيث أخذ الغراب الأبقع يحّدق إليّ من غصنه المعهود. خفض رأسه بعض الشيء كما لو أنه يهزّ كتفيه. وتساءلتُ هل للطيور أكتاف، وهل يمكن اعتبار مرفقي جانحي الطير كتفين. بدا أشبه بحيوانٍ يمكنه الترصّد، نوعٍ من السنّوريّات. بات له منذ الخريف وهو يجثم هناك. أنسى أحياناً أمره، وأعودُ في أيامٍ أخرى إلى ملاحظته وينتابني الشعور نفسه الذي شعرت به في المرّة الأولى التي شاهدته فيها، في اليوم الذي جلست فيه على كلّ الكراسي كما لو أنني أتحاشى تناول الطعام وحدي. رفع كتفيه قليلاً إلى أعلى وسقط إلى الأمام، ولم يبسط جناحيه إلا قبل اصطدامه بالأرض. تراجعت خطوةً إلى الوراء؛ وقد بدا وكأنه سينساب مباشرةً عبر زجاج النافذة. واصطدم رأس جناحه بالزجاج خلال الاستدارة الحادة التي اضطرّ إلى القيام بها. وطار مبتعداً في اتجاه السدّ، سدّ بحيرة «إيسل». وراقبته يذهب إلى أن امتلأت عيناي دموعاً.

تنحنح، فاستدرت. إنه يودّ بعض القهوة – سوداء مع السكّر – ولن يمانع في تناول واحدةٍ من حلوى اللوز تلك.

الميت مات، ومن مات فات، وعندها لن أعرف حتى بالأمر. ولهذا لن أكون الوحيد الذي سيحضر مأتم الوالد. فالدفن ليس للميت بل لمن بقوا من بعده. إنها لأنانية من الوالد أن يطالب بدفنه خلسة. حضر «جاب»، و«آدا» والصبيّان (وليس «ويم» الذي يكره الموت، والأهم من ذلك أن لديه أمراً آخر يقوم به، وهو أمر مهم)، وسائق الصهريج الشاب. شرعت في سؤاله: «كيف..». وقامت «آدا» الواقفة خلفه بتصوير سماعة الهاتف بخنصرها وإبهامها اللذين قربتهما من أذنها وفمها. وهزّت بكتفيها اعتذاراً وأبقت رأسها مائلاً قليلاً إلى جانبه.

قال لجاب، «التضامن أمر مهم».

فأجابه: أنت محق في ذلك تماماً».

لم أمانع، بالرغم من أنني أخذت أشك في أن السائق الشاب يجعل من حضوره، ما أمكن من المآتم، عادةً، وهو ما يشكّل نوعاً من الشذوذ. وها إن هناك، مرةً أخرة، لوحةً بيضاء، بدت من منظرها لوح خشبٍ مضغوط، في قعر القبر الذي أصبح أكثر عمقاً. لم يستغرق الأمر طويلاً، إذ لم يوجد من يتحدّث. أشرقت الشمس وبلغت الحرارة معدّلها المعتاد بالنسبة إلى آخر نيسان/أبريل. هلتُ التراب في القبر، ليس بمقدار قبضةٍ بل ملء رفش، لأنني أحب ذلك في المآتم. ولا أعتبر حفنة التراب التي تتطاير قبل أن تبلغ النعش أي نوع من الخاتمة. وحده «رونالد» حذا حذوي.

«ما رأيك بالسائقة الجديدة؟» سألني «غالتجو» عندما جلسنا لاحقاً في المطبخ. سبق لـ«آدا» أن حضّرت بعض القهوة، وكنت قد اشتريت بعضاً من حلوى المرصبان من الفرّان في «مونّيكندام». هذا كلّه على شرف والدي. قُدّم شراب العرعر الكحولي للرجال، فيما شرب «تون» و«رونالد» شيئاً ذا فقّاعات.

قلت: «أجدها ثرثارةً بعض الشيء».

«نعم» قال وهو يبتسم كما هو شأنه دائماً. «سبق أن سمعت بذلك». ولم تعد ابتسامته تؤثّر فيّ.

وسأل «جاب» «تون» و«رونالد»: «هل أنتما مزارعان أيضاً؟»

وصحّح «تون»: «إننا ولدان».

ما أثار دهشتي هو عدد البطاقات التي ظهرت في علبة البريد الخضراء على جانب الطريق، في الأيام التي تلت ظهور النعي في الصحيفة. عشرات البطاقات. وصلت إحداها من تاجر المواشي الذي عاد من نيوزيلندا بعد المأتم بيومين. كما جاءت بطاقة أيضاً من «كلاس فان بالن»، المزارع الذي يضاهيني سنّاً والذي انتُزعت منه

خرافه بسبب إهماله لها. وأرسل أهل «جارنو كوبر» واحدةً، وكذلك أرملة سائق الصهريج المسن. ووردت بالطبع بطاقات من كل أنواع الأقارب الأبعدين، الذين لم أتعرّف إلى أيّ منهم، ولا يُدعى أي منهم «فان فونديرن».

بعثت ببطاقة إلى «رايت» و«هنك» لأنه من الواضح أنهما لم يقرآ صحيفتنا في «برابنت». لم تجب «رايت» على الإطلاق بالرغم من أنني توقّعت أن أحصل منها على بطاقةٍ جوابية ولو أنها بطاقة قد لا تحمل الكثير من الود. ولن أفاجأ إذا لم أعد أسمع منها أي شيء. وبعث «هنك» ببطاقة جوابية بريدية، كتب على ظهرها: سبق أن عرفت، وأعتقد أنه أمر مؤسف لأنه كان رجلاً لطيفاً. وأنا هنا الآن استخدم درّاجته، وقد جلبتها معي لأنني لم أتمكن من إقفالها، وكانت ستتعرّض بالتالي للسرقة. وهكذا فإنني أفكّر فيه بين الحين والآخر. يرحمك الله، «هنك». ولم أتمالك نفسي من الابتسام للبطاقة التي اختارها وتُظهر برجاً من الحيوانات: حمار وكلب وهر وديك. «هذا لطيف» قالت «آدا». «إنها فرقة عازفي مدينة بريمن، وواحدة من روايات غريم الخرافية». وقد فتني الحمار فيها بنوع خاص. أعتقد أنه لم يسحب مجرّد بطاقةٍ ما عن الرف.

أصبحت منذ أسبوعين في السادسة والخمسين، وأنا في ألمانيا. أراد القيادة فوق سد بحيرة «إيسل»، وأردت عبور الأراضي الجديدة المستصلحة من البحر. أخذنا سيّارته وقدنا بها عبر السد، لأن الـ «أوبل كاديت» بالتأكيد ستتعطّل في منتصف الطريق عبر الدنمارك. توقّفنا عند النصب، ولم يمضِ علينا في الطريق سوى ساعة. دخّن كلّ منا لفافة «فان نيل» متوسّطة القوة وأعيننا تسرح فوق بحر «وادن». ثم توجّهنا إلى منزله في قرية صغيرة بعد «لويواردن». أراني السقيفة حيث يصنع الألواح التي يحفر عليها طير البوم ويبيعها لزبائن في شتى أنحاء «فريزلاند» من دون الحاجة إلى الإعلان عنها. «كيف تعتقد أنه يمكنني شراء شراب العرعر؟» قال وهو يصبّ كأسين. «أمن معاش التقاعد؟» أخذني خارجاً إلى حيث دفن الكلب في زاوية قصيّة من الحديقة تحت شجرة إجاص كثيرة العقد فقدت أزهارها منذ فترةٍ

طويلة، وقد لحم قطعتين من المعدن معاً ليجعل منها صليباً غرزه في الأرض، ولا يزال التراب المحروث مرتفعاً. توجد في غرفة جلوسه مكتبة تحتوي، على الأقل، على ضعفي الكتب التي امتلكها في كوخ الفلاح. صبّ لي كأساً كبيرةً أخرى من شراب العرعر، من دون أن يصب المزيد لنفسه لأنه يتولّى القيادة. شربتها وقلت لا أريد البقاء في «فريزلاند»، بل الذهاب إلى ما هو أبعد شمالاً.

أصابه الجوع فتوقّفنا من جديد، بعد عبورنا «نيوسشانز»، عند الحدود الألمانية تماماً. قال: «سنأكل الآن أيها الحمّار». ولم أمانع.

يسهل على المرء إذا استمر في القيادة بلوغ الدنمارك في يوم واحد، فهي تبعد أقل من خمسمئة ميل. لكننا لم نواصل القيادة وتوقّفنا للمبيت في «راستاتي» مباشرة بعد «هامبورغ».

«غرفة مزدوجة؟» سألت المرأة غير المهتمّة من وراء المنضدة، فأجابها: «طبعاً فهذا أرخص، أليس كذلك؟» تمدّد كل منّا على ظهره في السرير الضخم، وقد شبكتُ يديّ فوق معدتي، لم أعرف كيف أستلقي. أفقتُ وقد حلّ عيد ميلادي. أردت إبقاء الأمر سرّاً عنه، غير أنه لم يوجد سرّ ليُحفظ، لأنه تذكّر. وأردت أن أعرف كيف لذلك أن يكون ممكناً.

قال: «لم أُدعى على مدى نحو ثلاثة عشر عاماً متواصلة، إلى عيد ميلادك وأخيك. أتعتقد أن في وسعك نسيان هذا النوع من الأمور؟ لقد عملتُ كالمعتاد بينما أنتما تجريان منفوخي الصدر وتعتمران على رأسيكما قبعتي الاحتفال. بل وتأتيان أحياناً وتقفان أمامي لتصرخا بفخر: هذا عيد ميلادنا!»

لا أذكر هذا أبداً. يخبر الأمور كما جرت، وبالتالي لا بدّ أنها جرت كما يخبرها.

أنسى أحياناً أنه عرفني وأنا ولد شقي. وأنسى أحياناً أيضاً أنه جاء للعمل لدى والدي وهو نفسه صبيّ، بعمر «هنك» تقريباً.

أبحر المركب من «بوتغاردن» ورسا في «رودبي». لم يستغرق العبور سوى

خمس وأربعين دقيقة. قدت السيّارة من المعديّة وأردت على الفور التوقّف إلى جانب الطريق.

سألني: «ما الذي تفعله أيها الحمّار؟»

أبلغته أننا أصبحنا في الدنمارك وأريد لقدميّ أن تشعرا بذلك.

«لا يزال أمامنا المزيد من الدنمارك» قال. «اسلك الطريق».

شعرت وأنا أقود أنني جئت إلى هنا من قبل، إذ أكاد أعرف كل أسماء الأماكن على الإشارات. توقفنا لشراء ما نأكله في أحد المطاعم بجانب الطريق خارج «كوبنهاغن»، ولم نكتشف إلا حينها أنه لا يمكننا الدفع باليورو في الدنمارك. قَبِل بها الفتى على الصندوق، ولكن على مضضٍ كما تبيّن لي. وبعدما اجتزنا كوبنهاغن التي قال عنها: «بأنها كبيرة جداً ومكتظة جداً، ولكننا سنجتازها»، وضعت، للمرة الأولى في حياتي، بطاقتي المصرفية في آلة الصرف الآلي، وطبعت رقمي السرّي وسحبت الكراون الدنماركي من الفتحة. وهو لا يملك بطاقة مصرفية؛ أو إنه لم يجلبها معه. وأنا أدفع لقاء كلّ شيء. قررنا، بما أننا لا نعرف أين نذهب، أن نستمر في القيادة إلى حيث لا يمكننا المضي أبعد. وهكذا انتهينا إلى هذه القرية التي تحمل اسماً لا يمكننا لفظه.

توجد هنا تلال منحدرة ولا خنادق. وبالكاد توجد أي بقرة أيضاً، فمعظمها على ما يبدو في «جوتلاند» مع «جارنو كوبر». وعندما نشاهد البقر تكون في العادة بنّية اللون. دمدم، «لحم بقر»، وأشحنا بنظرنا. توجد حقول قمح وشعير وجاودار ولِفْت: تلال بأكملها مغطاة بزهر اللفت الأصفر تحيط بها أعشاب البقدونس البرّي. ورأيت قبل ذلك بأيام في إحدى الحدائق زهور الورديّة والليلك الأرجواني، إلى جانب بعض من الخزامى الحمراء. يبدو كل شيء هنا وكأنه يزهر في الوقت نفسه.

وعندما يأخذ الظلام في الحلول نسمع النعيب الحزين لبومة الغاب.

الميت مات، ومن مات فات، وعندها لن أعرف حتى بالأمر. وما كان تاجر المواشي الجديد ليأتي في وقت أفضل. يقود شاحنة التاجر القديم التي قال إنه حصل عليها بسعر جيّد. وهو شاب متهوّر إذ تحمل الشاحنة ضربات لم توجد فيها قبل ذلك بشهرين. وهو ثرثار أيضاً، ودعاني من الأول «هلمر» وكأننا صديقان قديمان. وسألته عن إمكان نقل عشرين بقرة وبعض العجول وعشرين نعجة والقدر الكبير من الحملان في خلال إشعار قصير.

صاح: «هذا سهل!»

«وكيف ستفعل ذلك إذاً؟»

«سأرى».

«يجب أن يتم الأمر بسرعة، ومن المفضل أن يتم دفعة واحدة».

«دع الأمر لي وحسب». وخطر له أمر وهو يعود إلى شاحنته. استدار وسأل، «وماذا عن نصيبك من الحليب؟»

«هذا ليس شأنك».

«حسناً، لا بأس».

عاد بعد يومين هادراً إلى باحة المزرعة، وبوجهٍ حجريّ حدّد سعراً، وصاح بعد ذلك على الفور: «وعندها تنتهي من الأمر دفعةً واحدة، وأنا أخاطر بنفسي. ويجب أن أتأكد من إمكان نقل الدفعة كلّها قبل مرور وقت طويل، فزرائبي ليست كبيرة كفاية..».

قلت: «بدّلت رأيي».

«ماذا؟»

«سأحتفظ بالنعاج، وبالحملان أيضاً».

بدا أن عينيه امتقعتا لبرهةٍ وهو يجري حساباته. وطلع بعد فترة بمجموع أقل. «إلا أنه يبقى صحيحاً،» قال، «إنني أقحم نفسي في خطر وإذا..».

«حسناً» قلت.

وسأل مدهوشاً: «حقّاً؟»

«نعم».

«آه، حسناً، إذاً..».

«متى؟»

«قريباً» قال وهو يفقد طاقته. «قريباً».

أمضيت اليوم الذي تم فيه نقل الحيوانات في غرفة نوم الوالد. رتّبت الصور والمطرّزتين ومائيات الفطر في أحد صناديق البطاطا. وعرّيت سريره وغسلت الشراشف وأوجه الوسادات، وفككت الستائر ولمّعت النوافذ ونظّفت السجادة الزرقاء بالمكنسة الكهربائية. ولمّا أدخلت الفوهة تحت السرير كادت المكنسة تختنق بالقصيدة الملقاة هناك.

«شخص شاذ». قال لي إنني «واحد شاذ». كاد يبدو ذلك، وقد صدر عنه في تلك اللحظة، أشبه بتعبير للتحبّب.

جلست على سرير الوالد وقرأت مرّة أخرى الكلمات. شعرت بالخجل لإعطائي عجوزاً محطّماً قصيدة يقرأها. طويتها نصفين ودفعتها في جيبي الخلفي، وأخرجتها بعد أسبوع من جينزي المغسول حديثاً وقد تحوّلت إلى معجون ورق. لم أتفقد الزريبة إلا عند المساء وقد أخذ الظلام يعمّ. كانت أفرغ من الفارغة: كل شيء في مكانه – القش، والبعر، والغبار، والدفء – كل شيء إلا البقر. وكذلك الحال في زريبة العجول. لا، بل إنها أكثر فراغاً، لأنني وصلت إلى هناك في الوقت المناسب ليلتقط نظري ذنب هرّة جرباء وهي تنطلق هاربة.

كتبت في اليوم التالي رسالة إلى مصلحة الغابات أبلغها فيها أنني غير ميّال البتّة لبيعها الأرض التي تريد أن تبني عليها مركزاً للزوّار. وبأنني أكون شاكراً لعدم تلقّي المزيد من الرسائل حول الموضوع إلى أن أتصل بها من جديد. ولم أتلقَّ، حتى يوم مغادرتنا إلى الدنمارك، أي ردّ، كما طلبت ذلك تماماً.

بحثت في المكان عن شيء أضع فيه حاجات السفر ووجدت حقيبة في خزانة الحظيرة: حقيبة ثقيلة، قديمة، مصنوعة من الجلد. غسلت الجلد بالصابون لأجعله أكثر طراوة. لم أحظ، منذ سبعة وثلاثين عاماً من الحلب نهاراً وليلاً، بيوم عطلة واحد. وتساءلت، بحق الخالق، متى استخدمها أبي وأمي. فهما لم يذهبا أبدا في عطلة.

ذهبت أيضاً إلى «رابوبنك» لتقديم طلب الحصول على بطاقة مصرفية. يحتاج المرء، عندما يذهب إلى بلدانٍ أخرى، إلى بطاقة مصرفية. واضطررت للانتظار أسابيع قبل أن أتمكن من الذهاب لاستلامها. ولا أزال لا أفهم لماذا، غير أنني استغللت الوقت للعمل في المطبخ. أعدت طليه، وتخلّصت من الستائر القديمة ووضعت مكانها ستائر معدنية. وتخلّصت من المكتب. وكدت أقود السيّارة إلى «مونّيكندام» بحثاً عن مطابخ في متاجر الأثاث. «هل أشعلتَ ناراً في العراء؟» سأل «رونالد» عندما زارني في اليوم التالي ووجد كومة محترقة خلف زريبة الحمارين. «ومن دون أن تنادي علينا؟» أضاف «تون» الذي جاء هو الآخر.

ها نحن نجلس خارجاً تحت الشرفة المسقوفة. أمطرت في وقت سابق من النهار، غير أن الطقس ليس بارداً الآن. البخار يتصاعد من الحديقة، والخيزران على طول جانب منزل العطلة يحف بلطف على الألواح الخشبية. تناولنا على العشاء الشمندر مع اللحم المكبّب الذي اشتريته جاهزاً من متجر «سبار». وشربنا على الوجبة زجاجة من النبيذ الأحمر، وثمن النبيذ مرتفع في الدنمارك.

سألت: «ما الذي سنفعله غدا؟»

«ما يحلو لنا. سنبدأ بالنهوض وشرب بعض القهوة».

سألته عن أنفه، وأهله، و»فريزلاند» وكلبه. وكيف جاء للعمل لدى الوالد والوالدة. «تطرح الكثير من الأسئلة، أيها الحمّار» قال. «ما هي نواياك؟» الأمر الوحيد الذي وافق على مناقشته هو كلبه. نفق قبيل رأس السنة، ليلة يوم سبت، بعدما عاد إلى المنزل من سهرة لعب ورق مع ثلاثة من أصدقائه. جلس على كرسيه، وأسند الكلب رأسه العجوز على حضنه. وفجأة أصبح رأس الكلب ثقيلاً وبدا كما لو أنه شعر بدمه يتوقّف عن التدفّق تحت يده. قال: «تقوّض وحسب، أشبه بواحدة من تلك اللعب، واحدة من تلك الدمى التي تطويها بكبس الزر الذي تحت قدميها».

سألته: «لديك إذاً أصدقاء في فريزلاند؟»

تنهّد ولم يتفوّه بكلمةٍ أخرى.

ثم أشار إلى شجرة الكرز الرطبة في وسط الحديقة، وقال: «سيتوجّب علينا البقاء هنا شهراً آخر على الأقل».

«لا بأس عندي، أحب الكرز». توجّهت إلى الداخل وصببت كوبين من القهوة. ولما عدت وجدت أن السحب الداكنة قد اختفت. وعادت الشمس إلى الشروق من جديد. لا تُظلم هنا، في الشمال، إلا في وقتٍ متأخرٍ جدّاً. وضعت القهوة على طاولة الحديقة وبجانبها لوح من الشوكولاتة.

«لماذا لم تأتِ بكلبٍ آخر».

«لا يمكن الاستمرار في ذلك إلى ما لا نهاية».

«لا؟»

«الأمر مؤلم، في كل مرّة يموت أحدها».

«أعتقد ذلك».

«ذلك أن زوجة أحد رفاقي في لعب الورق قد توفّيت. جاء إلى منزلي وشرب

من عرعري وتحدّث عن أنه لا يريد أن يخسرها وبأن عليه تركها ترحل. أصابني ذلك بالتوتّر: فالمرء يموت أو لا يموت، ولا دخل لما يريده الشخص في ذلك. شعر كلبي بحزنه ووضع رأسه على حضنه، وهو أمر ما كان ليفعله لولا ذلك. تجاهله الرجل وحسب، ولم أطق ذلك. فالكلب نفسه على وشك الموت وتكلّف العناء وكان على ما يكفي من اللطف لرفع رأسه لشخص يتألّم، ولم يصدر عن ذلك الشخص أي ردّ فعل». كسر مربعاً من الشوكولاتة ووضعه على لسانه وارتشف ملء فمه من القهوة. فمه مغلق، لكن أمكنني رؤية الشوكولاتة تذوب. ومضى يقول بابتسامة ساخرة، «يا للأصدقاء. أيكفي ذلك؟ اصدقاء للعب الورق معهم، منزل أحسن المحافظة عليه وحديقة، التسكّع في السقيفة، كلب، عرعر وبعض المال في البنك؟»

لم يعد لديه تلك السن المكسورة. هل لبّسها تاجاً صناعيّاً؟

سألته: «كيف عرفت أن الوالد قد مات؟»

«لم أعرف».

«الأمر إذاً مجرّد صدفة أن تعود في ذلك اليوم من بين كل الأيام؟»

«صح».

«لا يوجد شيء اسمه صدفة».

«يوجد بالطبع. فكّرت في أن أذهب وذهبت. أردت أن أرى بساتين غرب فريزلاند وقد أزهرت. لكن السديم غطّى المكان ولم أرَ الكثير. كما يمكنني أيضاً أن أسألك لماذا خرجت من منزلك تماماً عندما وصلتُ إلى كوخ الفلاح؟»

وفكّرت أن في الأمر صدفة.

«ربّما ما ذهبتُ قط إلى المنزل لو لم تأتِ إليّ». وكرّر عملية تناول الشوكولاتة. شرع بوم الغاب في النعيب من البعيد ليأتيه الجواب للمرّة الأولى من مكانٍ قريب جدّاً. «وأين كنت، في تلك الحالة، لتكون الآن؟»

«نعم» قلت. «أين كنتُ الآن؟»

حدّقنا معاً إلى الحديقة. وفكّرت في «رايت» و«هنك»، «هنك» الصغير. وفي سائق الصهريج الشاب، وفي تاجر المواشي (الذي عرفه هو أيضاً)، وفي «آدا». وتساءلت عن نوع الأمور التي سأخبره بها، أو أريد أن أطلعه عليها. وفجأةً لم يعد الوقت الفاصل بين رحيله وعودته يهمّني، أو حتى توقيت وصوله. فما الفارق؟غداً «سنبدأ بالنهوض وشرب بعض القهوة» وسنقوم بعد ذلك «بكل ما يحلو لنا فعله».

قلت: «لم أتعلّم كيفية القيام بالأمور بنفسي».

أدار رأسه صوبي ببطء. «اشرب قهوتك أيها الحمّار. حان وقت لعب الورق». ونهض وسار إلى الداخل.

إنه محق، فقد حان وقت لعب الورق. لففت سيجارة «فان نيل» متوسّطة القوة وأشعلتها، وقفت وسرت في أنحاء الحديقة ورأسي مائل إلى الوراء، ودسست كيس التبغ والقدّاحة في جيبي الخلفي. أحب التدخين وهو يناسبني. لم يُشر إلى الأمر، اعتقاداً منه أنني أدخّن منذ سنوات كثيرة. أشعل النور فوق الطاولة، ليس لأن هناك حاجة لذلك، بل لأنه اعتاد وجود ضوء فوق طاولة لعب الورق. شعرت وكأن في وسعي مدّ يدي وبلوغ بوم الغابة، فنعيبه الحزين يبدو قريباً جدّاً. ربّما هو بوم ذو أذنين طويلتين أو قصيرتين، وأنا لا أعرف شيئاً عن البوم؛ يوجد الكثير من الغابات هنا ولهذا اعتقد أنه بوم الغابات. بيد أن سماع نعيبه أسوأ بكثير من رؤية خروفٍ كسيحٍ رطب أو خروفٍ غير مجزوز الصوف خلال موجة حرّ. يصيبني ذلك بشعورٍ من الفراغ في صدري كما لو أنني لم أتناول الطعام بعد.

«هل ستأتي؟»، قال وهو يقف عند الباب المفتوح من دون أن يبدو لجوجاً.

لم أقل شيئاً، بل رفعت إحدى يديّ.

يدعوني بالحمّار، وأنا الآن بعيد عن الحمارين للمرّة الأولى. وعد «تون» و«رونالد» بالاهتمام بهما. لا للكثير من الشمندر الأصفر والجزر أو الخبز غير

الطازج، ونعم لأخذهما إلى الداخل إذا أمطرت لفترةٍ طويلة، ونعم للتحقّق دوماً من حوض الماء، («لكن سطل الماء ثقيل» كما يقول «رونالد»). وسيهتمّان أيضاً بدجاجات «لاكنفلدر»، ويمكن لوالدتهما استخدام البيض لصنع الكعكة والفطائر. وسيسير «تون» عبر حقلة الخراف مرّة في اليوم، فهو على ما يكفي من القوة لإعادة قلب نعجة على أقدامها، أو ربّما على ما يكفي من القوة لانتشال حَمَلٍ يسقط في الخندق وإعادته إلى اليابسة، وإلا فيمكنه استدعاء والده. وَعَدَتْ «آدا» بإبقاء عينها على الأمور، وباستخدام المكنسة الكهربائية في أرجاء المنزل بين الفترة والأخرى. أرادت أن تعرف كم سيطول غيابي، فقلت: «لا أعرف». وقبل أن أغادر بالضبط جاءتني من قِبَل «ويم» لتسأل عمّا أريد عمله في حصّتي من الحليب.

قالت: «هذه فرصته». مضيفة: «فرصتنا».

أخبرتها أنني أريد التفكير في الأمر وسألتها لماذا لم يأتِ «ويم» بنفسه ليسألني عمّا سأفعله بحصّتي.

نظرت إليّ كما لو أنها على وشك الخروج بعذرٍ آخر منه، ثم قالت: «إنه لا يملك الجرأة».

وسألتني بعد قليل عن سبب احتفاظي بالخراف.

قلت: «لا أملك أدنى فكرة».

الحمّار. لا بأس بالنسبة إليّ.

كلّما توجّه إلي شخص باسمي، بوصفي «هلمر»، أضيف دوماً أمام الاسم في أفكاري «هنك و...». فاسمانا يرتبطان أحدهما بالآخر بغض النظر عن الفترة التي مرّت على وفاته.

ربّما كانت «رايت» على حق في ذلك اليوم البارد من كانون الثاني/يناير عند المقبرة، عندما قالت أن في وسع المرء إن يصبح شخصاً جديداً. أزعجني إعلانها

ذلك في وقتها لكنني لو فتحت عينيّ لأمكنني مشاهدة ذلك في البطّة التي صدمتها السيّارة. فقد أصبحت في زمنٍ قياسي شخصاً جديداً، شخصاً ميتاً.

لا، لا توجد صفوف من السنونو على خطوط الكهرباء المرتخية. الأعمدة لا تزال موجودة، لكن الأسلاك اختفت. وعلى مدى أميال من حولنا يقوم رجال ببذّات برتقالية بمدّ كابلات سميكة وبحفر خنادق ضيّقة على طول الطرق. ولو جئت بعد سنة من الآن لما عرفت أبداً بوجود أعمدة هنا مع أسلاك معلّقة في ما بينها.

٥٦

لا أزال أفتّش عن البومة. والتدخين نشاط تأمّلي. أخذت، وأنا أبحث، في التفكير من دون أي فكرة واضحة عمّا أفكّر فيه. لم أقل «سآتي» بل رفعت يدي. ويمكن لهذا أن يعني شتّى أنواع الأمور. جلس «جاب» على كرسي بلا ظهر عند النافذة. وهو أيضاً يدخّن وينتظر دخولي بسكون. رميت بعقب السيجارة على العشب وسحقته برأس حذائي. ثم سرت واجتزت سيّارته إلى البوّابة المفتوحة.

مضيت في اتجاه الشمس التي غابت عنّي بين الفينة والأخرى بسبب الأشجار وبيوت العطلة الأخرى. هذا المكان متاهة من المسالك والطرق غير المعبّدة. وهذه هي المرّة الأولى التي أحاول فيها عبوره سيراً. فنحن نقوم بكل شيء بالسيّارة التي يقودها «جاب» في العادة بتمهّل شديد. متقاعدان متقدّمان في السنّ في عطلةٍ في بلدٍ غريب. ومن يدري، ربّما تشاهدنا أحياناً امرأة دنماركية عجوز ونحن نمرّ من أمامها ببطء وتفكّر، آه إنهما لوحدهما، هل هما أرملان؟ ليس هناك أي عيب في العشب أمام الأكواخ. الدنماركيون في كل مكان يعملون بالمقصّات وآلات جز

العشب اليدوية أو المجارف. وأنا لن أجزّ العشب لو أنها أمطرت في وقتٍ سابقٍ من اليوم، لكنهم يفعلون ذلك هنا، وأنا لست دنماركيّاً. يقولون لي «هاي». وتعمّ رائحة صمغ الصنوبر والخشب المحروق. وأنا بعيد عن دياري في بلدٍ غريبٍ لم أعرفه إلا من خريطة ثنائية الأبعاد لا روائح فيها ولا أشكال. وأجد، نوعاً ما، أن اسم الحمّار أجمل من اسم «هلمر». ويوجد أيضاً، إلى جانب هذا العدد الكبير من المسالك والممرات الجانبية، الكثير من المفترقات. وهناك في أحد الحقول بعض الجياد الأيسلندية، لم أتوقف لأحك لها أنوفها. من المزعج أن لا يمكنني التوجّه مباشرةً صوب الشمس، وعليّ أن أستمر في اختيار التوجّه شمالاً أو يميناً قبل أن أسلك طريقاً آخر يؤدّي إلى الغرب. «هاي» قلت لامرأةٍ ودودةٍ معها كلب قبل أن أسألها بالإنكليزية عن الطريق. وأنا على الأقل أسير في الاتجاه الصحيح. ذكّرتني بأمي.

أملتُ في بلوغ مطعم «تلة الخلنج» للمشاوي، لكنني أخطأت الطريق في مكانٍ ما وبلغت الطريق الساحلي المعبّد حديثاً في مكانٍ ما بين القرية وتلة الخلنج. ولا يوجد بجانبه ممر للمشاة أو للدراجات. وتوجد على مسافة أبعد قليلاً أرض للتخييم ليس فيها حتى الآن إلا خيم قليلة وما من أحد في الخارج يقفز على «الترامبولين» الموجود على مستوى الأرض. مرّت ثلاث سيّارات وهناك خمس أخرى تأتي في الاتجاه المقابل. أخذت السماء تتحوّل إلى البرتقالي، وأسرعتُ في سيري قليلاً. «غبي» هي الكلمة التي أذكرها عندما أفكّر في «هنك»، بالرغم من الكلام الكثير الذي تبادلناه في أعوامنا الثمانية عشر. المطعم مغلق، وموقف السيّارات الصغير خالٍ، وما من أحد يأكل أي نقانق («بولسر» كما يسمونها هنا). استدرت إلى اليمين ودفعت بالبوابة لفتحها. وها أنا، بعد دقائق قليلة أجلس على الشاطئ الصخري.

رفعت يدي ونظرت إلى الشمس من خلال أصابعي، ووجدتها معلّقةً بعرض نصف إبهام فوق المياه الساكنة، وإلى يميني توجد القرية مع منازلها الأولى المبنية

على الكثبان، وترسو على الشاطئ قبالتها بعض مراكب الصيد المطلية بألوانٍ زاهية. إنها الأمور التي نشاهدها في البطاقات البريديّة. وإلى اليسار يوجد جرف – أعلى من تلة الخلنج – يهبط إلى البحر عند نهاية الشاطئ الصخري. وتتسلّق أدراج خشبية إلى منزل عطلة مطلي بالأسود وله شرفة. الشاطئ مهجور. ولا توجد غربان بقعاء في السماء، وغابت حتى الطيور الطيطوية الرمادية الشديدة الانشغال. لا طائرات، ولا خراف، ولا منصّات نفط. خلعت جينزي وسرت بضع خطوات في البحر مستخدماً المجاز الذي اضطررنا إلى تنظيفه من جديد هذا الصباح. وأنا الوحيد، على امتداد أميال من حولي، الذي يصدر ضجيجاً. أعتقد أن بحيرة «إيسل» توجد من ورائي، على مسافة بعيدة جدّا ورائي، البحيرة التي لا تغيب فيها الشمس أبداً. وعندما بلغتِ المياه ركبتيّ، كتفت ذراعيّ واستدرت قليلاً إلى الشمال، صوب الشمس التي باتت الآن على ارتفاع أظفار فوق الأفق. وعندما أخذ أسفلها يذوب في الماء مثل الشمع الحار، استدرتُ وتسلّقت الجرف. جلست على قمة تلّة الخلنج وعندها فقط رأيت جينزي مرميّا هناك وحده بين الصخور، كما لو أن منتحراً خلفه في مكانه.

تم الأمر بأسرع مما توقّعته. وهو أشبه بمياه البحر تبتلع الكرة البرتقالية أكثر منه بالشمس تغرق تحت الأفق. هبّ الهواء الدافئ على عنقي، ومرّت فترة قبل أن أدرك أنه لا يمكن أن يكون الهواء: الهواء لا يهب بنفخات منتظمة وقصيرة. استدرت ببطء شديد. وعلى بعد أقل من ثمانية إنشات، عند مستوى وجهي، يوجد الرأس الأسود لنعجة متدلّية الأذن. نظرتْ إليّ بلا مبالاة بعينيها الصفراوين، وليس في البؤبؤين استدارة بل يكادان يكونان مربعين. وها إنها تتنفّس في وجهي وتنفح منها رائحة العشب. هذه النعجة ليست كائناً بائساً، بل هي حيوان نبيل. لم يعد في وسعي تحمّل نظرة عينيها الصفراوين فعاودت التطلّع إلى أمامي. بقيت النعجة في مكانها. وتخيّلتُ أنها تنظر، على غراري، إلى السماء فوق البحر بلونها الأزرق والبرتقالي والأصفر.

والذي يكاد يصبح أرجوانيّاً في بعض الأماكن. وتكيّف تنفسّي مع الهواء الدافئ الذي يهبّ على عنقي بنفخات لطيفة.

أعرف أن عليّ النهوض، وأعرف أن الظلام سيخيّم بالفعل على متاهة المسالك والطرق غير المعبّدة في ظل أشجار الصنوبر والبتولا والقيقب. لكنني بقيت جالساً بهدوء. فأنا وحدي.

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان

◆ ◆ ◆

- **الأيام والناس** - برهان الدجاني
- **علم الإبداع** - د. مروان فارس
- **انظر إليك** - مرام المصري
- **بائع الفستق** - سمير عطا الله
- **اللباس والزينة في العالم العربي** - أ بينول
- **أُخذَةُ كِشْ** - ألبير نقاش
- **صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية** - د. محمد أبو علي
- **إميل بجاني، كاتب في الغربال** - بقلم شخصيات عدة
- **طه حسين، من الشاطئ الآخر** - عبد الرشيد محمودي
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** - منير عبود
- **قصة يوطوبيا . قصة مشربية** - حسن فتحي
- **جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران** - د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوف عند العرب** - د. عادل كامل الآلوسي
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** - هادي محيي الخفاجي
- **الطربوش** - روبير سوليه
- **مهما قلت لا تقل** - د. نبيل سليمان
- **امرأة تبحث عن وطن** - ماريا المعلوف
- **خطوات أنثى** - رُدينة الفيلالي
- **أثواب الحزن** - هدى السراري
- **وراء الأفق** - ابراهيم أبو زيد
- **بساطٌ من الزهر الأحمر** - نيلوفر بازيرا
- **إمرأة. . . وظلّان** - خلود عبد الله الخميس
- **اعترافات غايشا** - آرثر غولدن
- **خريف من ذهب** - جوزيف طوبيّا
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** - غسّان علم الدين
- **حقيبة حذر** - عاطف البلوي
- **ألف عام من الصلاة** - ييون لي
- **حبٌّ محرَّم** - يوكيو ميشيما
- **بيل كانتو** - آن باتشيت
- **عشّاق أمي** - هاجر عبد السلام
- **الخامدون** - ربى عنبتاوي
- **هو وهي في السعودية** - هتّان بن محمد الطاسجي
- **نسرين ستموت الليلة - رواية بوليسية** - خديجة نمري
- **حبيبتي الحقيقة** - أحمد طقش
- **الوردة الضائعة** - سردار أوزكان
- **أرملة مهندس** - صالح ابن عايض
- **بومبي** - روبيرت هاريس
- **ويسألونك عن الذاكرة** - د. عبد السلام فزازي
- **فتاة من بلغراد** - لويس دو بيرنيير
- **أصل الغواية** - منتهى العزة
- **دماء الأزهار** - أنيتا أميرسڤاني
- **باب للخروج** - طارق محمود فراج
- **الحريم اللغوي** - يسرى مُقدّم
- **الخجل والكرامة** - داغ سولستاد
- **هل يفرّقنا الدين؟** - حسن السيد أسعد فضل الله
- **أبعد من الريف - شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** - لامع الحر
- **أحمد فؤاد نجم** - د. كمال عبد الملك
- **متتالية فرنسية** - إيرين نِميروفسكي
- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** - بكادي محمد
- **«الأصوليّ» المتردِّد** - محسن حامد
- **مولود وثلاثة آباء** - نائل ماجد مجذوب
- **وصية شاعرة** - ناهد عيد
- **صيف الجرّاح** - محمد طعّان
- **نهاية جيل** - محمد سعيد طالب
- **ما يفعله الغريب في الليل** - محمد دياب
- **رحمة** - توني موريسون
- **الغشوة** - راضي د. شحادة
- **ابن الحزب** - فيصل فرحات
- **رحلة بهمان** - محمد طعان
- **مجانين بوكا** - شاكر نوري
- **التوأم** - غيربرند باكر
- **حين تستحيل الحياة نوراً** - مردار أوزكان
- **اللعنة على نهر الوقت** - بير بيترسون

International Press

الجية، طلعة زاروط،
مبنى International Press، لبنان
هاتف: ٩٦٦٢٠٠/٣٠٠ ٧ ٩٦١+
البريد الإلكتروني: Interpress@int-press.com
الموقع الإلكتروني: www.int-press.com

«رواية عن الحنان المكبوت والفكر الساخر».

ج. م. كوتزي، روائي حاز جائزة بوكر مرتين
وجائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٣

«واحدة من الروايات النادرة، خاسرٌ حكماً مَن لا يقرأها. مليئة بالحياة والحقيقة، نُقلت بصيغة سردية لا تتيح للقارئ أن يبتعد هُنَيهة».

إيلين باترسباي، ذا آيريش تايمز

«بعد الانتهاء من قراءة «التوأم»، يُفترض بجميع القرّاء أن يقولوا: هذا كاتب حقيقي».

هيت بارول



التوأم

أجواءٌ روائية آسرة تستعرض العلاقات الأسرية والصراع بين أفرادها، مستندة إلى القيم السامية ومحاولة كسرها.

حبٌّ يودي إلى الموت وموت يودي إلى علاقات جديدة في مزرعة ريفية بعيدة، حيث تتجلى المشاعر الإنسانية بأبعادها كافة في وضوح وتفصيل.

أبٌ متسلط يفرق بين توأميه، يتحكم بعواطف ابنه الذي ظلّ حيّاً وبطموحاته وأحلامه.

أجواء نفسية وصراع مع الذات وإحساسات بالندم والخطيئة والعقاب الشديد في جدلية قائمة على الـ«أنا» و«الهو».

رجل في منتصف الخمسينات وحيد يستعيد السيطرة، وخطيبة أخيه السابقة التي أصبحت أرملة، وابنها المراهق الذي يجدد ما افتقده البطل.

ISBN 978-9953-88-645-9
9 789953 886459

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر